المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم (الكتاب والسنة)

التناسق الموضوعي في سورتي التحريم والمعارج

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير

تخصص التفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالب

عمر بن معيوض بن عايض الحسيني السلمي

الرقم الجامعي : ٤٣١٨٨١٤٤

إشراف فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور

جمال بن مصطفى النجار

العام الجامعي

١٤٣٤/١٤٣٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة بالعربي

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد :

فهذه رسالة علمية بعنوان ((**التناسق الموضوعي في سورتي التحريم والمعارج**)) وهي جزء من سلسلة رسائل علمية من مشروع علمي تبنته كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى ممثلة في قسم الكتاب والسنة ، تتناول دراسة نوع جديد من التفسير ، وهو التناسق الموضوعي ، وقد تم تطبيقه في هذه الرسالة على سورتي التحريم والمعارج ، وقد قسمت هذه الرسالة إلى مقدمة، وتمهيد وبابين ، وخاتمة وفهارس.

فالمقدمة : تحتوي على أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، وأهدافه ، والجهود والدراسات السابقة في الموضوع، ومنهجي في البحث ، وهيكل البحث ومحتواه .

التمهيد : يحتوى على مقدمات تعريفية للتناسق الموضوعي في السورة القرآنية لغة واصطلاحا .

الباب الأول : **التناسق الموضوعي في سورة التحريم** ، ويحتوي على فصلين : الفصل الأول : يحتوي على مقدمات تعريفية بين يدي السورة .

والفصل الثاني : موضوعات سورة التحريم وتناسقها .

والباب الثاني : **التناسق الموضوعي في سورة المعارج** ، ويحتوي على فصلين : الفصل الأول : يحتوي على مقدمات تعريفية بين يدي السورة .

والفصل الثاني : موضوعات سورة المعارج وتناسقها .

وقد أظهر هذا البحث عددا من النتائج من أهمها ما يلي :

أولا : أن الموضوع الكلي والمحور الأساس الذي تدور عليه موضوعات سورة التحريم هو: **التربية الزوجية.**

ثانيا : أن الموضوع الكلي والمحور الأساس الذي تدور عليه موضوعات سورة المعارج هو : **اليوم الآخر، وصفات المؤمنين به والمنكرين له ، وحالهم فيه .**

ثالثا : أن هناك تناسقا واضحا بين موضوعات كل سورة ، فهي كلها تمضي في سياق متآلف ، وبأسلوب متناسق ومترابط ، فكأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا .

ثالثا : أن دراسة التناسق الموضوعي في السورة القرآنية هي الطريق لمعرفة الوحدة الموضوعية في السورة ، واستجلاء المحور الأساس والموضوع الكلي للسورة .

والله الموفق

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

Summary of thesis

Praise be to Allah alone, prayers and peace be upon the Prophet Muhammad.

This is a thesis with a title of " Substantive Consistency of Surat Al-Tahrim and Al-Maarij". It is a part of series among thesises that was taken over by Advocacy and Theology College at Um Al-Qura University represented by Quran and Sunnah Department. We studied a new kind of survey in interpretation. It is called Substantive Consistency which was applied in this thesis depending on Surat Al-Tahrim and Al-Maarij. I had divided this research into an introduction, preface, two chapters and conclusion.

Introduction:

contains an introduction of substantive consistency in Quranic language and idiomatically.

Chapter one: " Substantive Consistency in Surat Al- Tahrim"

It contains two division:

Division One: An Introduction of Surat Al- Tahrim.

Division Two: Topics of Substantive Consistency of Surat Al- Tahrim.

Chapter two : " Substantive Consistency in Surat Al- Maarij"

It contains two division:

Division One: An Introduction of Surat Al- Maarij.

Division Two: Topics of Substantive Consistency of Surat Al- Maarij.

This research has shown a number of results of which the most important are the following:

First: the main Axis, which talks about the topics of Surat Al-Tahrim, is Marital Moral Education (Moral Education among Couple)

Second: the main Axis, which talks about the topics of Surat Al-Maarij, is the Judgment Day and the characters of its believers and disbelievers and their conditions.

Third: there is a clear coordination between the topics of every Surat. They are all moving in a harmonious sequences with coherent consistent like a solid structure pulled by each other.

Fourth: the study of substantive consistency of these Surat is the way to know the thematic unity of each Surat and the clarification of the total thread of each Surat.

Allah bless

Allah's blessings and peace be upon our Prophet Muhammad and upon his family and companions all.

الإهداء

إلى نفسي المقصرة والفقيرة إلى ربها الرحمن ...

إلى والدي العزيز الذي كان خير عون لي في هذه الحياة ...

إلى أمي الغالية التي كان ولا يزال دعاؤها خير نبراس لي على طريق العلم...

إلى ثغر زوجتي وذريتي الأوفياء الذين تحملوا الكثير من الأعباء ...

إلى جامعة أم القرى منارة العلم وصرح العلماء ....

إلى أساتذتي ، وزملائي ، وإخوتي ، الذين وقفوا معي في مسيرتي التعليمية...

إلى الذين أوقفوا أنفسهم لنصرة هذا الدين العظيم ...

الباحث

كلمة شكر وتقدير

أحمد الله عز وجل وأشكره على ما أولاني من نعمه العظيمة ، ومنَّ به عليّ من إتمام هذا البحث ، ثم أثني بالشكر لوالدي الكريمين على ما منا به علي من فضل ودعاء لا أستطيع لهما ردّاً ، وأثلث بالشكر لجامعة أم القرى على ما قدمته لي ولأمثالي من طلبة العلم من تسهيلات في الالتحاق بهذا الصرح العلمي الشامخ ، وفتحت لنا الأبواب لإكمال دراستنا العليا في أروقتها .

كما وأن الشكر موصول لكلية الدعوة وأصول الدين ، وعلى رأسها عميدها ، وكذلك فضيلة رئيس وأساتذة ومشايخ قسم الكتاب والسنة الفضلاء ، ومن تتلمذت على يديه في السنة المنهجية خاصة .

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل الجليل، الأستاذ الدكتور/جمال مصطفى النجار ، الذي سعدت بإشرافه على هذه الرسالة ، وكان له كبير الأثر في نفسي ، وقد أفدت من خلقه وعلمه ، ودأبه ومثابرته ، وصبره وتحمله ، بما لا أنساه له ، وكان يشجعني إذا أصبت ، ويعلمني إذا جهلت ، ويرشدني إذا أخطأت ، فجزاه الله عني خير الجزاء ، وأمد له في عمره في طاعة وزيادة علم وتوفيق وسداد .

كما أشكر كل أساتذتي الأفاضل سواء ممن تتلمذت عليهم في دراستي الجامعية ، أو في مراحلي التعليمية المختلفة .

وأشكر كذلك المناقشين الكريمين الفاضلين على تفضلهما وتجشمهما بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة ، وتقويم هذا العمل ، وقد اقتضى منهما استقطاع قسط كبير من وقتهما الثمين ، فأرجو أن أستفيد مما سيتفضلان به علي من توجيهات موفقة وآراء سديدة ، تثري هذا العمل.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لي مساعدة في هذا البحث ، أو أسدى إلي نصحا ، أو نبهني على خطأ ، أو أرشدني إلى صواب ، أو دعا لي بظهر الغيب ، فلهم مني الدعاء أن يحفظهم ربي ، ويجزل لهم الأجر والمثوبة ، ويجزيهم خير الجزاء ، وأن يجعلنا جميعا ممن إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا أذنب استغفر .

والحمد لله رب العالمين

المـقـدمـــــة

وتشتمل على :

- أهمية الموضوع .
- أسباب اختيار الموضوع .
- أهداف الموضوع .
- الجهود والدراسات السابقة في الموضوع .
- منهجي في البحث .
- هيكل البحث ومحتواه .

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[النساء :١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] .

أما بعد:-

فقد امتن الله -ﷻ- علي بنعم لا أحصيها ، ومن هذه النعم أن وفقني لمواصلة دراساتي العليا في جامعة أم القرى ، التي تقع في مهبط الوحي ومنبع الرسالة المحمدية ، وأن جعلني من الذين يتشرفون بخدمة كتابه العظيم "القرآن الكريم" ، في قسم الكتاب والسنة تخصص التفسير وعلوم القرآن ..

ولا شك أن العلم يشرف بشرف متعلقه ، كيف ومتعلقه كلام رب الأرباب ومسبب الأسباب -ﷻ-، وبيان ما اشتمل عليه من الأسرار والعبر ، وبديع النظم والترابط بين آيهِ وسورِه ؛ لذا كان واجباً علينا أن نعتني بكتاب الله ونهتم به ، ونحاول إستخراج شئ من عجائبه ودرره وأسراره وحكمه التي لاتنتهي ، لذا فإنني في هذا البحث قد حاولت المساهمة بجهد المقل، عسى أن ألحق بركب الصالحين في خدمة كتاب رب العالمين .

فقررت بعد استخارة الله تعالى وتوفيقه أن أشارك في هذا المشروع ، الذي تبناه قسم الكتاب والسنة في كلية الدعوة وأصول الدين في جامعة أم القرى عن « التناسق الموضوعي في سور القرآن الكريم » ، وكان من فضل الله علي أن حظيت بسورتين عظيمتن من كتاب الله، هما: سورتا التحريم والمعارج. ليكون العنوان: **"التناسق الموضوعي في سورتي التحريم**

والمعارج".

❖ أهمية الموضوع :

أولا : أن الوقوف على التناسق الموضوعي في السورة الواحدة ، وإظهار الترابط والتناسق في نظمها ومعناها وموضوعاتها يدفع المسلم إلى شحذ الهمة لدراسة كتاب الله –ﷻ– ، وتدبر آياته ، من أجل الوقوف على هداياته في جميع المجالات .

ثانيا : أن دراسة التناسق الموضوعي في السورة القرآنية فيها إظهار جانب من جوانب إعجاز النظم القرآني ، وإبراز لعظمته ، وأن كل لفظة وجملة فيه ، بل وكل حرف من حروفه ، يعطي دلالات ومعاني لا توجد في غيره ، مما يعطي ذلك تذوقا مرهفا يؤثر في إحساس وشعور القارئ والسامع لكلام الله –ﷻ– .

ثالثا : أن في دراسة التناسق الموضوعي في السور القرآنية رد على من يطعن في كلام الله –ﷻ– ، ويرى أن في موضوعات السور القرآنية عشوائية واضطرابا ، وذلك ليتوصل إلى نتيجة مفادها : أن القرآن الكريم وليد فكر بشري لا وحيٌ إلهي .

❖ أسباب اختيار الموضوع :

بقي الحديث عن التناسق الموضوعي لسور القرآن الكريم يتردد صداه بين علماء وأساتذة التفسير ، في أروقة وجنبات الجامعات الإسلامية ، وقاعات المحاضرات فترة من الزمن ، إلى أن وفّق الله عز وجل قسم الكتاب والسنة في جامعة أم القرى ؛ لإيقاد هذا المصباح المنير ، وتبنّي هذا المشروع العظيم ؛ ليكون له قصب السبق في ذلك ، ثم طرح هذا المشروع على طلبة الدراسات العليا في شعبة التفسير وعلوم القرآن ، فاخترت المشاركة فيه للأسباب التالية :

أولا : حرصي على إلزام نفسي بالتدبر والتفكر في كتاب الله –ﷻ– .

ثانيا : رغبتي في الازدياد المعرفي وأن أكون ممن يتعلم القرآن ويعلمه .

ثالثا : ندرة من اهتم ببيان ترابط وتناسق آي الذكر الحكيم في سور القرآن الكريم .

رابعا : المساهمة في إثراء المكتبة الإسلامية بمصنف يعنى بكتاب الله -ﷻ- .

ومما يجدر بالذكر أن أنظار العلماء والباحثين قد اتجهت إلى النظر في أوجه إعجاز القرآن الكريم من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، ولكنهم لم يعطوا التناسق الموضوعي كبير اهتمام ، وفي ذلك يقول الإمام الرازي[1] في تفسير سورة البقرة : « ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بسبب نظم أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منبهين لهذه الأسرار »[2].

ويقول الشيخ / سعيد حوى[3] في مقدمة كتابه (الأساس في التفسير) : دندن علماؤنا حول الصلة بين آيات السورة الواحدة ، وحول الصلة بين سور القرآن ، وحول السياق القرآني، وجاءت نصوص تتحدث عن أقسام القرآن : قسم الطوال ، وقسم المئين، وقسم المثاني ، وقسم المفصل . ولم يستوعب أحد من المؤلفين الحديث عن هذه القضايا – في علمي– بما يغطيها تغطية مستوعبة ، وفي عصرنا –الذي كثر فيه السؤال عن كل شيء– أخذ كثير من الناس يتساءلون عن الصلة بين آيات القرآن الكريم وسوره .... فأصبح الكلام في هذا الموضوع من الأهمية بمكان على المتخصصين في التفسير وعلوم القرآن [4].

وقد اجتهدت في الخوض في غماره ، فما أصبت فيه فمن الله وحده ، وما أخطأت فيه

---

(١) هو : محمد بن عمر بن الحسين الرازي ، الشهير بابن خطيب الري، المفسر الأصولي المتكلم،صاحب التصانيف، ومنظر مذهب الأشاعرة ، توفي سنة ست وستمائة. انظر: السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود محمد الطناجي ، ود.عبد الفتاح الحلو ، هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣ه ، (٨/٨١) .

(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، (٧/١٣٩) .

(٣) هو سعيد محمد أديب محمود حوى ، ولد في حماة بسورية سنة ١٣٥٤ه ، وتخرج من جامعة دمشق ، سافر إلى السعودية ، ومكث فيها أربع سنوات وعمل فيها مدرسا للغة العربية والتربية الإسلامية ، تولى قيادة جماعة الإخوان في سورية، ثم أصيب بشلل جزئي بالإضافة إلى مرض السكري والضغط اجبرته على اعتزال العمل القيادي ، وتوفي بعد معاناة وصراع طويل مع المرض في سنة : ١٤٠٩ه ، انظر : رمضان ، محمد خير ، تتمة الأعلام ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار ابن حزم ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، (١/٢٠٧) .

(٤) حوى ، سعيد ، الأساس في التفسير ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار السلام ، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م ، (١/٩) بتصرف.

فمن نفسي والشيطان ، والله ورسوله صلى الله عليه وسلم منه بريئان .

❖ أهداف الموضوع:

لقد أردت من خلال بحثي في هذا الموضوع تحقيق الأهداف التالية :

أولا : بيان التناسق الموضوعي في سورة التحريم وفي سورة المعارج كلا على حدة .

ثانيا : توضيح الإعجاز في بلاغة نظم القرآن ، وجمال سبكة ، وروعة تناسقه .

ثالثا : استنباط العبر والعظات والفوائد من الآيات والمواضيع القرآنية المتناسقة .

رابعا : محاولة ربط الحياة المعاصرة بهدايات القرآن الكريم .

❖ الجهود والدراسات السابقة في الموضوع :

يمكن تقسيم الجهود والدراسات السابقة لسورتي التحريم والمعارج إلى دراسات عامة أو مؤلفات ، وإلى دراسات خاصة أو رسائل علمية :

أولا : المؤلفات والدراسات العامة في سورتي التحريم والمعارج :

والمراد بها ما ورد من تفسير للسورتين، بالإضافة إلى غيرهما سواء في كتب الأقدمين أو المعاصرين، فقد تناولها المفسرون في كتبهم على حسب طرائقهم في التفسير، بالمأثور أو بالرأي أو بكليهما ، سواء كان من النوع التحليلي ، أو الفقهي ، أو النحوي ، أو الإشاري ، أو البلاغي ، أو غير ذلك . وليس هذا هو المقصود الأساس لدراستنا هنا ، وإن كانت تحاول الإفادة مماسبق من كتابات ، وبعضهم قد ألمح وتناول المقاصد والأغراض ، لكن دون إسهاب وبيان للتناسق الموضوعي لآيات كل سورة، وبيان موضوعات السورة كما أرغب بيانه في السور محل الدراسة..

ومما يجدر بالذكر أن بعضا من علماء التفسير تناول الحديث عن التناسب والتناسق في السور القرآنية ، **ومن أبرز من كتب فيه** :

الإمام فخر الدين الرازي في كتابه "**التفسير الكبير**" ، وذكر فيه المناسبات بين السور والآيات من غير توسع ، مع ذكر الطابع العام الذي يغلب على موضوعاتها ، وله مؤلف مستقل في هذا سماه : (**أسرار التنزيل**) وقد توفي بعد الجزء الأول منه و لم يكمله .

والإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي[1]، وله كتاب " **البرهان في تناسب سور القرآن**"، وهو أول من أفرد علم المناسبات بمؤلف ، ويهتم بالمناسبات بين السور .

والإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي[2]، وله كتاب " **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** " ، وهو العمدة في علم المناسبات ، فهو يهتم بالمناسبات بين السور والآيات والجمل والألفاظ .

وللحافظ جلال الدين السيوطي[3]، كتاب اسمه : " **قطف الأزهار في كشف الأسرار**" والذي يشير إليه في الإتقان بـــــ" **أسرار التنزيل** " ، وموضوعه كل ما يختصّ بالنظم القرآني ، وقد اعتنى فيه مؤلفه بعلم المناسبات ، سواء المناسبات بين السور ، أو بين الآيات ، أو حتى في الآية الواحدة ، حيث بيّن وجه الربط بين أجزائها ، لكن الموجود من هذا الكتاب بتحقيق : الدكتور / أحمد الحمادي ، نشر وزارة الأوقاف بقطر ، ينتهي عند الآية (٩٢) من سورة التوبة.

وله كتاب آخر بعنوان : "**تناسق الدرر في تناسب السور**" وقد طبع بعنوان : " **أسرار ترتيب القرآن**" ، بتحقيق : عبد القادر عطا ، وقد ذكر في هذا الكتاب وجه اتصال السور بما قبلها وما بعدها ، ولم يذكر المناسبة بين الآيات ، وهذا الكتاب في غاية الاختصار ، ووظيفته كما هو ظاهر من عنوانه لا تتعدى المناسبة بين السورة وسابقتها ، في أسطر تكاد

---

(١) هو : أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر ، ولد بمدينة جيان سنة ٦٢٧ أو ٦٢٨ه ، انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية ، وتجويد القرآن ، ورواية الحديث ، إلى المشاركة في الفقه ، والقيام على التفسير ، والخوض في الأصلين ، وهو سني العقيدة ، مالكي المذهب ، وتوفي سنة (٧٠٨) . انظر: مقدمة كتابه البرهان في تناسب سور القرآن ، بتحقيق د. سعيد بن جمعة الفلاح ، الطبعة الأولى ، الدمام : دار الجوزي ، ١٤٢٨هـــ : (٧٩-٨٠) .

(٢) هو : إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط البقاعي ، نزيل القاهرة ثم دمشق، الإمام الكبير برهان الدين ولد تقريباً سنة تسع وثمانمائة بقرية من عمل البقاع ونشأ بها ، برع في جميع العلوم وفاق الأقران ، وتوفي في دمشق سنة خمس وثمانين وثمانمائة ، انظر : الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، بيروت : دار المعرفة ، (١٨/١) .

(٣) هو : عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ، صاحب التصانيف ، نشأ يتيماً ، واعتزل الناس في الأربعين من عمره ، واشتغل بالتأليف ، توفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة . انظر : العماد ، عبد الحي الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت : دار المسيرة ، ١٣٩٩ه ، (٥١/٨) .

لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة .

ولقد أفاد علماء التفسير المتأخرون مما وصل إليه المتقدمون في هذا الشأن ، وساروا بخطوات ثابتة نحو استجلاء المحور الأساس الذي تربط عليه جميع موضوعات السورة ، وقد استطاع بعضهم أن ينظر بعين فاحصة إلى أجزاء السورة وينظر بناءها المتكامل المتسق ، ويضع يده على غرضها الرئيس بشكل أدق .

ومن أبرز من كتب فيه :

المفسر الشيخ الطاهر ابن عاشور[1]، وهو من أفضل من حاول في تفسيره ذكر أغراض السورة وتوسع فيها ، وذكر المناسبات بين مقاطع السورة الواحدة ، وقد نص على ذلك في مقدمته لكتابه " **التحرير والتنوير**" [2].

ومن المكثرين في إثبات ما يسمى بـــ"**الوحدة الموضوعية**" في القرآن ، واستدل لها ، وعمد إلى إبرازها تطبيقيا من خلال سورة واحدة ، وهي سورة البقرة ، الدكتور / محمد عبد الله دراز[3] في كتابه "**النبأ العظيم**" ، حيث توخى بيان حسن التأليف في السورة الواحدة التي تتنوع فيها الموضوعات باعتباره أحد وجوه الإعجاز .

ويعد كتاب سيد قطب[4] " **في ظلال القرآن** " من أحسن ما كتب في هذا المجال ، ولا شك أن هذا الكتاب قد تميز في إظهار التناسب اللفظي في موضوعات السورة ، والتناسق المعنوي في صياغتها صياغة أدبية راقية ، كما امتاز في عرضه للموضوعات القرآنية بصياغتها

---

(١) هو : محمد بن الطاهر بن عاشور ، شيخ جامع الزيتونه بتونس ، من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف . انظر : الزركلي ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام ، الطبعة الخامسة عشر ، بيروت : دار العلم للملايين ، ٢٠٠٢م ، (١٧٤/٦) .

(٢) انظر : (١٤٥/٥) .

(٣) هو : محمد بن عبد الله دراز ، عالم أزهري ، وفقيه وأديب كان من هيئة كبار العلماء في الأزهر، من أشهر مؤلفاته: النبأ العظيم، ودستور الأخلاق في القرآن، توفي سنة سبعٍ وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية ، انظر: الزركلي، الأعلام:(٢٤٦/٦).

(٤) هو سيد قطب إبراهيم ، مفكر إسلامي مصري ، تخرج من كلية دار العلوم ، له كتب كثيرة مطبوعة متداولة ، من أشهرها : " انظر : في ظلال القرآن"، أعدم شنقا سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف . انظر : الزركلي ، الأعلام : (١٤٧/٣) .

بما يظهر الاعتزاز بالإسلام ، وصلاحيته للتطبيق في الحياة المعاصرة .

ومن الكتب التي اهتمت بهذا الموضوع ، كتاب الشيخ / سعيد حوى، وهو " **الأساس في التفسير**"، وقد ذكر في مقدمة كتابه، أنه وضع هذا الكتاب لبيان الوحدة الموضوعية في سور القرآن ، ويجد القارئ والباحث أن المؤلف قد ابتكر طريقة جديدة للتفسير ، وفي نظري أنه لا غنى لكل باحث في التناسق الموضوعي عن النظر في الكتاب والاستفادة منه .

وقد صدر مؤخرا موسوعة علمية باسم (**التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**) من إعداد نخبة من أساتذة التفسير ، وعلوم القرآن ، بإشراف الأستاذ الدكتور/ مصطفى مسلم[1] ، وهي من إصدارات جامعة الشارقة، وقد بين المشرف في المقدمة منهج العمل فيه وهو باختصار كما يلي :

– ذكر مقدمة بين يدي السورة للتعريف بأسمائها وفضائلها ومكيها ومدنيها وعدد آياتها ومحور السورة ومناسباتها ، وذلك على أن لا تزيد الكتابة فيها عن خمس صفحات .

– تفسير موضوعات السورة تفسيرا إجماليا ، وبيان الهدايات المستنبطة منها ، وذلك على أن لا تزيد الكتابة في تفسير المقطع وبيان الهدايات المستنبطة منه عن سبع صفحات .

وإنني أود أن أشير في هذا المكان إلى أن التناسق الموضوعي للسور القرآنية شيء ، والتفسير الموضوعي لها شيء آخر كما هو واضح جلي للمتخصص ، بالرغم من أن لدي ملاحظات عامة على ما كتب في سورتي التحريم والمعارج ، ومن أهم تلك الملاحظات :

– عدم التوسع في ذكر المناسبات بين السورة والآيات ، وبالتالي عدم وضوح التناسق بين موضوعات السورتين .

– عدم التطرق إلى بيان مقاصد السورتين وأهدافهما ، بشكل أوسع .

– القصور في توثيق النصوص ، وعدم إحالتها إلى مصادرها ومراجعها .

– قلة المصادر والمراجع فيها .

---

(١) هو : الأستاذ الدكتور / مصطفى مسلم محمد ، أستاذ التفسير وعلوم القرآن ، درّس في جامعة الإمام بالرياض ، وفي جامعة الشارقة بالإمارات ، وهو من المهتمين بالتفسير الموضوعي وله فيه مؤلفات كثيرة ، ويعمل حالياً خبيراً في مركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض. انظر: موقع المكتبة الشاملة http://shamela.ws/index.php/author/١٤٩١.

وإنني حين أذكر هذه الملاحظات أعترف باستفادتي من هذه الموسوعة ، وهي لا تقلل أبدا من قيمتها ، فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء .

ثانيا : الدراسات و المؤلفات الخاصة في سورتي التحريم والمعارج :

لقد قمت بإجراء عملية بحث واسعة عنها ، في أروقة بعض المكتبات العلمية الكبيرة ، وكذلك عن طريق الشبكة العنكبوتية ، كموقع فهرست مصنفات تفسير القرآن الكريم التابع لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية[١] ، وموقع ملتقى أهل التفسير[٢]، وبعض الموسوعات الخاصة بالدراسات القرآنية مثل (كشاف الدراسات القرآنية) للدكتور / عبد الله الجيوسي ، والبحث كذلك في قواعد مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، وغيرها ، فلم أجد -حسب إطلاعي القاصر- كتاباً خاصاً ، أو رسالةً علميةً تناولت سورتي التحريم والمعارج من حيث التناسق الموضوعي فيهما ، وربط آيات كل سورة وموضوعاتها ببعضها على نسق واحد ، فبعد البحث والتنقيب لم أجد سوى رسالة في «تفسير سورة التحريم وما اشتملت عليه من أحداث وقضايا » للطالبة : إنعام محمد بديوي ، في كلية البنات التابعة للرئاسة العامة للبنات سابقاً ، وهي لا تختص بالتناسق الموضوعي في السورة وآياتها ، ولم تتطرق إلى هذا الجانب على الإطلاق ، ويغلب عليها الفوائد الفقهية والدعوية والايمانية .

❖ منهجي في البحث:

سأتبع – بعون الله تعالى وتوفيقه- في هذا البحث المنهج الوصفي ، والمنهج التحليلي ، كل فيما يناسبه بناءًا على الخطوات التالية :

- التعريف بكل سورة ، وبيان خصائصها ، وأسباب نزولها إن وجدت .
- ذكر ما ورد في فضل كل سورة أوبعض آياتها ، وأقوال العلماء في ذلك .
- تقسيم كل سورة إلى موضوعات ، وبيان التناسق بينها .
- ذكر المناسبات المتعلقة بكل سورة بالفواتح ، واسم السورة إن تيسر .
- العظات والعبر والفوائد والهدايات من المقاطع والآيات .
- شرح الألفاظ الغريبة ، وبيان معانيها .
- تقسيم المواضيع على حسب الخطة .
- بيان التناسق بين آيات الموضوع الواحد ، وبين موضوعات السورة .

---

(١) انظر : www.qurancomplex.org/tbooks/default.asp? .

(٢) انظر : www.tafsir.net .

- عزو الآيات إلى سورها، والأحاديث إلى مصادرها.
- عزو الأقوال إلى قائليها ، وبيان مراجعها .
- التعريف بالأعلام .
- وضع الفهارس التفصلية المناسبة في آخر البحث .

❖ هيكل البحث ومحتواه :

يشتمل البحث على : ((مقدمة وتمهيد وبابين وخاتمة)) .

المقدمة : وتشتمل على :

- أهمية الموضوع .
- أسباب اختيار الموضوع .
- أهداف الموضوع .
- الجهود والدراسات السابقة في الموضوع .
- منهجي في البحث .
- هيكل البحث ومحتواه .

التمهيد : التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : معنى التناسق لغة واصطلاحا .

المطلب الثاني : معنى الموضوع لغة واصطلاحا .

المطلب الثالث : معنى السورة لغة واصطلاحا .

المطلب الرابع : معنى التناسق الموضوعي في السورة .

الباب الأول : التناسق الموضوعي في سورة التحريم

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : بين يدي سورة التحريم ، ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : اسم السورة وما ذكر لها من أسماء ، وما ورد في فضلها أو بعض آياتها ، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها ، ومكي السورة ومدنيها ، ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : اسم السورة وما ذكر لها من أسماء .

المطلب الثاني : ما ورد في فضل سورة التحريم أو بعض آياتها .

المطلب الثالث : عدد آيات سورة التحريم .

المطلب الرابع : تاريخ نزول سورة التحريم .

المطلب الخامس : مكي سورة التحريم ومدنيها .

المبحث الثاني : اختصاص سورة التحريم بما اختصت به .

المبحث الثالث : مقاصد سورة التحريم .

المبحث الرابع : الوحدة الموضوعية لسورة التحريم .

المبحث الخامس : مناسبات سورة التحريم ، ويشتمل على تمهيد وأربعة مطالب :

التمهيد : تعريف المناسبة لغة واصطلاحا .

المطلب الأول : مناسبة سورة التحريم لما قبلها وما بعدها .

المطلب الثاني : مناسبة اسم سورة التحريم لموضوعاتها .

المطلب الثالث : مناسبة فاتحة سورة التحريم لموضوعاتها .

المطلب الرابع : مناسبة فاتحة سورة التحريم لخاتمتها .

الفصل الثاني: موضوعات سورة التحريم وتناسقها

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث :

التمهيد : بين يدي موضوعات سورة التحريم .

المبحث الأول : تحريم وعتاب ومغفرة ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : سبب نزول سورة التحريم .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

المبحث الثاني : التربية في حفظ الأسرار الزوجية ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

المبحث الثالث: التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

المبحث الرابع : التربية بضرب المثل بالنساء الغابرات، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

الباب الثاني : التناسق الموضوعي في سورة المعارج

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : بين يدي سورة المعارج ، ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : اسم السورة وما ذكر لها من أسماء ، وما ورد في فضلها أو بعض آياتها ، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها ، ومكي السورة ومدنيها .

المطلب الأول : اسم السورة وما ذكر لها من أسماء .

المطلب الثاني : ما ورد في فضل سورة المعارج أو بعض آياتها .

المطلب الثالث : عدد آيات سورة المعارج .

المطلب الرابع : تاريخ نزول سورة المعارج .

المطلب الخامس : مكي سورة المعارج ومدنيها .

المبحث الثاني : اختصاص سورة المعارج بما اختصت به .

المبحث الثالث : مقاصد سورة المعارج .

المبحث الرابع : الوحدة الموضوعية لسورة المعارج .

المبحث الخامس : مناسبات سورة المعارج . ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة سورة المعارج لما قبلها وما بعدها .

المطلب الثاني : مناسبة اسم سورة المعارج لموضوعاتها .

المطلب الثالث : مناسبة فاتحة سورة المعارج لموضوعاتها .

المطلب الرابع : مناسبة فاتحة سورة المعارج لخاتمتها .

الفصل الثاني: موضوعات سورة المعارج وتناسقها

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : بين يدي موضوعات سورة المعارج .

المبحث الأول : اليوم الآخر وحال المجرم فيه ، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الثالث : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الرابع : مما ترشد إليه الآيات .

المبحث الثاني : المؤمنون باليوم الآخر صفاتهم وحالهم فيه ، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

المبحث الثالث : المنكرون لليوم الآخر وبعض أحوالهم ، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

الخـــــاتـــــمـــــــة : وتشتمل على :

أولا : نتائج البحث .

ثانيا : توصيات الباحث .

الفـــــهـــــــارس العامة : وتشتمل على :

أولا : فهرس الآيات القرآنية .

ثانيا : فهرس الأحاديث والآثار .

ثالثا : فهرس الأعلام .

رابعا : فهرس المصادر والمراجع .

خامسا : فهرس الموضوعات .

التمهيد

التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف التناسق لغة واصطلاحا .

المطلب الثاني : تعريف الموضوع لغة واصطلاحا .

المطلب الثالث : تعريف السورة لغة واصطلاحا .

المطلب الرابع : تعريف التناسق الموضوعي في السورة .

تمهيد

التناسق الموضوعي في سور القرآن الكريم مشروع بحثيٌ مبارك تبناه قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى اهتماماً بكتاب الله -ﷻ-.

وقد من الله -ﷻ- علي بأن كنت أحد الطلبة المساهمين في هذا المشروع المبارك بعد استخارة الله -تعالى- ، ومشورة بعض أساتذتنا الأفاضل .

ولابد من تعريف التناسق الموضوعي في السورة قبل البدء في هذا الموضوع ، وحيث أن مصطلح **التناسق الموضوعي** مركب تركيباً وصفياً من جزأين أو كلمتين ، وهما : «التناسق» و«الموضوع» ، فلذا سأورد تعريف كل منهما منفردا لغة واصطلاحا ، ثم أردف بتعريف "السورة " لغة واصطلاحا ، ثم أذكر تعريف المصطلح بمجموع أجزائه .

المطلب الأول
معنى التناسق لغة واصطلاحا

أولا : معنى «التناسق » لغة :

التناسق : مصدر ، وفعله : تناسق ، وهو مزيد ، وأصل الفعل : نسَقَ ، والاسم منه : نسق بتحريك عين الفعل ، ونسق بتسكينها ، والنسق من كل شيء : ما كان على طريقة نظام واحد ، عام في الأشياء ، ويطلق على ما جاء من الكلام على نظام واحد ، والنَسْق : بتسكين السين : مصدر نسقت الكلام إذا عطفت بعضه على بعضه ، كما يطلق على التتابع ، يقال: ناسق بين الأمرين إذا تابع بينهما ، والتنسيق : التنظيم ، يقال : نسّقه تنْسيقا ، أي : نظّمه على السّواءِ [(١)].

وأصل استخدام هذه الكلمة في الدر، والخرز ، واللؤلؤ ، وغيرها ، مما فيه زينة وحلية ، وهي مما يحتاج إلى نظمه بطريقة متناسبة توحي بالجمال والذوق ، واستخدامه في الكلام من

---

(١) انظر : ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، الطبعة الأولى ، تحقيق : نخبة من الأساتذة ، القاهرة: دار المعارف ، (٦٨٢/١) . والزبيدي ، أبو الفيض محمد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، بيروت : دار الهداية ، (٤١٩/٢٦) ، والفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط ، تحقيق : مكتبة التراث ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ، (١١٩٥) .

المجاز ، يقال : كلام متناسق ، وقد تناسق كلامه ، وجاء على نسق ونظام [١].

وقد ورد في كتب السنة من حديث ضعيف « حِجَج تترى و عُمَر نسقا يدفعن ميتة السوء و عيلة الفقر» [٢] ، ونسقا بمعنى متتابعة .

ومن آثار الصحابة -رضي الله عنهم- ما روي عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه قال: «ناسقوا بين الحج والعمرة »[٣]. وناسقوا هنا بمعن تابعوا .

ومما تقدم يتضح أن من معاني "تناسق الكلام" في اللغة ما يلي :

١- نظم الكلام وحسن تركيبه .

٢- عطف الكلام بعضه على بعض ، والنحويون يسمون حروف العطف: حروف النسق .

٣- الملاءمة والمتابعة بين أجزاء الكلام .

٤- توالى الكلام واتصال بعضه ببعض .

وعند النظر والتأمل في هذه المعاني تلاحظ أن مادة نسق في اللغة تشتمل على معاني الإنتظام والعطف وحسن التركيب وأن تكون على توال وإتصال **فالتناسق لغة : حسن التنظيم وتمامه وترتيب العناصر وإنسجامها مع بعضها البعض.**

ثانيا : معنى «التناسق » اصطلاحا :

لم أجد من علماء التفسير وعلوم القرآن من عرف مصطلح التناسق مفردا على حسب اطلاعي ، إلا أنه قد وردت هذه اللفظة في كلام بعض أهل العلم ، وكان الغرض منه بيان التعريف اللغوي السابق .

ومن العجيب أن نجد أن اليهود هم أول من أنكر التناسق في القرآن الكريم كما روى ذلك ابن جرير الطبري[٤] عن ابن عباس –رضي الله عنهم-: أن جماعة من اليهود جاؤوا

---

(١) انظر : الزمخشري ، أساس البلاغة ، القاهرة : دار مطابع الشعب ، ١٩٦٠م ، (٩٥٣) .

(٢) رواه عبدالرزاق في مصنفه عن عامر بن عبدالله بن الزبير مرسلا (١٠/٥) ، برقم : (٨٨١٥) وقد ضعفه الألباني رحمه الله في صحيح وضعيف الجامع الصغير : (٢٣٦/١٤) ، برقم : (٦٤٣٩) .

(٣) أنظر : غريب الحديث لابن الجوزي : (٤٠٥/٢) ، والنهاية في غريب الحديث والأثر : (٤٧/٥) وكنز العمال : (٥/٥) ، برقم : (١١٨١٨) ، وقد عزاه للصحاح للجوهري ، ولم أجده في المطبوع منه.

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري وقيل يزيد بن كثير ابن غالب صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير كان إماما في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ وغير ذلك صاحب التصانيف الباهرة، وله مصنفات مليحة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة فضله وكان من الأئمة المجتهدين لم يقلد احدا وكان ثقة ⇦=

للنبيﷺ، فقالوا: كيف نتّبعك وقد تركت قبلتنا؟ وإن هذا الذي جئت به ، لا نراه متناسقا، كما تناسق التوراة، فأنزل علينا كتابا نعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به، فأنزل الله :﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[سورة الإسراء:٨٨][(١)].

وأما عند علماء التفسير الأوائل فأول من وجدته ذكر تناسق الآيات هو الإمام ابن عطية الأندلسي[(٢)] في تفسيره المحرر الوجيز ، فقد ذكر تناسق الآيات في ثلاثة مواضع[(٣)] ، منها قوله: « فأردف الاستغناء بالتفضل وهذا أجمل تناسق ثم عقب بهذه الألفاظ المضمنة الوعيد المحذرة من بطش الله -ﷻ- في التعجيل بذلك ، وأما مع المهلة ومرور الجديدين فكذلك عادة الله في الخلق وأما الاستخلاف فكما أوجد الله تعالى هذا العالم الآدمي بالنشأة من ذرية قوم متقدمين أصلهم آدم -عليه السلام-. وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾[سورة الأنعام : ١٣٣]»[(٤)].

= في نقله وتاريخه أصح التواريخ وأثبتها وذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء في جملة المجتهدين ، ولد : (٢٢٤) ، وتوفي : (٥٣١٠ه) ببغداد . أنظر : وفيات الأعيان: (١٩٢/٤) ، سير أعلام النبلاء : (٢٦٧/١٤) .

(١) تفسير الطبري : (١٥٨/١٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور : (٣٣٥/٥) إليه وإلى ابن المنذر وابن أبي حاتم ، و لم أجد من العلماء من تعرض إلى تصحيح هذه الرواية أو تضعيفها .

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية قدوة المفسرين أبو محمد الغرناطي القاضي وكان فقهيا عارفا بالأحكام والحديث والتفسير بارع الأدب بصيرا بلسان العرب واسع المعرفة له يد في الإنشاء والنظم والنثر وكان يتوقد ذكاء له التفسير المشهور ذكر في أسامي الكتب أنه المسمى بالمحرر الوجيز تفسير الكتاب العزيز وهو تفسير شريف جليل القدر والشأن قد تداوله فحول العلماء وأثنوا عليه خيرا حتى قال أبو حيان هو أجل من صنف في علم التفسير وأفضل من تصدر للتنقيح فيه والتفسير وقال جماعة من الفضلاء كتاب ابن عطية أجمع وللسنة السنية أخلص وأكمل .

أنظر طبقات المفسرين للسيوطي (٦٠/١-٦١) ، وطبقات المفسرين للداودي : (١٧٦/١-١٧٧) .

(٣) أنظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية الأندلسي ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، الطبعة الاولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م ، (٥٤٤/١،) (٣٤٧/٢) ، (٣٥٩/٢) .

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : (٣٤٧/٢) .

ثم فخر الدين الرازي وصفه بأنه أحسن علوم القرآن ، في كتابه التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[فصلت:٣٧] . قال : « اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله ، وقدرته ، وحكمته ، تنبيها على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن »[(١)].

و لم أجد له في تفسيره سوى هذا الموضع متحدثاً فيه عن التناسق .

وأتى بعدهما أبو حيان الأندلسي[(٢)] ، وتكلم عن التناســـــق في بضعة مواضع[(٣)] أولها : في بداية سورة البقرة قوله : « وقد تقدم لنا بعض كلام على تناسق الآي التي تقدم الكلام عليها ، ونحن نلخص ذلك هنا ، فنقول: افتتح تعالى هذه السورة بوصف كلامه المبين، ثم بين أنه هدى لمؤمني هذه الأمّة ومدحهم، ثم مدح من ساحَلَهم في الإيمان وتلاهم من مؤمني أهل الكتاب، وذكر ما هم عليه من الهدى في الحال ومن الظفر في المآل ، ثم تلاهم بذكر أضدادهم المختوم على قلوبهم ، وأسماعهم المغطي أبصارهم ، الميؤوس من إيمانهم ، وذكر ما أعد لهم من العذاب العظيم ، ثم أتبع هؤلاء بأحوال المنافقين المخادعين المستهزئين ، وأخر

---

(١) التفسير الكبير : (١١١/٢٧) .

(٢) هو الإمام فخر الأندلس أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الإمام أثير الدين الغرناطي النفزي صاحب التفسير المشهور (البحر المحيط) نحوي عصره ، ولغويه ، ومفسره ، ومحدثه ، ومقرئه ، ومؤرخه ، وأديبه ، ولد (٦٥٤هـــ)، وسمع الحديث بالأندلس ثم رحل إلى سبتة وبجاية وتونس ومصر والحجاز والشام ، أكب على الحديث وأتقنه وبرع فيه مع النحو واللغة والقراءات والأدب والتاريخ وطار ذكره ، وأخذ عنه أكابر أهل عصره كالتقي السبكي وولديه والجمال الاسنوي وغيرهم ، توفي سنة (٧٤٥هـــ) . أنظر : معرفة القراء الكبار : (٧٢٣/٢-٧٢٤) ، وفهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم : (١٥٥/١) .

(٣) انظر : تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـــ-٢٠٠١م،(٢٣٠/١-٥٠٥)، (١٢٦/٣)، (٤٤٣/٤)، (٣٤٠/٥)، (٢٦٦/٧) ، (٢٦٤/٨-٤٣٥).

ذكرهم وإن كانوا أسوأ أحوالا من المشركين ؛ لأنهم اتصفوا في الظاهر بصفات المؤمنين وفي الباطن بصفات الكافرين، فقدم الله ذكر المؤمنين، وثنى بذكر أهل الشقاء الكافرين، وثلث بذكر المنافقين الملحدين، وأمعن في ذكر مخازيهم فأنزل فيهم ثلاث عشرة آية، كل ذلك تقبيحا لأحوالهم وتنبيها على مخازي أعمالهم ، ثم لم يكتف بذكر ذلك حتى أبرز أحوالهم في سورة الأنفال ، فكان ذلك أدعى للتنفير عما اجترحوه من قبيح الأفعال . فانظر إلى حسن هذا السباق الذي نوقل في ذروة الإحسان وتمكن في براعة أقسام البديع وبلاغة معاني البيان » [1] .

وقال في موضع آخر من تفسير سورة البقرة :«كذلك جمعت هذه الآيات بين الوعيد والوعد، والترغيب والترهيب ، والإنذار والتبشير ، وصار فيها استطراد من شيء إلى شيء ، وإخبار بمغيب بعد مغيب ، متناسقا تناسق اللآلىء في عقودها ، متضحة اتضاح الدراري في مطالع سعودها ، معلمة صدق من أتى بها ، وهو ما قرأ الكتب ، ولا دارس ، ولا رحل ، ولا عاشر الأحبار ، ولا مارس ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [سورة النجم:٣-٥] – صلى الله عليه وأوصل أزكى تحية إليه- »[2].

وممن ذكر التناسق من المتأخرين من علماء التفسير محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿...فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد:٢١] : « وقوله :﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[1] جواب كما تقدم ، وفي الكلام إيجاز ؛ لأن قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا ﴾ يؤذن بأنه إذا عزم الأمر حصل لهم ما لا خير فيه. ولفظ ﴿ خَيْرًا ﴾ ضد الشر بوزن فعل ، وليس هو هنا بوزن أفعل. مقتضى تناسق النظم أن هذا مفرع على قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾؛ لأنه يفهم منه أنه إذا عزم الأمر تولوا عن القتال، وانكشف نفاقهم فتكون إتماما لما في الآية السابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أحد»[3] .

---

(١) تفسير البحر المحيط : (١/ ٢٣٠) .

(٢) تفسير البحر المحيط : (١/٥٠٥) .

(٣) تفسير انظر : التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ، تونس : دار سحنون للنشر والتوزيع ، ١٩٩٧م ، ⇦=

وأكثر من تكلم عن التناسق في القرآن الكريم من المفسرين الأولين والآخرين سيد قطب ، في تفسيره في ظلال القرآن، فإنه ذكره في قرابة مائة موضع من تفسيره ، منها قوله : «والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً ، ومستوياتها ومجالاتها، مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها. ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها -بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه- ما يملك إدراكه، في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى ، ومن ثم فإن كل أحد ، وكل جيل، مخاطب بهذه الآية. ومستطيع -عند التدبر وفق منهج مستقيم- أن يدرك من هذه الظاهرة -ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق- ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ، وتلك الطائفة في ذلك الجيل كانت تخاطب بشيء تدركه ، وتملك التحقق منه بإدراكها في حدودها الخاصة ، تتجلى هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق ، ابتداء في التعبير القرآني من ناحية الأداء وطرائقه الفنية.

إلى أن قال : إلا أنه يتبقى من وراء كل الاختلاف البشري الكثير في إدراك هذه الظاهرة -كاختلافه الكثير في كل شيء آخر! -بقية يلتقي عليها كل إدراك، ويلتقي عليها كل جيل ... ثم يختلف الناس بعد ذلك ما يختلفون في إدراك آماد وآفاق وأبعاد وأنواع ذلك التناسق!» [1].

وبعد أن أوضحتُ حال هذه المفرده -التناسق- في الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح وفي كتب التفسير عبر العصور ، وحيث لم أجد لهذا المصطلح تعريفاً لديهم إلا أنه يدور عندهم حول معاني التتابع والترابط والجمال وعدم الاختلاف ، وهو مستمد من التعريف اللغوي لهذه المفردة.

ومن خلال تأملي في المعاني اللغوية السابقة ، وآثار الصحابة والتابعين وكلام أهل التفسير ، وبالنظر إلى القيد الذي قيد به التناسق وهو «الموضوعي» ، يمكن أن يُقال بأنّ **التّناسق اصطلاحا** : هو البحث في ترابط موضوعات السورة وانتظامها ، وبهذا يظهر الفرق بينه

= (١١٢/٢٦) .

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٧٢١/٢-٧٢٢) .

وبين التناسب ، فالتناسب ما كان في إظهار الترابط بين الآيات والألفاظ والجمل ، والتناسق ما كان في إظهار الترابط بين موضوعات السورة الواحدة ، وسيأتي مزيد بيان لهذا التعريف في المطلب الرابع [1] .

(١) انظر الصفحة (٣٢) .

المطلب الثاني
معنى الموضوع لغة ، واصطلاحا

أولا : معنى «الموضوع» لغة :

الموضوع اسم مفعول ، وفعله وضع ، والمصدر وضعا وموضعا ؛ والوضع : الخفض للشيء وحطه وهو ضد الرفع وأعم من الحط[1]،، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض أو بمعنى الالتقاء والتثبت في المكان ، وينقسم الوضع إلى نوعين :

الأول : وضع مادي حسي ، ومنه : وضعه على الأرض ، بمعني حطه وإلقائه وتثبيته عليها.

الثاني : وضع معنوي ، ومنه : الوضيع ، وهو الدنيء المهان الذليل ، الذي قعدت به همته أو نسبه ، فكأنه ملقى على الأرض ، موضوع عليها ، لا يفارق موضعه الذي التصق به [2].

ويقال : وضعت الإبل وضيعة : رعت الحمض حول الماء ولم تبرح ... ووضعتها : ألزمتها المرعى فهي موضوعه ". وهذا المعنى هو الذي رجع إليه كثير من المعاصرين الذين كتبوا في التفسير الموضوعي ، وقالوا : « وعليه يكون الموضوع بمعنى الشيء الذي له صفة معينة ، وألزم مكانا معينا لا يبرحه إلى غيره »[3] .

ويستخدم «الموضوع» في وصف الإبل بمعنى آخر ؛ فيقال للبعير : حسن الموضوع إذا

---

(١) الراغب، الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد كيلاني، بيروت: دار المعرفة،(٥٢٥).

(٢) تاج العروس : (٢٢/٣٣٥-٣٤١) .

(٣) من أوائل من أشار إلى هذا المعنى شيخي فضيلة الدكتور : عبد الستار فتح الله سعيد في كتابه : (المدخل إلى التفسير الموضوعي) دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة : ١٤٢٨ه ، (٢٣) . وتبعه الأستاذ الدكتور : مصطفى مسلم في كتابه : (مباحث في التفسير الموضوعي) دمشق : دار القلم، ١٤٣٠ه ، (١٥) ، ثم تبعهما د. صلاح الخالدي في كتابه: (التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق) ، الأردن : دار النفائس ، ١٤٢٨ه ، (٣٣) .

كان سيره سريعا سهلا يخالف المرفوع[1].

فالمعنى اللغوي المستخدم على ألسنة الناس اليوم لهذه الكلمة هو ما أشار إليه مؤلفو المعجم الوسيط ، وذكرته أعلاه ، فيكون : «الموضوع» : هو الأمر الذي يدل عليه فحوى الكلام .

ثانيا : معنى «الموضوع» اصطلاحا :

الموضوع : في اصطلاح علماء التفسير المتأخرين هو: وصف يتعلق بموضوعات القرآن الكريم ، والموضوع القرآني هو القضية الرئيسة التي تضمنتها آية أو آيات أو سورة أو سور من القرآن الكريم ، وتحديد هذا الموضوع يحتاج إلى منهج يتخذ من شمولية النظرة إلى نصوص الوحي سبيلا إلى فهمه في ضوء الواقع المعيش [2].

(١) انظر : ابن فارس ، أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م . بيروت : دار الفكر ، (١٠٥٦) . وابن منظور ، لسان العرب : (٤٨٥٩/٦) .

(٢) الدغامين ، زياد ، التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ، الأردن : دار عمار ، (٢٥) .

المطلب الثالث
تعريف السورة لغة واصطلاحا

أولا : معنى السورة لغة :

السورة واحدة سُور القرآن ، وهي : إما أن تكون مهموزة أو غير مهموزة، فمن همزها جعلها من أسأرت أي أفضلت من السؤر وهو ما بقي من الشراب في الإناء ، وتكون سميت سورة ؛ لأنها قطعة من القرآن .

ففي لسان العرب : « سُمّيت السّورة من القرآن سورة لأنّها درجة إلى غيرها ، ومن همزها جعلها بمعنى بقيّة من القرآن وقطعة ، وأكثر القراء على ترك الهمزة فيها ، وقيل : السورة من القرآن يجوز أن تكون من سُؤْرة المال ترك همزه لما كثر في الكلام »(١).

أو من السورة من البناء ، وهي ما حسُن وطال منه ، وتكون سميت سورة لارتفاع قدرها ، أو لأنّها مترلةٌ بعد مترلةٍ ، مقطوعةٌ عن الأخرى ، ففي الصحاح : « هي كل مترلة من البناء ، ومنه سورة القرآن ؛ لأنها مترلة بعد مترلة مقطوعة عن الأخرى »(٢).

أو من التسور ، بمعنى : التصاعد ، يقال: تسوّرت الحائط ، إذا علوته ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] ، فتكون سميت سورة لتركيب بعضها على بعض(٣).

---

(١) لسان العرب : (٢١٤٧/٣) .

(٢) الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الرابعة، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، (٦٩٠/٢) .

(٣) لسان العرب : (٢١٤٧/٣) .

ثانيا : معنى السورة اصطلاحا :

قال الجعبري[1]: « السورة بعض قرآن يشتمل على آيٍ ، ذو فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات »[2] .

وقال الزرقاني[3] : « ويمكن تعريفها اصطلاحا بأنها : طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع » [4] .

(١) الجعبري : إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل ، برهان الدين ، أبو محمد الجعبري ، الخليلي الشافعي ، صاحب المصنفات الكثيرة في القراءات وغيرها ، توفي سنة ٧٣٢ه ، انظر : الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان أبو عبد الله ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تحقيق : بشار عواد معروف ، شعيب الأرناؤوط ، صالح مهدي عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤ه ، (٧٤٣/٢) .

(٢) انظر : البرهان : (٢٦٤/١) ؛ والإتقان : (١٥٠/١) .

(٣) هو : محمد عبد العظيم الزرقاني ، من علماء الأزهر بمصر ، تخرج من كلية أصول الدين، وعمل فيها مدرسا لعلوم القرآن والحديث، وتوفي في القاهرة سنة ١٩٤٨م، من أشهر كتبه:مناهل العرفان في علوم القرآن. انظر : الزركلي، الأعلام: (٢١٠/٦).

(٤) مناهل العرفان في علوم القرآن : (٢٨٥/١) .

المطلب الرابع
تعريف التناسق الموضوعي في السورة

إن مصطلح التناسق الموضوعي في السورة هو مصطلح جديد في بابه ، لم أجد من علماء التفسير من تكلم فيه بتعريف جامع مانع ، إلا أنني ومن خلال استقرائي للخطة الموضوعة في هذا المشروع ، وسؤالي لأساتذة التفسير في قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى ، وعند التأمل في المعاني اللغوية السابقة ، فقد اجتهدت وسعيت في أن أستخلص له تعريفاً على حسب ما أدى إليه إستنباطي وإجتهادي ، فبعد طول تدبر وإعمال فكر وبناءا على ما سبق من تعريفه لغة ، وما سبق من آثار وأقوال علماء التفسير الأجلاء ، رأيت أن أعرفه بالتعريف التالي :

فأقول وبالله التوفيق : إن **التناسق الموضوعي في السورة** : هو تتابع وترابط وتآلف آيات السورة وموضوعاتها فيما بينها في غاية الجمال والحسن والإبداع ، حتى تكون السورة كالآية الواحدة .

وبهذه العبارة التعريفية للمصطلح يتضح أن مصطلح التناسق الموضوعي جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم ، وفن من فنونه ، فهو يبحث في نظم موضوعات السورة ، التي تؤدي في النهاية إلى توضيح صورة متكاملة عن الموضوع الكلي للسورة أو ما يسمى بالوحدة الموضوعية ، فهو مصطلح أعم من مصطلح الوحدة الموضوعية ، وأخص من مصطلح التناسب .

وبناءً على هذا التعريف الذي استنتجته سوف أسير في هذا البحث معتمداً على الله – ﷻ– لأبين التناسق الموضوعي في سورة التحريم ، والتناسق الموضوعي في سورة المعارج كلاً على حدة.. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الباب الأول

التناسق الموضوعي في سورة التحريم

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول: بين يدي سورة التحريم .

الفصل الثاني : موضوعات سورة التحريم وتناسقها .

الفصل الأول

بين يدي سورة التحريم

ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : اسم السورة ، وفضلها ، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها ، ومكيها ومدنيها .

المبحث الثاني : اختصاص سورة التحريم بما اختصت به.

المبحث الثالث : مقاصد سورة التحريم .

المبحث الرابع : الوحدة الموضوعية لسورة التحريم .

المبحث الخامس : مناسبات سورة التحريم .

المبحث الأول

اسم السورة ، وفضلها ، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها، ومكيها ومدنيها .

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : اسم السورة ، وما ذكر لها من أسماء .

المطلب الثاني : فضل سورة التحريم أو بعض آياتها .

المطلب الثالث : عدد آيات سورة التحريم .

المطلب الرابع : تاريخ نزول سورة التحريم .

المطلب الخامس : مكي سورة التحريم ومدنيها .

المطلب الأول

اسم السورة وما ذكر لها من أسماء

أولا : اسم السورة :

اشتهرت هذه السورة الكريمة بسورة (التحريم) ؛ وبذلك سميت في أغلب المصاحف ، وكتب التفسير والسنة ، ولم أقف على خبر مأثور عن رسول الله -ﷺ- صرح فيه تسميتها بهذا الاسم، وإنما وقعت تسميتها في كلام بعض الصحابة - رضوان الله عليهم- .

فعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال : « نزلت سورة التحريم بالمدينة »[1].

ووجه التسمية بهذا الاسم : أن تحريم النبي -ﷺ- على نفسه شيئا لم يحرمه الله عليه شيء يدعو إلى التساؤل ، فافتتحت السورة الكريمة بسؤال النبي -ﷺ- عن سبب ذلك التحريم وعتابه على ذلك ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ....﴾.

ثانيا : ماذكر لها من أسماء :

١) سورة (المتحرم) :

سميت هذه السورة بـــ(سورة المتحرم) وقد ورد هذا الاسم في تفاسير مجاهد [2]، ومقاتل [3]، والألوسي[4] ، وفي بعض نسخ صحيح البخاري[1] .

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور : (٢١٣/٨) . وعزاه للنحاس وابن الضريس .

(٢) تفسير مجاهد : (٦٨٣/٢) ، تحقيق : عبد الرحمن الطاهر السورتي ، بيروت : المنشورات العلمية .

ومجاهد هو : الإمام مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المخزومي مولى السائب بن أبي السائب عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة قال خصيف: كان مجاهد أعلم بالتفسير وعطاء بالحج ، مات سنة (١٠٠) أو ما بعدها ، وهو ساجد ومولده سنة (٢١) . أنظر : طبقات الحفاظ للسيوطي (٤٢/١-٤٣) ، وطبقات المفسرين للداودي (١١/١) .

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق : أحمد فريد ، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٢٤ هـــ-٢٠٠٣م، (١٣/٢) ، ومقاتل هو : مقاتل بن سليمان بن بشير الازدي الخراساني ، أبو الحسن المروزي الفقيه اللغوي ، نزيل البصرة المتوفي بها سنة (١٥٠ه). صنف من الكتب تفسير خمسمائة آية من القرآن التفسير الكبير ، وغيرها . وقد تُكلم في حديثه . أنظر : هدية العارفين للبغدادي : (٦ /٤٧٠)، وميزان الإعتدال : (٥٠٥/٦) .

(٤) هو : محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، أبو الثناء: مفسر، محدث، أديب، من المجددين ، من أهل بغداد ، مولده ووفاته فيها ، كان سلفي الاعتقاد ، مجتهدا. تقلد الإفتاء ببلده ، ثم عزل ، فانقطع للعلم ، له عديد من الكتب ، من أهمها كتابه في التفسير : روح المعاني ، انظر : الأعلام للزركلي: (١٧٦/٧) .

ووجه تسميتها بهذا الاسم : أن المتحرم اسم فاعل ممن قام بالتحريم وهو النبي -ﷺ- .

٢) سورة (لم تحرم) :

وردت هذه التسمية في إحدى نسخ صحيح البخاري [٢] ، وفي التفسير الكبير[٣] للرازي ، وهي بصيغة الاستفهام .

ووجه تسميتها بهذا الاسم : افتتاح السورة الكريمة بهذا اللفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾.

٣) سورة النبي -ﷺ- :

ذُكر هذا الاسم في مصنف[٤]ابن أبي شيبة[٥]،وفي تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي[٦]، والكشاف للزمخشري[٧] ، وفي كتاب جمال القراء لعلم الدين السخاوي [٨].

=

(١) عمدة القاري ، لبدر الدين العيني : (١٩/ ٢٤٧) .

(٢) أنظر : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ، الطبعة السابعة ، مصر : المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٣٢٣هـ ، (٧/ ٣٩٢) .

(٣) مفاتيح الغيب : (٣٢/ ١٣٤) .

(٤) المصنف في الأحاديث والآثار ، لابن أبي شيبة ، تحقيق : كمال يوسف الحوت ، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة الرشد ، ١٤٠٩ه ، (٨٢/٦) .

(٥) ابن أبي شيبة هو: الإمام أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي، الإمام العلم، سيد الحفاظ، صاحب الكتب الكبار ، روى عنه البخاري ، ومسلم وغيرهما ، من مصنفاته المفيدة : المسند ؛ المصنف ؛ التفسير ؛ الإيمان . انظر : تذكرة الحفاظ : (٤٣٢/٢). وتهذيب الكمال : (٩٨/٣٣) .

(٦) أنظر : تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م ، (١٨/ ١٧٧). والقرطبي هو : الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان وهو كتاب من أجل الكتب وقد اختصره سراج الدين الشيخ عمر بن علي الشهير بابن الملقن . قال الذهبي: إمام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على إمامته وكثرة اطلاعه ووفور فضله توفي ٦٧١ هـ . أنظر : طبقات المفسرين للداودي (٢٤٦/١-٢٤٧) . والديباج المذهب للمالكي : (٣١٧/١) . والوافي بالوفيات للصفدي : (٨٧/٢) .

(٧) أنظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري . تحقيق عبد الرزاق المهدي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي، (٤/ ٥٦٦).

(٨) أنظر : جمال القراء وكمال الإقراء : (١/ ٢٠١) للسخاوي دراسة وتحقيق : عبد الحق سيف القاضي (أصل الكتاب رسالة دكتوراة)بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية-الطبعة الأولى،١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، والسخاوي هو: علي بن محمد بن عبدالصمد العلامة علم الدين أبو الحسن الهمداني السخاوي المصري شيخ القراء بدمشق، كان إماما علامة مقرئا محققا بصيرا بالقراءات وعللها ماهرا بها إماما في النحو واللغة إماما في التفسير وله معرفة تامة بالفقه والأصول =

ووجه تسميتها بهذا الاسم ؛ أن حديث السورة هو عن النبي -ﷺ- وزوجاته ، وذكر لفظ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ في أول آية من آياتها في قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ...﴾.

٤) سورة (التحرم) :

ذكره في الدر المنثور السيوطي[١] ونسب اللفظ لابن مردويه و لم أقف عليه فيه ، وكذلك ذكره صاحب كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم[٢] وقد علق عليه محققه أن في النسخة"م" المتحرم.

٥) سورة المحرِّم :

ذُكر في معاني القرآن للفراء[٣]، ورجح محققوه أنه تحريف للمتحرم كما في نسخة أخرى ، وهذا ما أرجحه ، وذُكر في فتح القدير للشوكاني[٤] عازياً إياه للفظ ابن مردويه و لم أقف عليه .

=

ولد سنة ٥٥٨هـ ومات سنة ٦٤٣هـ .أنظر: طبقات المفسرين : (١/٨٤-٨٥). وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة : (٢/١١٦) .

(١) الدر المنثور للسيوطي ، بيروت : دار الفكر ، ١٩٩٣م ، (٨/ ٢١٣).

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : (١/ ٩٩٢) ، وصاحبه هو : محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التَّهَانَوي : باحث هندي . له : (كشاف اصطلاحات الفنون) مجلدان، فرغ من تأليفه سنة ١١٥٨هـ و (سبق الغايات في نسق الآيات) توفي بعد سنة ١١٥٨هـ .

(٣) معاني القرآن للفراء ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتى / محمدعلى نجار / عبدالفتاح إسماعيل شلبى .مصر ، دار المصرية للتأليف والترجمة ، (٣/ ١٦٥) ، والفراء هو : يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، أبوزكرياء، المعروف بالفراء (١٤٤ - ٢٠٧هـ) إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الادب ، وكان مع تقدمه في اللغة فقيها متكلما، عالما بأيام العرب وأخبارها، عارفا بالنجوم والطب ، يميل إلى الاعتزال. من كتبه (المقصور والممدود) و (المعاني) ويسمى (معاني القرآن) ، وغيرها كثير ، اشتهر بالفراء، و لم يعمل في صناعة الفراء، فقيل: لانه كان يفري الكلام ، أنظر : الأعلام للزركلي (٨/ ١٤٥) .

(٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للشوكاني ، بيروت : دار الفكر، (٥/ ٢٤٩) ، والشوكاني هو : محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني. فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن ، ولد ببلدة شوكان باليمن ونشأ في صنعاء، وتلقى العلم على شيوخها، صار عالمًا كبيرًا يشار إليه بالبنان، اشتغل بالقضاء والإفتاء ، وكان داعية إلى الإصلاح والتجديد، ترك مؤلفات كثيرة تدل على سعة علمه وسلامة منهجه ، من مصنفاته : نيل الأوطار في الحديث ؛ فتح القدير في التفسير، توفي بصنعاء ١٢٥٠هـ . أنظر : البدر الطالع للشوكاني :(٢/٢١٤)، والأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٩) .

٦) سورة (اللِّمَ تُحرّم) :

ذكره في التحرير والتنوير لابن عاشور[١] ونسبه لإحدى نسخ البخاري ، وللسيوطي في الإتقان، ولم أقف عليه فيهما والذي فيهما (لم تحرم) بدون أل التعريف فلعله وَهِمَ -رحمه الله-.

٧) سورة النساء :

ذكره الشوكاني في فتح القدير[٢] ناسباً إياه لابن الزبير-رضي الله عنه-[٣]، وكذا قال الألوسي في تفسيره[٤]. والذي ظهر لي أنه حصل سقط لواو العطف في المروي عن ابن الزبير -رضي الله عنه-، فإن المروي عنه قوله : أنزلت بالمدينة سورة النساء و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ...﴾ . كما ذكره السيوطي في الدر المنثور[٥]. وقد ذكر هذه الرواية بدون حرف العطف الواقع بعد كلمة سورة النساء الشوكاني في تفسيره[٦]، وكذا الألوسي[٧]، ربما نقلا عنه ، ولم يذكر هذا الاسم غيرهما .

٨) سورة (لمتتحرم) :

لم يذكره سوى الألوسي في تفسيره روح المعاني[٨] ، ويبدو أنه تصحيف لِـــ(لِمَ تحرم) تحرم) أو خطأ مطبعي.

---

(١) انظر : التحرير والتنوير ـــ الطبعة التونسية (٢٨/ ٣٤٣) .

(٢) أنظر : فتح القدير : (٥/ ٢٤٩) .

(٣) عبد الله بن الزبير بن العوام أبو بكر الأسدي القرشي الصحابي الجليل -رضي الله عنه-. كان عالما بالقرآن ومعانيه ، وكان كثير الصيام والصلاة ، وأشجع الناس ، وصاحب الأنفة ، وشديد البأس ، كان أول مولود بالمدينة ، وأمه أسماء بنت الصديق ، وكان أول شيء دخل في جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حنكه بتمرة ، ودعا له ، وبرك عليه ، قتل بمكة ، في جمادى الآخرة سنة ٧٢ وقيل ٧٣هـــ . أنظر: الإصابة : (٤/٧٨-٧٩) .

(٤) روح المعاني : (٢٨/ ١٤٦) .

(٥) الدر المنثور : (٨/ ٢١٣) .

(٦) فتح القدير : (٥/ ٢٤٩) .

(٧) روح المعاني : (٢٨/ ١٤٦) .

(٨) روح المعاني : (٢٨/ ١٤٦) .

فالخلاصة : أن الثابت لسورة التحريم ، من هذه الأسماء الثمانية إنما هو الثلاثة الأولى فقط. وهي : سورة المتحرِّم ، وسورة لِمَ تحرم ، وسورة النبي -ﷺ- ، وأن الرابع والخامس إنما هما تحريف للثاني منها ، والسادس إنما هو وهم عن الثاني من ابن عاشور ، وكذا الثامن تصحيف للثاني أو خطأ مطبعي في روح المعاني ، والسابع سقط من الكتاب لحرف العطف كما بينتُه ، والله أعلم.

المطلب الثاني

فضل سورة التحريم أو بعض آياتها

لا شك أن فضل القرآن الكريم كبير وعظيم ، فهو كتاب أخرج الله به الناس من جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، وهداهم به من الظلمات إلى النور ، وهو الكتاب الذي ختم الله به الكتب ، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء ، وبدين ختم به الأديان ، وهو كلام الله العظيم ، وصراطه المستقيم ، ونظامه القويم ، مناط به كل سعادة . هو رسالة الله الخالدة ، ومعجزته الدائمة ، ورحمته الواسعة ، وحكمته البالغة ، ونعمته السابغة ، نهل منه العلماء ، وشرب من مشربه الأدباء ، وخشعت لهيمنته الأبصار ، وذلت له القلوب ، وقام بتلاوته العابدون والراكعون والساجدون، وهو « كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر ، فلا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه »[1] .

هو كتاب الإسلام في عقائده ، وعباداته ، وحكمه ، وأحكامه ، وآدابه ، وأخلاقه ، وقصصه ، ومواعظه ، وعلومه ، وأخباره ، وهدايته ، ودلالته ، وهو أساس رسالة التوحيد ، والرحمة المسداة للناس ، والنور المبين ، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك .

وقد وردت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة في فضائل القرآن ، حيث تحدثت عن فضل هذا الكتاب المبين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩] ، في سائر مناحي الحياة ، ولذا جعله تبيانا لكل شيء وهدى ، قال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل:٨٩].

وقال -ﷺ- : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن وقام به آناء الليل ، ورجل

(١) الموافقات ، للشاطبي ، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الطبعة الأولى ، السعودية : دار ابن عفان ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م : (٣٤٦/٣) .

آتاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار »[١].

وعن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[٢].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران »[٣].

وعن أبي أمامة الباهلي[٤] -رضي الله عنه- قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: « اقرءوا القرآن فإنه يأتي شفيعا لأصحابه »[٥].

وقد دلّت الأدلّة الكثيرة على أفضلية بعض السّور والآيات ، ومنها قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦] ، ومنها الأحاديث الصحيحة التي وردت في فضل بعض الآيات والسّور ، وهي مبثوثة في كتب السنة المطهّرة ، وفي كتب فضائل القرآن ، وكلّها تدلّ دلالةً واضحةً على ثبوت هذا التّفاضل.

وأما سورة التحريم فلم يثبت في فضلها حديث صحيح عن النبي-صلى الله عليه وسلم- ، إلا أنها نالت قدرا من الفضل الذي أسند لعموم سور القرآن بالإضافة إلى أنها من المفصل .

فعن واثلة بن الأسقع[٦] -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: « أعطيت مكان التوراة السبع ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالمفصل »[٧].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب اغتباط صاحب القرآن ، برقم : (٥٠٢٥) وأخرجه مسلم : كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، برقم : (٨١٦) .كلاهما من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، برقم : (٥٠٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع به ، برقم ٧٩٨ ، وعند البخاري في كتاب التفسير ، سورة عبس ، برقم : (٤٩٣٧) بلفظ : «مثل الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به » .

(٤) هو : صدي بن عجلان الباهلي ، صحابي مشهور بكنيته ، أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قومه فأسلموا عن آخرهم ، مات سنة ٨٦ ه ، أو قبلها ، وله مائة وست سنين . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٤٢٠/٣) .

(٥) أخرجه مسلم : كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن ، برقم : (٨٠٤) .

(٦) هو : واثلة بن الأسقع بن كعب ، صحابي مشهور ، أسلم قبل تبوك وشهدها ، وكان من أهل الصفة ، نـــزل الشام وعاش بها ، وكان آخر الصحابة موتا بدمشق ، مات وله : (١٠٥) . انظر : الإصابة : (٥٩١/٦) .

(٧) رواه الإمام أحمد في مسنده : (١٨٨/٢٨) ، برقم : (١٦٩٨٢) ، قال الهيثمي : فيه عمران القطان ، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه النسائي وغيره ، وبقية رجاله ثقات . انظر : الهيثمي ، مجمع الزوائد: (٧/ ١٣٢)برقم:(١١٦٢٥) .

والمراد بالسبع : هي السور السبع الطوال ، وهي التي أولها البقرة وآخرها براءة ، لأنهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة ⇦=

المطلب الثالث
عدد آيات سورة التحريم

إن من رحمة الله -تعالى- وفضله أن حفظ لهذه الأمة كتاب ربها ، فقال -ﷻ- : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. فكان أن سخر الله -تعالى- بعض علماء الأمة للاهتمام والعناية بهذا القرآن ، من خلال قيامهم بإحصاءٍ دقيقٍ لسُوَره وآياته وكلماته وحروفه وفواصله ، وبعدّ آيات كلّ سورة ، وبيان الاختلاف في عدّ العادّين وسببه ، وكان هذا غاية في التّوثيق والضّبط والعناية .

وآي سورة التحريم هي اثنتا عشرة آية بلا خلاف بين العلماء في ذلك ، قال الإمام أبو عمرو الداني : « وهي اثنتا عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف »[(١)].

وذكرها السيوطي في الإتقان في السور التي لا خلاف في عد آياتها .

وذكر صاحب الفرائد الحسان[(٢)] خلافا في ذلك فذكر أنها اثنتي عشرة آية في غير الحمصي وثلاث عشرة آية في الحمصي .

فالمختلف فيه من هذا العدد موضع واحد وهو قوله -تعالى- : ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

= سورة ، واختلف عن ابن عباس في السورة السابعة بين يونس والكهف ، وأما المئون فهي: كل سورة تزيد على مائة آية أو تقاربها. والمثاني: هي السور التي آيها أقل من مائة آية ؛ لأنها تثنى أكثر مما يثنى الطوال والمئون، أو لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر والقصص، وقد تسمى سور القرآن كلها مثاني . والمفصل : هو ما ولي المثاني من قصار السور ، سمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة ، وقيل : لقلة المنسوخ منه ، ولهذا يسمى بالمحكم . واختلف في أوله على اثني عشر قولا، والذي عليه الأكثر أن أوله من سورة القتال . انظر: البرهان : (٢٤٥/١) ؛ الإتقان: (١٧٣/١) .

(١) الداني ، أبو عمر ، البيان في عد آي القرآن ، تحقيق : د.غانم قدوري الحمد ، الطبعة الأولى ، الكويت : مركز المخطوطات والتراث ، ١٤٠٨ه/١٩٨٨م : (٢٥٠) .

(٢) هو : عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي ، ولد بدمنهور بمصر ، في ٢٥ من شعبان سنة ١٣٢٥هـ ، عالم مصري مبرز في القراءات وعلومها وفي العلوم الشرعية والعربية ، ودرس في الأزهر حتى حصل على إجازة التخصص القديم (تعادل الدكتوراه حاليا) ، سنة ١٣٥٥هـ ، وتولى عدة مناصب ، وتوفي سنة ١٤٠٣ه، انظر : موقع المكتبة الشاملة .

ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [١].

المطلب الرابع
تاريخ نزول سورة التحريم

سورة التحريم من السور المدنية، التي نزلت في مرحلة متأخرة ، فهي السّورة الخامسة بعد المئة في ترتيب نزول السّور[٢] ، نزلت بعد سورة الحجرات ، وكان نُزول سّورة الحجرات في السنة التاسعة من الهجرة [٣].

ومما يدل على تأخر نزول سورة التحريم ما ذكر في بعض روايات أسباب نزولها من أسماء لأمهات المؤمنين ، ولم يكن رسول الله -ﷺ- بنى بهن إلا في مرحلة متأخرة كزينب بنت جحش[٤] ، وصفية بنت حيي[٥] ، وجاريته مارية القبطية[٦] -رضوان الله عليهن جميعا- .

---

(١) انظر : الفرائد الحسان في عد آي القرآن، ومعه شرح نفائس البيان، الطبعة الأولى، المدينة المنورة: مكتبة الدار، ١٤٠٤ه : (٦٦) ، وانظر كذلك : المحرر الوجيز في عد آي الكتاب العزيز شرح أرجوزة العلامة الشيخ محمد متولي ، لعبد الرزاق علي إبراهيم ، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، (١٦٨) ، وسعادة الدارين في بيان وعد آي معجز الثقلين ، لمحمد بن علي بن خلف الحسيني ، الشهير بالحداد ، الطبعة الأولى، القاهرة : مطبعة المعاهد بجواز قسم الجمالية ، ١٣٤٣هـ : (٧٥) .

(٢) وليس لهذا الترتيب دليل قطعي ثابت من السنة .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٤٣/٢٨) ، (٢١٣/٢٦) .

(٤) زينب بنت جحش بن رياب أم المؤمنين ، زوج النبي ﷺ ، وابنة عمته ، من المهاجرات الأول ، كانت عند زيد مولى النبي ﷺ ، فزوجها الله تعالى بنبيه ﷺ ، بلا ولي ولا شاهد ، فكانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين. انظر: سير أعلام النبلاء: (٢١١/٢) .

(٥) صفية بنت حيي بن أخطب، من ذرية هارون بن عمران ، قتل زوجها يوم خيبر، صارت مع السبي، فأخذها دحية، ثم استعادها النبيﷺ فأعتقها وتزوجها، وكانت عاقلة، فاضلة، حليمة، ماتت سنة خمسين، الإصابة:(٣٤٦/٤-٣٤٨).

(٦) مارية بنت شمعون القبطية ، إحدى سرايا رسول الله ﷺ، أهداها له الملك المقوقس حاكم مصر في السنة السابعة ، فأنجبت له إبراهيم، وقد توفي وهو طفل صغير، عاشت بعد النبيﷺ، وتوفيت سنة ١٦ه ، انظر : الإصابة : (٣١٠/٨).

قال سيد قطب : « والوقت الذي وقعت فيه الأحداث التي تشير إليها السورة ليس محددا ، ولكن بالرجوع إلى الروايات التي جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله -ﷺ- من زينب بنت جحش قطعا » [١].

وكذلك ما ورد في كلام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فيما يتعلق باستعداد غسان لغزو المسلمين، فاحتكاك المسلمين بالقبائل والشعوب على أطراف الجزيرة العربية لم يكن إلا بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، ففي هذه المرحلة كانت آيات الذكر الحكيم تنزل لتوطيد دعائم المجتمع الإسلامي في الداخل ، وامتداد آفاق الدعوة الإسلامية إلى الخارج فنزلت سورة الجمعة والحجرات والطلاق والتحريم والتوبة [٢].

المطلب الخامس
مكي سورة التحريم ومدنيها

القرآن الكريم أنزل على رسول الله -ﷺ- مفرقا ومنجما مدة ثلاث وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة سنة في مكة -شرفها الله- قبل الهجرة ، ومنها عشر سنين في المدينة النبوية بعد الهجرة ، ولذا قسم العلماء - رحمهم الله - القرآن إلى قسمين : مكي و مدني .

وللعلماء في تعريف المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة :

الاصطلاح الأول : أن المكي ما نزل بمكة ، ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة .

الاصطلاح الثاني: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة .

الاصطلاح الثالث : أن المكي ما نزل قبل هجرته -ﷺ- إلى المدينة ، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة ، وإن كان نزوله بمكة .

وهذا التقسيم الأخير لوحظ فيه زمن النزول وهو تقسيم صحيح سليم وهو الراجح ؛ لأنه ضابط حاصر ومطرد لا يختلف بخلاف سابقيه ، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم

---

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٦/٣٦١٠) .

(٢) موسوعة التفسير الموضوعي : (٨/٢٤١-٢٤٢) .

.[١]

ثم إن العمدة في معرفة المكي والمدني هو النقل الصحيح عن الصحابة-رضي الله عنهم-الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحي والتنزيل، والتابعين الآخذين عنهم، ولم يرد عن النبي-صلى الله عليه وسلم-في ذلك قول[٢] .

ولمعرفة المكي والمدني فوائد منها : تمييز الناسخ من المنسوخ ، ومعرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام ، والثقة بسلامة هذا القرآن من التغيير والتحريف [٣].

وسورة التحريم مدنية بجميع آياتها ، قال ابْن عَبَّاس : « نزلت سُورَة التَّحْرِيم بِالْمَدِينَة »[٤].

وقال القرطبي: وهي مدنية في قول الجميع[٥]. وقال ابن عطية: سورة التحريم مدنية بإلاجماع[٦].

---

(١) البرهان : (١/ ١٨٧) ، مناهل العرفان : (١/١٩٣-١٩٤) .

(٢) مناهل العرفان : (١/١٩٦) .

(٣) البرهان في علوم القرآن : (١/١٩٥) .

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور : (٨/٢١٣) . وعزاه إلى النحاس وابن الضريس .

(٥) الجامع لأحكام القرآن : (١٨/١٧٧).

(٦) المحرر الوجيز : (٥/٣٢٩) .

المبحث الثاني

اختصاص سورة التحريم بما اختصت به

اختصاص سورة التحريم بما اختصت به

لقد اختصت سورة التحريم من بين سائر سور القرآن الكريم بعدد من الموضوعات والجمل والألفاظ .

أولا : أبرز ما اختصت به سورة التحريم من موضوعات ، ما يلي :

- تحريم النبي -ﷺ- شيئا على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه .
- إسرار النبي -ﷺ- حديثا إلى بعض أزواجه ، وإفشاء ذلك السر .
- وعد النبي -ﷺ- بإبداله زوجاتٍ خيراً من زوجاته إن طلقهن .
- وقاية النفس والأهل من النيران .
- الأمر بالتوبة النصوح .
- ضرب المثل بامرأتين كافرتين من زوجات الأنبياء (امرأة نوح وامرأة لوط) .
- ضرب المثل بامرأة مؤمنة وهي زوجة فرعون .

ثانيا : ومن أبرز ما اختصت به سورة التحريم من جمل وألفاظ ما يلي:

- قوله تعالى : ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ .
- قوله تعالى :﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ .
- قوله تعالى : ﴿أَسَرَّ النَّبِيُّ﴾ .
- قوله تعالى : ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ .
- ألفاظ ﴿نَبَّأَتْ﴾ و﴿نَبَّأَهَا﴾ و﴿أَنْبَأَكَ﴾ و﴿نَبَّأَنِيَ﴾.
- قوله تعالى : ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ .
- قوله تعالى : ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ .

- قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .
- ألفاظ : ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾و﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ و ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾
- ألفاظ : ﴿غِلَاظٌ﴾ و﴿شِدَادٌ﴾ .
- قوله تعالى : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .
- قوله تعالى : ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ .
- قوله تعالى : ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾
- ألفاظ : ﴿عَبْدَيْنِ﴾ و﴿صَٰلِحَيْنِ﴾ و﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ .
- قوله تعالى : ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ .
- قوله : ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ .
- قوله تعالى : ﴿ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾.

المبحث الثالث

مقاصد سورة التحريم

مقاصد سورة التحريم

قبل الحديث عن مقاصد سورة التحريم ، ينبغي أن أتطرق إلى الظروف والأجواء التي نزلت فيها هذه السورة ؛ لأن بمعرفتها قد تفتح لنا الأبواب واسعة أمام المقصد الكلي ، والهدف الرئيس الذي من أجله أنزلت هذه السورة .

فكما هو معلوم ومذكور في حديثنا عن مكية السورة ومدنيتها أن السورة مدنية بالإجماع ، وأنها نزلت في وقت متأخر ، وكان الاهتمام التشريعي منصبا آنذاك لبناء المجتمع المسلم ، وخاصة المجتمع الداخلي المصغر المتمثل في الأسرة ، حيث نزلت في هذه الأثناء سور عديدة كان محورها بناء المجتمع المسلم كسورة النساء ، وسورة الأحزاب ، والطلاق ، والتحريم ، ولهذا كانت سورة التحريم تربية إلهية للحياة الزوجية من خلال تربية زوجات النبي -ﷺ- اللاتي هن أمهات المؤمنين والمؤمنات ، وهن القدوة لبقية زوجات المؤمنين .

ولهذا فقد جاءت السورة الكريمة تتناول واقعاً حقيقياً في حياة المسلمين ، للفترة الممتدة من السنة الثالثة للهجرة إلى السنة التاسعة ، فتعالج قضايا تتعلق بالأسرة والمجتمع ؛ لتؤسس مجتمعاً متميزاً ينير حياته بأنوار الأحكام والتشريعات الإلهية ، ويخلع عنه موروث الجاهلية ، ويعيد صياغة شؤون حياته ، وفق المنهج الذي رضيه له الربّ الخالق -ﷻ- .

وبعد هذا التمهيد المختصر يمكننا القول بأن المقصد الكلي في هذه السورة هو « التربية الزوجية » ، وقد اختصر الشيخ سعيد حوى جميع ما ورد في هذه السورة من مقاصد وأهداف فرعية في هذه الأسطر التالية حيث قال : « وفي السورة دروس للأسرة المسلمة ألا يرضى الزوج زوجته بمخالفة شرعية وألا تفشي المرأة سر زوجها ، وألا تعاديه وتظاهر عليه ، وأن تكون الزوجة مسلمة مؤمنة قانتة عابدة تائبة صائمة ، وأن على الرجال أن يقوا أنفسهم وأهليهم النار، وأن على الجميع أن يتوبوا إلى الله ، وأن على المرأة أن تحقق إيمانها بنفسها ، ولا تغتر بأنها زوجة رجل صالح ، ومن تلاحم هذه المعاني ندرك جوانب من السياق الخاص للسورة »[1].

(١) الأساس في التفسير : (٣١٢٣/١٠) .

ويمكن بسط تلك المقاصد على النحو التالي :

أولا : أشارت بداية السورة الكريمة إلى تحريم النبي -ﷺ- شيئا على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه ، وكف عن ذلك الشيء ابتغاء مرضاة أزواجه المطهرات ، ففرض الله تحلة الأيمان ، وجلى شبهة نقض اليمين: بأن "الله مولاكم" ، فليس عليكم ذمة إلا منه، وهو يأمركم بالتحلة، وأنه لا يأمركم بالسوء والضرر، فهو﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ثانيا : عرض جزء من حياة النبي -ﷺ- الخاصة لكونه هو القدوة والأسوة الحسنة لجميع المؤمنين ، وأن زوجاته هن القدوة لجميع نساء المؤمنين ، وأن ابتغاء مرضاة الأزواج من السير المحمودة ما لم يجرّ إلى ضرر ديني ، كما ترى في سورة لقمان أن الله -ﷻ- وصى بالإحسان إلى الأبوين ، ومع ذلك منع الطاعة في المعصية ، فهكذا ههنا لم ينهنا إلا عما جرّ إلى ضرر .

ثالثا : أن تحلة اليمين واجبة إن كانت خلاف دين الله ؛ لأن العهد لا يكون إلا بتراضي الطرفين ، فـــ«لا نذر في المعصية »[1] كما صرح به النبي -ﷺ-.

رابعا : أن أحكام الشريعة الإسلامية مبنية على العلم والحكمة ، وأن التحليل والتحريم لا يكون إلا من الله تعالى .

خامسا : لما كانت حياة زوجات النبي -ﷺ- في جو النبوة لم تكن لتقضي على مشاعرهن البشرية ، والهواتف البشرية في نفوسهن فقد كان يبدر أو يحدث بينهن ، ما لا بد أن يحدث في قلوب النساء في مثل هذه الحال، وهذا الحادث الذي نزل بشأنه صَدْرُ هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التي كانت تقع في حياة النبي-ﷺ- وفي حياة أزواجه ، وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سأعرض لها عند حديثي عن أسباب نزول السورة في الفصل الثاني[2] .

---

(١) أخرجه النسائي بهذا اللفظ ، في كتاب الأيمان والنذور ، باب كفارة النذر ، برقم : (٣٨٤٨) ، وصححه الألباني.

(٢) صفحة : (٧٧) .

سادسا : أن الخلاف والمشاكل بين الأزواج أمر وارد ، وأن العبرة بكيفية معالجة وحل تلك الخلافات والمشاكل ، وأن الطلاق أحد هذه العلاجات والحلول ، إن لم يوجد حل أخف منه ضررا .

سابعا : بيان أهمية اختيار الزوجة ، وأنه ينبغي على الرجل عند زواجه أن يبحث عمن تتصف بالصفات الواردة للنساء في هذه السورة ، وهي : المسلمة المؤمنة القانتة التائبة العابدة السائحة .

ثامنا : بيان أهمية عنصر الصلاح والتقوى في الزوجين ، وأن أمر الله -ﷻ- بوقاية النفس والأهل من النيران ، وذلك بالتزام الطاعة ، والبعد عن المعصية ، وعمل الصالحات ؛ فيه صلاح للأسرة المؤمنة وأمنها وسلامتها واستقرارها ، فالإسلام دين أسرة ، ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته ، وواجبه في بيته ، والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي.. المجتمع الإسلامي .

تاسعا : أن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة ، ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها. وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه ، فلا يصعب على طارق ، ولا يستعصي على مهاجم! وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله. واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها ، واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيدا .

عاشرا : لما كان أفراد المسلمين قد تبدر منهم بعض البوادر والقصور المخلة بدينهم، وبالواجبات التي كلفهم الله بها ، شرع الله -ﷻ- المبادرة بالتوبة النصوح ؛ لتدارك ذلك الخلل والقصور ، فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾، فالتوبة النصوح تجب ما قبلها ، فعلى الأزواج رجالا ونساء أن يعودوا إلى ربهم -ﷻ-، ويتوبوا إليه كل حين .

الحاي عشر : لما كان النبي -ﷺ- هو ولي أمر المسلمين كان هو بدوره مأمورا من الله

-ﷻ- بحفظ المجتمع الاسلامي من الداخل والخارج وذلك بجهاد الكفار والمنافقين ، الذين يتسببون بخراب المجتمع المسلم وفساده وانتشار الرذيلة فيما بين أفراده ، ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ عقب الأمر بوقاية النفس والأهل من النيران ، فإذا كان المؤمن يبني بيته وينشئه على الفضيلة ، ويربي أهله على الخلق الحسن ، وغيره من الكفار والمنافقين يهدمون المجتمع والبيت الكبير للمسلمين ، فلا صلاح ولا بناء ، وهذا أمر ينبغي أن يدركه ولاة أمر المسلمين ، والدعاة إلى الإسلام ، وأن يبذلوا جهدا كبيرا في حماية المجتمع المسلم من الأفكار الدخيلة التي يروج لها أعداؤه من الداخل والخارج ، والتي في ظاهرها الرحمة والشفقة عليهم ، وفي باطنها العذاب والفرقة ، وسيظل المجتمع المسلم متخاذلا ، كثير الثغرات إن لم يتنبه لمثل هذا .

الثاني عشر : الجزاء من جنس العمل ، وأن الإنسان مهما علا نسبه ، ومهما كانت مكانته في المجتمع ، وقرابته من رسل الله -تعالى- فإنه لا يؤاخذ إلا بعمله ، ولا تنفعه تلك العلاقات في الآخرة ، بحيث لا تمنعه من دخول النار التي استوجبها بكفره ومعصيته ، ولهذا ضرب الله المثل في هذه السورة بقصص من نساء غابرات لما فيها من الحكمة والعبرة ، بحيث يتعظ به أولو الألباب وأصحاب الأفهام ، والله -ﷻ- أعلم وأحكم .

المبحث الرابع

الوحدة الموضوعية لسورة التحريم

الوحدة الموضوعية لسورة التحريم

بعد التأمل والنظر في سياق آيات هذه السورة الكريمة والتدبر في كل آية من آياتها ، وجدت أن سورة التحريم من السور التي لها سياق خاص ، وتناسق موضوعي فريد ، وترابط متميز في مقاطعها ، مما يسوغ القول بأن لها وحدة موضوعية واضحة .

قال دروزة[1] : « في السورة إشارة إلى حادث وقع بين النبي-ﷺ- وبعض زوجاته ، واستطرادات متصلة به استهدفت العظة والإنذار والتمثيل والتذكير »[2].

وقد قسمت هذه السورة الكريمة على إثر ذلك التأمل والتدبر في آياتها إلى موضوعات أربعة، وجاءت على النحو التالي :

الموضوع الأول : «**عتاب وتحريم ومغفرة** » ويشمل الآيتين (١-٢) .

الموضوع الثاني : «**التربية في حفظ الأسرار الزوجية** » ، ويشمل الآيات (٣-٦) .

الموضوع الثالث: «**التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع**» ويشمل الآيات (٧-٩).

الموضوع الرابع: «**التربية الزوجية بضرب المثل بالنساء الغابرات**» ويشمل الآيات (١٠-١٢).

وبالنظر إلى هذه الموضوعات الأربعة بتمعن ، يمكن القول بأن السورة الكريمة عالجت موضوعاً رئيسا واحدا يدور حول التربية الزوجية .

فالسورة الكريمة نراها في مطلعها وفي أول موضوعاتها ، بينت لنا جانبا من حادثة وقعت للنبي -ﷺ- حرم فيها على نفسه شيئا مما أحله الله له ، وسببه ما قامت به أزواجه ، فجاء

---

(١) محمد عزت بن عبد الهادي دروزة ، مفكر وكاتب ومناضل فلسطيني، ولد في نابلس عام ١٣٠٥ه، نشأ نشأة علمية، كان شغوفاً بالمطالعة والقراءة، له مؤلفات منها : (الدستور القرآني والسنة النبوية) و (التفسير الحديث) (سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صورة مقتبسة من القرآن، توفي رحمه الله في دمشق سنة ١٤٠٤ه. انظر : تكلمة معجم المؤلفين لمحمد خير رمضان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م ، بيروت : دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، (٥٢٤/١) .

(٢) التفسير الحديث : (٥٢٩/٨) .

عتاب الله -تعالى- لنبيه -ﷺ- في بداية السورة ، وختم هذا العتاب في نهاية الآية باسمين كريمين له -ﷻ- يدلان على مغفرته له ورحمته به ، ثم أشار -ﷻ- بعد ذلك إلى أن من رحمته بالنبي -ﷺ- وأمته أن أنزل لهم ما تنحل به أيمانهم ومايكون كفارة لها ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ .

ثم انتقلت آيات السورة الكريمة من عتاب النبي -ﷺ- إلى عتاب بعض أزواجه ممن أفشت سرا من أسراره ، متحدثة عن أهمية حفظ الأسرار الزوجية ومكانته ، وأن هذا الإفشاء ينبغي أن يعقبه توبة إلى الله تعالى ، وعدم الاسترسال في ذلك والتظاهر على النبي -ﷺ- ، لأن عواقب ذلك وخيمة على زوجاته ، وقد يؤدي بهن إلى الطلاق واستبدال الله لنبيه زوجات خير منهن ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾

ثم أخذت السورة الكريمة في بيان أهمية وقاية النفس والأهل من النار وهو المجتمع الأصغر ، ومن ذلك المسارعة إلى التوبة النصوح ، ووقاية المؤمنين وهم المجتمع الأكبر من شر الكفار والمنافقين ، فبصلاح المجتمع الأكبر يصلح المجتمع الأصغر ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

ثم ختمت السورة الكريمة بضرب المثل بامرأتين كافرتين كانتا تحت عصمة نبيين صالحين وهما امرأة نوح وامرأة لوط ، إلا أنهما خانتاهما في الدنيا فكان مصيرهما النار في الآخرة ، ولن ينفعهما ذلك اليوم حسب ولا نسب ، ثم ضربت المثل بامرأة مؤمنة تحت زوج كافر من أشد وألد أعداء الله وهو فرعون ، إلا أن هذا الزوجة الصالحة المؤمنة اختارت الآخرة ، ورغبت في جوار الله -تعالى- في جنة الخلد ، ثم ختمت السورة بضرب مثل بالمؤمنة غير المتزوجة الصالحة العفيفة المصونة ، قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

هذا فالمتدبر في هذه السورة الكريمة ، من أول موضوعاتها ، إلى آخرها ، يرى أن كل موضوع اشتمل على تربية زوجية في غاية الأهمية والخطورة لكلا الزوجين ، أو أحدهما ، كما سيأتي بيانه.

فخلاصة القول في الوحدة الموضوعية للسورة ، أن هذه السورة جاءت في عموم موضوعاتها نسقاً واحداً ، وعقداً منتظماً ، مركزة الحديث على وحدة موضوعية ، وهي : « التربية الزوجية» التي تصلح بها الأسرة التي هي نواة المجتمع ، وبصلاح الأسرة يصلح المجتمع ، والله أعلم .

المبحث الخامس

مناسبات سورة التحريم

ويشتمل على تمهيد وأربعة مطالب :

تمهيد : تعريف المناسبة لغة واصطلاحا .

المطلب الأول : مناسبة سورة التحريم لما قبلها وما بعدها.

المطلب الثاني : مناسبة اسم سورة التحريم لموضوعاتها .

المطلب الثالث : مناسبة فاتحة سورة التحريم لموضوعاتها .

المطلب الرابع : مناسبة فاتحة سورة التحريم لخاتمتها .

تمهيد

أولا : تعريف المناسبة لغة :

في معجم مقاييس اللغة : « النون ، والسين ، والباء ، كلمة واحدة ، قياسها اتصال شيء بشيء ، منه النسب ، سمي لاتصاله ، وللاتصال به تقول: نسبْتُ أنْسب، وهو نسِيبُ فلان . والنسيب : الطريق المستقيم ، لاتصال بعضه من بعض »[١].

وفي لسان العرب : « تقول: ليس بينهما مُناسبة ، أي: مُشاكلة »[٢].

وفي مختار الصحاح:« فلان يناسب فلانا،فهو نسيبه، وبينهما مناسبة، أي:مشاكلة»[٣].

قال الزركشي : « والمناسبة في اللغة : المقاربة ، وفلان يناسب فلانا ، أي : يقرب منه ويشاكله ، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة ، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس الوصف المقارب للحكم ؛ لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم »[٤].

إذاً فالمناسبة في اللغة تعني : الاتصال ، والمقاربة ، والمماثلة .

ثانيا : تعريف المناسبة اصطلاحا :

قام البقاعي بتعريف المناسبة في الاصطلاح ، فقال : « علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال ، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها »[٥].

ويقول مناع القطان[٦] في تعريفها : « وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة ، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة »[٧].

---

(١) معجم مقاييس اللغة : (٥/٤٢٣-٤٢٤) .

(٢) لسان العرب : (١/٦٨٢) .

(٣) مختار الصحاح : (٦٨٨) .

(٤) البرهان في علوم القرآن : (١/٣٥) .

(٥) نظم الدرر : (١/٥) .

(٦) هو : الشيخ مناع خليل القطان ، من مواليد قرية شنشور بمحافظة المنوفية بمصر بتاريخ ١٣٤٥هـ ، شارك في كثير من الأنشطة العلمية والدعوية ، وله جهود في كثير من المجالات ، ومؤلفات في شتى الموضوعات ، توفي يوم الاثنين ، ٦/٤/١٤٢٠ه ، وصلي عليه في مسجد الراجحي ، ودفن في مقابر النسيم بالرياض. انظر : موقع الشبكة الدعوية http://www.daawa-info.net/bio.php?id=٩٢ .

(٧) مباحث في علوم القرآن : (٩٢) .

المطلب الأول
مناسبة سورة التحريم لما قبلها وما بعدها

أولا : مناسبة سورة التحريم لسورة الطلاق التي قبلها :

لا ريب أن فهم العلاقات التناسبية والروابط التناسقية بين سورة التحريم والطلاق مما يعين على فهم أدق لجوهر السورة نفسها ، ويمكن أن نلحظ أن هناك وشائج وتناسقا واضحا بينهما، فمحور كل منهما يتناول حل وعلاج بعض المشكلات الزوجية ، وسأتناول ذلك من خلال ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : مناسبة فاتحة سورة التحريم لفاتحة الطلاق :

افتتحت هذه السورة الكريمة بقوله -تعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، وافتتحت الطلاق كذلك بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ .

قال السيوطي : « هذه السورة متآخية مع التي قبلها بالافتتاح بخطاب النبي -ﷺ- » [1].

الجانب الثاني : مناسبة فاتحة سورة التحريم لخاتمة الطلاق :

ختمت سورة الطلاق ببيان علم الله المحيط بما في السماوات والأرض جليلها ودقيقها حيث قال -جل جلاله- : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [الطلاق: ١٢].

وذكر في افتتاحية التحريم علم الله المحيط بحادثة خاصة جرت بين رسول الله - ﷺ - وبين بعض أزواجه وإحاطته بالسر الذي أودعه رسول الله - ﷺ - بعض أزواجه، وإحاطته كذلك بإفشائها لسر رسول الله - ﷺ -، حيث ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ ﴾ .

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور : (١٢٧) .

قال الرازي : « وأما الأول بالآخر ؛ فلأن المذكور في آخر تلك السورة ، يدل على عظمة حضرة الله -تعالى- ، كما أنه يدل على كمال قدرته وكمال علمه ، لما كان خلق السموات والأرض وما فيهما من الغرائب والعجائب مفتقرا إليهما وعظمة الحضرة مما ينافي القدرة على تحريم ما أحل الله ، ولهذا قال تعالى : ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ »[1].

قال البقاعي : « لما ختم -ﷻ- الطلاق بإحاطة علمه وتنزل أمره بين الخافقين في تدبيره ، دل عليه أول هذه بإعلاء أمور الخلق بأمر وقع بين خير خلقه وبين نسائه اللاتي من خير النساء ، واجتهد كل في إخفاء ما تعلق به منه فأظهره -ﷻ- ....» [2].

الجانب الثالث : مناسبة موضوعات السورتين :

أ) كلتا السورتين اشتملتا على أحكام تتعلق بالنساء وخاصة بالطلاق .

قال أبو حيان : « والمناسبة بينها وبين السورة قبلها أنه لَمَّا ذكر جملة من أحكَام زوجات الْمؤمنِين ، ذَكَر هنا مَا جرى من بعض زوجات رسول الله -ﷺ- »[3].

وقال السيوطي : « تلك مشتملة على طلاق النساء ، وهذه على تحريم الإيلاء ، وبينهما من المناسبة ما لا يخفي » [4].

ب) جاء في سورة الطلاق تعليم النبي -ﷺ- وأمته أحكام الطلاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ تمهيدا للتهديد الذي جاء في سورة التحريم ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ .

يقول الإمام أبو جعفر ابن الزبير : « لا خفاء بشدة اتصال هذه السورة بسورة الطلاق لاتحاد مرماهما وتقارب معناهما، وقد ظن أن رسول الله -ﷺ- طلق نساءه حين اعتزل في المشربة ، حتى سأله عمر-رضي الله عنه- والقصة معروفة، وتخييره -ﷺ- إياهن إثر ذلك وبعد اعتزالهن شهرًا كاملاً ، وعتب الله عليهن في قوله: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ...﴾

---

(١) مفاتيح الغيب : (٥٦٨/٣٠) .

(٢) نظم الدرر : (١٧٩/٢٠) .

(٣) البحر المحيط : (٢٠٧/١٠) .

(٤) تناسق الدرر في تناسب السور : (١٢٧) .

وقوله : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ ...﴾ ، فهذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء وأشبه بسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعاني والتحام المقاصد »[١].

ج) ذكر الله -تعالى- في سورة الطلاق أحكام الطلاق وما يتبعه ، وذكر في سورة التحريم حكم تحريم الرجل سريته على نفسه ، وكان النبي -ﷺ- حرم مارية (كما في بعض الروايات) إرضاء لزوجه حفصة [٢].

د) ورد في سورة الطلاق طريقة وكيفية إنهاء خصومة بعض نساء الأمة ، وفي هذه السورة ورد فيها كيفية إنهاء خصومة نساء النبي -ﷺ- ، وإفرادها بأحكام تخصهن ، وذلك تعظيما لهن .

قال السيوطي : « ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة ، ذكر في هذه خصومة نساء النبي -ﷺ- إعظاما لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة ، فأفردن بسورة خاصة »[٣].

ه) لما تحدثت سورة الطلاق عن أحكام المطلقات إيقاعا وعدة ونفقة وسكنى وإرضاعا ، جاء في سورة التحريم التهديد بالطلاق ، لتعلم كل من شملها التهديد أن هناك مشكلات تنتظرها إن وقع عليها الطلاق، وفي ذلك الإيماء تربية بالإيحاء ، فمن أقسى الأمور على نفس المرأة تهديدها بالطلاق وتذكيرها بما يترتب عليه من تشريد وهدم لعش الزوجية [٤] .

و) جاء في سورة الطلاق الحث على الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح ، وهو العمل وفق ما جاء به رسول الله -ﷺ- وهو طريق الفلاح والخروج من الظلمات إلى النور ، حيث جاء النص الكريم ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾[الطلاق:١١] في حين جاء في سورة التحريم الدلالة على بداية العمل الصالح ، وهو التوبة والالتزام بطاعة الرسول -ﷺ- كما في قوله : ﴿إِن تَنُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وفي قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن : (٢٤٢) .

(٢) التفسير المنير : (١٦٦/٤) .

(٣) تناسق الدرر في تناسب السور : (١٢٧) .

(٤) جواهر البيان : (٢١٩/١٠-٢٢٠) .

ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾ .

ز) جاء ذكر النور في سورة الطلاق شاملا للنور الدنيوي والأخروي قال -ﷻ-: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بينما جاء النور في سورة التحريم مرادا به النور الأخروي ، قال -تعالى- : ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ .

ثانيا : مناسبة سورة التحريم لسورة الملك التي بعدها

إن الصلة والمناسبة بين سورتي التحريم والملك واضحة وجلية ، ولعلها تتضح أكثر من خلال الجوانب التالية :-

الجانب الأول : مناسبة خاتمة التحريم لفاتحة الملك :

أ) لما ضرب الله -ﷻ- مثلا للكفّار بتينك الْمرأتين الْمحتوم لهما بالشّقاوة ، وإن كانتا تحت نبيّين، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم، وهما محتوم لَهُمَا بِالجنّة، وَإِن كَان قوماهما كافرين. كَانَ ذلك تصرفًا فِي ملكه على مَا سبق قَضَاؤُهُ ، فَقَالَ -ﷻ- في فاتحة الملك : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [1].

ب) لما ذكر آخر التحريم امرأتي نوح ولوط الكافرتين ، وامرأة فرعون المؤمنة ، جاء في فاتحة سورة الملك ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ ﴾ ، مرادا بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال[2].

ج) ختمت سورة التحريم بقوله تعالى : ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ وفتحت سورة الملك بالثناء على الله تعالى بإثبات كماله ، وعموم قدرته ، ردا لما يدعيه النصارى في مريم من تجسد الله بها، وبيانا ؛ لأن حملها بنفخ جبريل في فرجها أثر من آثار قدرته ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [3] .

---

(١) البحر المحيط : (٢١٩/١٠-٢٢٠) .

(٢) تناسق الدرر : (١٢٧) .

(٣) جواهر البيان : (٢١٩/١٠-٢٢٠) .

الجانب الثاني : مناسبة موضوعات السورتين .

أ) أن الله -تعالى- بين في سورة التحريم أن القرابة من الرسول لا تغني القريب ، ولا تمنعه من دخول النار إذا استوجبها بكفره ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ فبين هنا الكفر الذي يوجب دخول النار ، وهو تكذيب الرسول ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ ، ويؤخذ منها أن خيانة امرأة نوح وامرأة لوط هي تكذيبهما لزوجيهما ، لا شيء آخر .

ب) ذكر الله -ﷻ- في سورة التحريم السر الذي استكتمه النبي -ﷺ- لبعض أزواجه ، قال تعالى : ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا ﴾ ، وجاء في سورة الملك بيان أن السر والجهر عند الله -ﷻ- سواء فهو عليم بذات الصدور ، قال تعالى : ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾.

المطلب الثاني
مناسبة اسم سورة التحريم لموضوعاتها

ينبغي لقارئ القرآن الكريم أن يتأمل في أسماء سوره ، ويمعن النظر فيها ، فهي بلا شك عنوان للسورة ، ومدخل إليها ، يقول الزركشي[١]: « ينبغي النّظر في وجه اختصاص كلِّ سورةٍ بما سمِّيت به » [٢] وقد ذكرَ بعض هذه الوجوه ومنها :

١- تسميتُها بما يُذكر فيها من قصّةٍ غريبةٍ أو أحكامٍ خاصّةٍ أو أحوالٍ تفصيليّةٍ وذكرَ أمثلةً لذلك: فسورة البقرة لذكر قصة البقرة، وسورة النساء لما تردّد فيها من كثير من أحكام النساء، وسورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها.

٢- التكرار في الكلمات : وذكر مثالاً لذلك سورة "هود" التي تكرّر اسمه فيها أربع مرات، مع أنّ السورة تضمنت الحديث عن كثير من الأنبياء. وسورة "ق" سميت بذلك ؛ لأنها ابتدئت بهذا الحرف الهجائي المقطوع عن غيره .

٣- الانفراد : فسورة نوح لمّا انفردت بقصته مع قومه و لم يقع فيها ذكر غيره من الأنبياء سميت باسمه، وكذلك سورة "يونس" وسورة "يوسف" وسورة "مريم" وسورة "الجن" وسورة "لقمان" وسورة "المنافقون" وغيرها.[٣]

ووضح الدكتور محمد خليل جيجك[١] ما أجملَه الزركشيُّ من وجوه فقال: « إن السور القرآنية المنقولة إلينا بتواتر قطعي، التي لا يجاريها ولا يدانيها في قطعيتها أيُّ نصّ أو كتابٍ آخر تأخذ أسماءها إمّا من :

---

(١) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي ، أبو عبد الله، بدر الدين ، عالم فقيه أصولي شافعي ، تركي الأصل، مصري المولد والوفاة ، له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة)و(لقطة العجلان) في أصول الفقه، و (البحر المحيط) في أصول الفقه، ولد (٧٤٥ه) وتوفي (٧٩٤هـ) ينظر : الأعلام للزركلي : (٦/ ٦٠).

(٢) البرهان في علوم القرآن : (١/٢٧٠-٢٧٢) .

(٣) ا المصدر السابق : (١/٢٧٠-٢٧٢) .

١- أوّل كلمتها، كما في "ق" و "ص".

٢- أو من أول كلمة ذكرت في أول جملها كما في "الملك" و "فصلت".

٣- وإما من صاحب قصة غريبة ذكر فيها كما في:"النمل"و"البقرة"و"مريم"و"لقمان"و "الروم".

٤- وإما من اسم نبي ذكر فيها مجادلته مع قومه "كيونس"و"يوسف"و"هود" و "نوح"....

٥- وإما من اسمٍ يتبوأ موقعاً هاماً باعتبار ما مرّ فيه ذكره "كالنحل" و "العنكبوت" و"الكهف" و"الأعراف" و"الفرقان" و "الإسراء" و "الشعراء" و"القصص" و "الأحقاف".

٦- وإما من ذكر مجموعة متجانسة فيها كما في: "الأنبياء".

٧- وإما لملابسة أن ذكر فيها أحكام جنس أو أجناس "كالنساء" و "الأنعام" [٢].

واعتبر الفراهي[٣]-رحمه الله- أسماء السور على أربعة أوجه فقال: « ولما كان اسم الشيء عنواناً لمعناه، وقد اشتهر من الأسماء مالا يخبر عن معناها، فاعلم أن أسماء السور على أربعة أوجه:

الأول : تسميتها بلفظ من أوائلها ، فمنه ما نقله السيوطي : سورة الحمد ، والبراءة ، وسورة سبحان ، وطه ،... وغير ذلك.

---

(١) هو : محمدخليل جيجك ، أبو فاطمة ، من أهالي وان في تركيا ، أستاذ وعميد بكلية الإلهيات في جامعة بينكول ، بتركيا ، له كتب وأبحاث مطبوعة . انظر : موقع المؤتمر الدولي للدراسات القرآنية: http://www.quranicconferences.com

(٢) انظر: دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٤٢١هـ، (١٨٣).

(٣) الفراهي : هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان ، ويعرف بحميد الدين الفراهي ؛ نسبة إلى "فريها" قريته بالهند، ولد سنة ١٢٨٠ه ، وتوفي وهو يقرأ القرآن الكريم سنة ١٣٤٩ه ، كان بارعاً في العربية والفارسية والإنجليزية والعبرية ، ألف في التّفسير وعلوم القرآن بضعة عشر كتابا ، من أشهرها:نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان و لم يتمّه، دلائل النّظام، مفردات القرآن ، وإمعان في أقسم القرآن.. انظر ترجمته في مقدمة كتابه : مفردات القرآن ، الإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق : د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٢م (١١-٤١) .

الثاني : تسميتها بلفظ اختص بها كالزخرف والشعراء والحديد والماعون، وغير ذلك، فهذه الأسماء لا تنبئ عن مقصد السورة، ولكنها كالشامة والسمة تتميز بها مسمياتها ...

الثالث : تسميتها بلفظ يخبر عن بعض المعاني العظيمة كتسمية سورة النور لاشتمالها على آية النور، وتسمية سورة آل عمران وسورة النساء، وسورة إبراهيم، وسورة يونس، وكثير من الأسماء على هذا الأسلوب.

الرابع : تسمية السورة بما ينبئ عن المقصد الذي بنيت له السورة، فمنها تسمية الفاتحة بسورة الصلاة، وتسمية براءة، وسورة بني إسرائيل، وسورة محمد بسورة القتال، وسورة الإخلاص والمعوذتين ...» [(١)].

وتساءل السيوطي لماذا لم يفرد لموسى -عليه السلام- سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن؟ وكذلك آدم -عليه السلام- ذكرت قصته في عدّة سور ولم تسمَّ به سورة ؟ وكذلك قصة الذبيح من بدائع القصص وردت في سورة الصافات ولم تسمَّ به؟ وقصة داود -عليه السلام- ذكرت في سورة "ص" ولم تسم به ؟ ولم يذكر لذلك جواباً ، واكتفى بالتعليق على ذلك بقوله : « فانظر في حكمة ذلك! » [(٢)] .

ومما سبق يمكن أن ندرك أن ما ذكره العلماء في هذا الباب إنما هو استقراء لبعض الوجوه في التسمية ، لكنه لا يسير على قاعدة واحدة مطردة بحيث يمكن التسليم بأن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها ، كما يقول البقاعي : « وقد ظهر لي : أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبات بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه » [(٣)].

ولهذا أود أن أشير هنا إلى أنه ليس من الضروري أن يدل اسم السورة على محورها الأساس وعمودها الرئيس ومقصودها الأهم دلالة واضحة ، وخاصة إذا علمنا أن اسم سورة التحريم لم يكن توقيفيا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ، ولم يثبت عنه أي اسم لها مع تعدد أسمائها ،

---

(١) تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان : (٦٢) .

(٢) الإتقان : (١/١٨٣) .

(٣) نظم الدرر : (١/١٨- ١٩) .

وقد تقدمت الأقوال في مبحث اسم السورة ، وترجح لدينا هناك أن للسورة أربعة أسماء وهي : التحريم ، ولم تحرم ، والمتحرم ، والنبي -ﷺ- [١].

ويمكن استنباط المناسبة من هذه الأسماء الأربعة وبين موضوعات هذه السورة الكريمة بأن يقال: إن التسميات المذكورة للسورة كلها راجعة إلى تسمية واحدة وهي التسمية المشهورة (التحريم) وذلك أن التسمية الثانية (لم تحرم) أخذت من اللفظة القرآنية ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ ، كما أن التسمية الثالثة وهي : (المتحرم) اسم فاعل لمن قام بالتحريم ، المبين في التسمية الرابعة وهي : (النبي-ﷺ-) .

ولهذا سأكتفي باستنباط علاقة التسمية المشهورة بالمحور الأساس للسورة ، ويتضح ذلك من خلال معرفة أن التحريم الذي قام به النبي -ﷺ- والذي جاءت بسببه معاتبة الله -ﷻ- له كان الغرض منه إرضاءه لبعض أزواجه ، ولهذا كان المحور الأساس للسورة « التربية الزوجية ».

وعلاقة اسم السورة بالموضوع الأول وهو : «عتاب وتحريم ومغفرة» يتضح من خلال معرفة ما ورد في الآيات من عتاب الله -ﷻ- لنبيه في قضية تحريمه لبعض الأشياء التي أحلها الله له ، ثم مغفرته له .

وعلاقة هذه التسمية بالموضوع الثاني وهو:«التربية في حفظ الأسرار الزوجية » يتضح من خلال معرفة أن تحريم النبي -ﷺ- للشيء الذي أحله الله له ، قد أسره لبعض أزواجه ، والتي بدروها أفشت ذلك السر ، وسيأتي ذكر تلك الأسباب في سبب نزول السورة [٢].

وعلاقة التسمية بالموضوع الثالث وهو : «التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع » يتضح من خلال معرفة أن القيام بوقاية النفس والأهل والمجتمع من النيران ومجاهدتهم على ذلك ، فيه تحريم ومنع لهم من دخولها .

وعلاقتها : بالموضوع الرابع وهو: «التربية الزوجية بضرب المثل بالنساء الغابرات» يتضح من خلال معرفة أن النساء المضروب بهن الأمثال منهن من حرمن من الجنة بسبب

---

(١) انظر : صفحة : (٣٦-٤٠) .

(٢) في صفحة : (٧٩) .

كفرهن بالله وخيانتهن لأزواجهن ، ومنهن من أجرن من النار بسبب إيمانهن بالله -ﷻ-، وطاعتهن له .

فخلاصة القول في مناسبة اسم السورة لموضوعاتها : أن اسم السورة الكريمة «التحريم » مشتق بل ومنسوج مما دار في السورة من موضوعات ، فذكر اسم التحريم فقط يصور للقارئ والسامع معاني وردت في الآيات ، فتتضح لديه موضوعات السورة الكريمة وضوحا تاما بمجرد معرفة معنى هذا الاسم .

المطلب الثالث

مناسبة فاتحة سورة التحريم لموضوعاتها

إن سورة التحريم بجميع موضوعاتها الأربعة تتحدث عن التربية الزوجية لزوجات النبي -ﷺ-، وبالتالي لنساء الأمة قاطبة ، وتحث على احترامه وتقديره ، وتحذر من إفشاء أسراره والتظاهر عليه ، وتؤكد على أهمية وقاية النفس والأهل والمجتمع من النار ، وتضرب المثل بنساء طالحات للتحذير من عملهن ، وأخر صالحات للاقتداء بهن ، فكان افتتاح السورة الكريمة بمسألة تحريم النبي -ﷺ- على نفسه شيئا فيه براعة استهلال لهذا المحور الأساس، حيث إن رسول الله-ﷺ- وهو قدوة الأمة يعلم ويعاتب في أمر وقع بينه وبين زوجاته اللاتي هن أيضا قدوة لنساء المؤمنين، ولا يقر عليه ، وفي ذلك تربية للنبي -ﷺ- وزوجاته أمهات المؤمنين ، وهي دلالة قوية وواضحة على صلة فاتحة السورة بموضوعاتها ، ويدل كذلك على وحدة الموضوع والهدف العام الذي تقصده وهو (التربية الزوجية) .

فخلاصة القول في مناسبة فاتحة سورة التحريم لموضوعاتها ، أن وحدة سورة التحريم الموضوعية اتضحت من خلال فاتحتها ، وأن جميع موضوعاتها مستمدة منها ، ومن مضامين تلك الفاتحة .

المطلب الرابع
مناسبة فاتحة سورة التحريم لخاتمتها

إن المناسبة بين افتتاحية سورة التحريم وخاتمتها جلية وواضحة ، بل نكاد نقول إن الحقائق التي عرضت في افتتاحية السورة كررت ذاتها بأسلوب آخر في الخاتمة ، وفيما يلي نذكر جملة من هذه المناسبات والروابط :

أولا : جاء في فاتحة السورة ذكر أزواج النبي -ﷺ- في الدنيا والآخرة: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، وجاء في خاتمة السورة ذكر بعض زوجاته في الآخرة وهما : آسية زوج فرعون ومريم بنت عمران[1] ، وقد كانتا مثالين للمرأة التي آثرت ما عند الله على ما كانت عليه من الملذات الدنيوية، وصدقت وعود الله ، وكانت في غاية الطاعة والقنوت إلى الله -ﷻ-.

وفي ذلك إشارة واضحة إلى ما ينبغي أن تتصف به زوجات أكمل الناس خلقًا ، اللاتي هن أمهات المؤمنين وقدوة نسائهم .

قال السيوطي : « بدئت بذكر أزواج النبي -ﷺ- ، وختمت بذكر زوجتيه في الجنة آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران »[2].

ويقول البقاعي: « وقد أتم -ﷻ- الأمثال في الآداب بالثيّبات والأبكار الأخيار والأشرار فانعطف آخر السورة على أولها في المعاني بالآداب، وزاد ذلك حسنًا كونها في النساء في الذوات والأعيان بزواج النبي -ﷺ- لآسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران في الجنة دار القرار السالمة عن الأكدار، الزواج الأبدي، فصار أول السورة وآخرها في أزواجه -ﷺ-، وفي ختامها بالقنوت الذي هو خلاصة الأوصاف الماضية في الأبدال المذكورات أعظم مناسبة والله

---

(١) قضية أن آسية ومريم زوجتا النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، جاءت بها أحاديث ضعيفة وبعضها منكرة ، إلا أنها بمجموع طرقها ترتقي إلى درجة الحسن لغيره ، كما نص على ذلك شيخنا الأستاذ الدكتور محمد بازمول في تحقيقه لأسانيد هذه الأحاديث أثناء تحقيقه لكتاب مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع للسيوطي، انظر الصفحات:(١٦٤-١٦٦).

(٢) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع : (١٦٤) .

الهادي»[١].

ثانيا : جاء التهديد والوعيد في فاتحة السورة للمتظاهرتين اللتين تسببتا في التحريم ، وأفشتا سر رسول الله -ﷺ- ، وقد استكتم إحداهما الخبر وأمرها أن لا تبوح به لأحد، فبثت الحديث للأخرى، وهذا شيء لا ينبغي أن يحدث في بيوت عامة المسلمين، فكيف به إن حدث في بيت رسول الله -ﷺ- قدوة الأمة . ولخطورة الأمر جاء التمثيل في خاتمة السورة بذكر زوجتين كانتا تحت نبيين من الأنبياء فعندما خالفتا مبادئ شرائعهما و لم تلتزما بأحكام دينهما ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ وفي ذلك إشارة وتعريض بأمهات المؤمنين عامة وبالمتظاهرتين خاصة إن بدر منهما ما يخالف شرائع الإسلام التي جاء بها النبي -ﷺ- .

يقول الفخر الرازي : « وفي ضمن هذين التمثيلين تعريض بأمي المؤمنين، وهما حفصة وعائشة -رضي الله عنهما- لما فرط منهما وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده لما في التمثيل من ذكر الكفر »[٢].

ونقل الشوكاني عن بعضهم أنه قال : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة -رضي الله عنهما- من المخالفة لرسول الله -ﷺ- حين تظاهرتا عليه » ويعقب عليه بقوله : «وما أحسن ما قال فإن ذكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله -ﷺ- يرشد أتم إرشاد ويلوح أبلغ تلويح إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئًا، وقد عصمهما الله -ﷻ- من ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة»[٣].

---

(١) نظم الدرر : (٢١٤/٢٠) .

(٢) التفسير الكبير : (٥٧٤/٣٠) .

(٣) فتح القدير : (٣٠٥/٥) .

الفصل الثاني

موضوعات سورة التحريم وتناسقها

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث :

التمهيد : بين يدي موضوعات سورة التحريم .

المبحث الأول: تحريم وعتاب ومغفرة. ويشمل الآيات (١-٢). وفيه خمسة مطالب .

المبحث الثاني : التربية في حفظ الأسرار الزوجية . ويشمل الآيات (٣-٥). وفيه خمسة مطالب .

المبحث الثالث: التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع . ويشمل الآيات: (٦-٩). وفيه خمسة مطالب .

المبحث الرابع : التربية الزوجية بضرب المثل بالنساء الغابرات . ويشمل الآيات : (١٠-١٢) . وفيه خمسة مطالب .

التمهيد

بين يدي موضوعات سورة التحريم

التمهيد

اشتملت سورة التحريم على بعض الموضوعات ، ويمكن إجمالها في أربعة موضوعات وهي :

الموضوع الأول : « **تحريم وعتاب ومغفرة** » ويشمل الآيتين (١-٢) حيث جاء فيهما عتاب الله -ﷻ- لنبيه -ﷺ- في تحريمه على نفسه ما أحل الله له ، وأعقب هذا العتاب ختم الآية الأولى باسمين كريمين له سبحانه يدلان على المغفرة والرحمة ، ثم بين في الآية الثانية حكماً عاماً للنبي -ﷺ- ولأمته كلها فيما تنحل به اليمين ، ومايكون كفارة لها .

الموضوع الثاني : «**التربية في حفظ الأسرار الزوجية** » ، ويشمل الآيات (٣-٦) حيث جاء في هذه الآيات عتاب الله -ﷻ- لزوجتي النبي -ﷺ- لإفشاء سره إلى إحداهما ، وتوعد الله جميع زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالطلاق وبإبداله خيراً منهن ، وذكر ما ينبغي أن تكون عليه الزوجة الصالحة .

الموضوع الثالث : « **التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع** » ويشمل الآيات (٧-٩)، حيث جاء في هذه الآيات الأمر الحثيث بوقاية النفس والأهل من النار ، والمسارعة إلى التوبة النصوح ، ووقاية المجتمع من شر الكفار والمنافقين بالجهاد بالسنان واللسان .

الموضوع الرابع : « **التربية الزوجية بضرب المثل بالنساء الغابرات** » ويشمل الآيات (١٠-١٢) ، حيث جاء في هذه الآيات ضرب المثل بامرأتين كافرتين كانتا زوجتين لنبيين كريمين ، وهما : امرأة نوح وامرأة لوط ، ولكنهما خانتاهما في الدنيا فكان مصيرهما النار في الآخرة ، ولن ينفعهما ذلك اليوم حسب ولا نسب ، ثم عقبت بعد ذلك بمثال آخر للمرأة المؤمنة تحت زوج كافر وفي بيت الكفر والطغيان ، إلا أنها اختارت الآخرة وجوار الله-ﷻ- في جنة الخلد وهي: امرأة فرعون ، ثم ختمت السورة بضرب مثل بامرأة عفيفة محصنة طاهرة غير متزوجة ، كانت على مكانة عالية في طاعة الله-ﷻ-، وتصديق كلماته، وهي مريم بنت عمران-عليها السلام-.

المبحث الأول

تحريم وعتاب ومغفرة

ويشمل الآيات (١-٢) ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : سبب نزول سورة التحريم .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

تحريم وعتاب ومغفرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾.

المطلب الأول
ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة

حين تتأمل آيات هذا الموضوع تلحظ ارتباطها بالمحور الأساس للسورة وهو : (التربية الزوجية) وذلك أن في آيات هذا الموضوع تربية وتعليم للنبي -ﷺ- :

أولا : لكونه قدوة للمؤمنين والمؤمنات ، وذلك ما يدل عليه النداء في قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

ثانيا : لكونه زوجا لأمهات المؤمنين ، وذلك ما تشير إليه هذه الجملة : ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ .

فمجيء فاتحة هذه السورة وأول موضوع من موضوعاتها في تربية النبي -ﷺ- وتعليمه كيفية التعامل مع زوجاته ، دليل واضح على أن هذه السورة مسوقة للتربية الزوجية .

ثم إن في معاتبة النبي -ﷺ- في ابتغاء مرضاة أزواجه في فاتحة هذه السورة ، إشارة إلى أن على الزوج المؤمن الحرص على ابتغاء مرضاة الله -تعالى-، وأن ذلك هو باب الصلاح والتربية الزوجية بين الزوجين ، وأنه إذا فقد هذا الأمر في الأسرة ، تفككت وحلت الخصومة والمشاكل بينهما ، وفيه إشارة أيضا إلى أن رضى الزوجات غاية لا تدرك ، ورضا الله غاية لا تترك ، فليُتْرك مالا يدرك ، وليُدْرك مالا يُتْرك .

وقد قال النبي -ﷺ- في الحديث الطويل الذي فيه : «.....ورأيت النار ، فلم أر كاليوم منظرا قط ، ورأيت أكثر أهلها النساء » قالوا: لم يا رسول الله؟ قال: «بكفرهن» قيل: يكفرن بالله ؟ قال : « يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئا ، قالت : ما رأيت منك خيرا قط »[1] .

(١) رواه البخاري ، كتاب النكاح ، باب كفران العشير ، برقم : (٥١٩٧) .

المطلب الثاني

سبب نزول سورة التحريم

إن سبب نزول هذه السورة وكذلك بعض آياتها جاء بها أحاديث كثيرة ، ومما يلاحظ أن هناك اختلافا بين العلماء ، ومواقف متباينة بين هذه الروايات ، فمنهم من رجّح بعضها على غيرها ، ومنهم من حاول الجمع بينها في الجوانب التي يمكن الجَمع ، وما لا يمكن الجمع ردوه وخطأوا القائلين به .

وسأورد هذه الروايات ثم أعقب على ذلك بذكر أقوال العلماء بالترجيح والجمع :

أولا : أخرج البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم كلهم من طريق عبيد بن عمير[(١)]، عن عائشة -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة: أن أيَّتَنَا دخل عليها النبي -ﷺ- فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير ، أكلتَ مغافير ، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك ، قال : « لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له» ، فنزلت:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً»[(٢)]. زاد البخاري في روايته : « وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً »[(٣)] .

---

(١) هو : عبيد بن عمير بن قتادة الليثي ثم الجندعي أبو عاصم المكي ، تابعي ثقة ، من كبار التابعين ، روى عن كثير من الصحابة ، مات سنة ٦٨ه ، انظر: تهذيب التهذيب : (٧١/٧) .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الطلاق ، باب : ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ برقم (٤٩٦٦) و(٦٣١٣) ، ومسلم ، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، برقم:(١٤٧٤) ، أحمد في المسند:(٤١/٤٣) برقم:(٢٥٨٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ برقم : (٤٦٢٨) وهذه الزيادة انفرد بها البخاري .

ثانيا : أخرج النَّسَائِي عن أنس ﷺ أن رسول اللَّه -ﷺ- كانت له أَمةٌ يطؤها ، فلِم تزل به عائشة وحفصة حتي حرمها فأنزل اللَّه -ﷻ- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ .. ﴾[(١)].

هكذا جاء في سبب نزول هذه السورة الكريمة ، وقد حقق هذه الأحاديث وغيرها صاحب كتاب«المحرر في أسباب النزول من خلال الكتب السبعة»[(٢)]، فكان تحقيقا نفيسا، رأيت أن أنقله بتصرف واختصار، حيث يقول: قبل الخوض في نقل أقوال المفسرين في سبب النزول أهي قضية العسل أم قضية الجارية يحسن أولاً أن ننقل ما روى الشيخان أيضاً في قضية العسل عن عروة عن عائشة-رضي الله عنها- قالت: كان رسول اللَّه -ﷺ- يحب العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر، دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر، فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت، فسألت عن ذلك، فقيل لي: أَهدت لها امرأة من قومها عُكةً[(٣)]من عسل، فسقت النبي-ﷺ-منه شربة، فقلت: أما واللَّه لنحتالنَّ له فقلت لسودة[(٤)]:إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلتَ مغافير، فإنه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد منك، فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة، عسل، فقولي له : جَرَسَتْ[(٥)] نحلة العُرفُط[(٦)]، وسأقول ذلك، قولي أنت يا صفية ذاك. قالت: تقول سودة: فواللَّه ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أَن أُبَادِيَه بما أمرتني به فرقًا منك،

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ، كتاب التفسير ، قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ برقم: (١١٦٠٧). وسنده صحيح كما قاله الألباني ، وقد روي من طرق أخرى من غير أنس ، موصولة ومرسلة، أشار إليها الحافظ في الفتح: (٨/٥٢٥).

(٢) هذا الكتاب من أصل رسالة علمية تقدم بها الباحث: خالد بن سليمان المزني، لنيل درجة الدكتوراه، مطبوع في مجلدين الناشر: دار ابن الجوزي ، ١٤٢٧ه، وقد قام الباحث بدراسة سبب نزول هذه السورة من(١٠٢٧-١٠٣٨).

(٣) العكة: وعاء من جلود مستدير يختص بالسمن والعسل وهو بالسمن أخص.النهاية(٣/٢٨٤)، مادة (عكك).

(٤) سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية ، كانت أول امرأة تزوجها الرسول ﷺ بعد خديجة ، بنى بها بمكة ، أراد الرسول ﷺ طلاقها ، فسألته أن يمسكها وتجعل يومها لعائشة ففعل ، وكانت تضحكه بالشيء أحيانا ، ماتت آخر زمان عمر ، ويقال : ماتت سنة أربع وخمسين ، الإصابة : (٤/٣٣٨) .

(٥) جرس : أكل ، والجرس في الأصل : الصوت الخفي . النهاية : (١/٢٦٠) . مادة (جرس) .

(٦) العرفط : بالضم ، شجر الطلح ، وله صمغ كريه الرائحة ، فإذا أكلته النحلة حصل في عسلها من ريحه ، النهاية : (٣/٢١٨) ، مادة عرفط .

فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: (لا) قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال:«سقتني حفصة شربة عسل»فقالت: جرست نحلة العرفط،فلما دار إليَّ قلت له نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: «لا حاجة لي فيه». قالت : تقول سودة : واللَّه لقد حرمناه ، قلت لها : اسكتي[1].

فبين الروايتين اختلاف من وجوه :

١ – أن رواية عبيد بن عمير التي تقدمت جاء فيها ذكر النزول ، أما رواية عروة[2] عن عائشة فقد خلت من ذكر النزول .

٢ – أن المتواطئتين في رواية عبيد بن عمير هما عائشة وحفصة ، بينما المتواطئات في رواية عروة بن الزبير هن عائشة ، وسودة ، وصفية.

٣ – أن ساقية العسل في رواية عبيد بن عمير هي زينب بنت جحش ، بينما الساقية في رواية عروة هي حفصة بنت عمر.

فإن قيل: ما هو الراجح من هاتين الروايتين ؟

فالجواب : أن الحافظ ابن حجر[3]جنح إلى التعدد فقال : « وطريق الجمع بين هذا الاختلاف الحمل على التعدد فلا يمتنع تعدد السبب للأمر الواحد » . ومن إنصافه–رحمه الله– ذكره حجج المرجحين لرواية عبيد بن عمير ، وأن الساقية زينب ، ومنها :

أولاً : أنها توافق قول ابن عبَّاسٍ –رضي الله عنهم– في أن المتظاهرتين حفصة وعائشة كما أخبره عمر بذلك، فقد روى الشيخان عن ابن عبَّاسٍ قال: يا أمير المؤمنين، من اللتان

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الطلاق ، باب : ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ ، برقم : (٤٩٦٧) . ومسلم ، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ، برقم : (١٤٧٤) .

(٢) عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد أبو عبد الله ، تابعي مدني ، كان ثقة كثير الحديث ، فقيها ، عالما، ثبتا ، مأمونا، روى عن خلق من كثير من الصحابة والتابعين ، توفي سنة ٧٣ه ، انظر : تهذيب التهذيب : (١٨٤/٧) .

(٣) هو : أحمد بن علي العسقلاني الشهير بابن حجر، حافظ الإسلام في عصره ، صاحب التصانيف الشهيرة ، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة : انظر : السخاوي ، محمد عبد الرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : (٣٦/٢) .

تظاهرتا على رسول اللَّه -ﷺ- من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة[١]. فلو كانت حفصةُ ساقيةَ العسل لم تقرن في التظاهر بعائشة .

ثانياً: أخرج البخاري عن عائشة-رضي الله عنها-أن نساء رسول الله-ﷺ- كُنَّ حزبين: فحزب فيه عائشةوحفصةوصفية وسودة،والحزب الآخر أم سلمة[٢]، وسائر نساءرسول الله-ﷺ..الحديث[٣].

وجه الدلالة : أن زينب ليست من حزب عائشة ، ولهذا غارت منها بخلاف حفصة فإنها من حزبها .

ثالثاً: أن كون الساقية زينب يوافق سياق القرآن لأن قوله: ﴿**وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ**﴾ يدل على أنهما ثنتان لا أكثر، وهو ما جزم به عمر لابن عبَّاسٍ-رضي الله عنهما- بينما لو كانت الساقية حفصةَ لكانت المتظاهرات عائشة ، وسودة ، وصفية ، وهذا يخالف التلاوة لمجيئها بلفظ خطاب الاثنتين، ولو كانت كذلك لجاءت بخطاب جماعة المؤنث .

رابعاً : أن عائشة –رضي الله عنها- تصرح بقولها : «تواصيت أنا وحفصة» وهذا يوافق ظاهر الآية ، وقول عمر -رضي الله عنه- بينما لا يتأتى هذا لكون الساقية حفصة.

خامساً : أن الرواية في تظاهرهن على حفصة قد خلت من ذكر النزول ، فلم يجئ له ذكر فيها، بينما الرواية في تظاهرهن على زينب قد تضمنت النزول ، وإذا كان الأمر كذلك صارت على صلة بالآية ، وارتباط بها [٤].

وعلى هذا فقد اختلف المفسرون في سبب نزولها على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن قضية العسل هي سبب النزول ، وهذا القول الأول اختاره ابن العربي[١] والقرطبي ، وابن كثير[٢].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب : ﴿تبتغي مرضات أزواجك﴾ ، برقم : (٢٦٢٩) ، ومسلم كتاب الطلاق، باب في الإيلاء ، برقم : (١٤٧٩) .

(٢) هي هند بنت أبي أمية المخزومية، من المهاجرات الأول ، دخل بها النبي -ﷺ- في سنة أربع من الهجرة ، وكانت من أجمل النساء ، وأشرفهن نسبا ، وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين ، ولها أولاد صحابيون: عمر، وسلمة، وزينب ، ولها جملة أحاديث . انظر: الإصابة : (٣٤٢/٨-٣٤٣) .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الهبة ، باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه ، برقم : (٢٤٤٢) .

(٤) فتح الباري : (٢٨٩/٩) .

قال ابن العربي لما ذكر الأقوال : « وإنما الصحيح أنه كان في العسل ، وأنه شربه عند زينب وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه ، وجرى ما جرى ، فحلف ألا يشربه ، وأسر ذلك ونزلت الآية في الجميع » ، وقال عن حديث مارية : « وأما من روى أنه حرم مارية فهو أمثل في السند، وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يدوَّن في صحيح، ولا عُدِّل ناقله، أما إنه روي مرسلاً » [٣].

وقال القرطبي بعد أن ذكر الأقوال مبتدئًا بقضية العسل: «أصح هذه الأقوال أولها »[٤].

وقال ابن كثير: «اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة فقيل: نزلت في شأن مارية وكان رسول اللَّه -ﷺ- قد حرمها فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ ثم ساق الأحاديث في تلك القضية ، ثم قال : «والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل... ثم ساق الأحاديث »[٥].

القول الثاني: أن سبب النزول، كان تحريمه للجارية وليس العسل، واختار هذا ابن عطية والقاسمي[٦].

قال ابن عطية : « والقول الأول أن الآية نزلت بسبب مارية أصح وأوضح ، وعليه تفقه الناس في الآية »[١] .

---

(١) هو : القاضي أبو بكر ، محمد بن عبد الله العربي الأندلسي المالكي، صاحب التصانيف ، توفي بفاس سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة . انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء : (١٩٧/٢٠) .

(٢) هو : إسماعيل بن عمر بن كثير ، صاحب التصانيف ، تتلمذ على المزي وصاهره ، وله خصوصية بشيخ الإسلام ابن تيمية ، توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة . انظر : ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان ، الهند : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٩٢ه/١٩٧٢م .(١/ ٤٤٥) .

(٣) أحكام القرآن : (١٨٤٥/٤-١٨٤٦) .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : (١٧٧/١٨-١٧٩) .

(٥) تفسير القرآن العظيم : (٣٨٦/٤-٣٨٧) .

(٦) هو : جمال الدين محمد بن محمد سعيد بن قاسم ، إمام الشام في عصره، علما بالدين، وتضلعا من فنون الأدب. ولد وتوفي في دمشق ، كان سلفي العقيدة ، انقطع للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة ، في التفسير وعلوم الشريعة الإسلامية والأدب ، وله عدد من الكتب والبحوث ، توفي سنة ١٣٣٢ه . انظر : الأعلام للزركلي: (١٣٥/٢) .

وقال القاسمي : « والذي يظهر لي هو ترجيح روايات تحريم الجارية في سبب نزولها وذلك لوجوه ، **منها** : أن مثله يُبتغى به مرضات الضرات ، ويهتم به لهن ، **ومنها** : أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ، ابتغاء مرضاتهن بل فيه أنه حلف لا يشربه أنفةً من ريحه ، **ومنها** : أن الاهتمام بإنزال سورة على حدةٍ لتقريع أزواجه -ﷺ- وتأديبهن في المظاهرة عليه، وإيعادهن على الإصرار على ذلك بالاستبدال بهن، وإعلامهن برفعة مقامه، وأن ظهراءَه مولاه وجبريل والملائكة والمؤمنون كل ذلك يدل على أن أمرًا عظيمًا دفعهن إلى تحريمه ما حرم ، وما هو إلا الغيرة من مثل ما روي في شأن الجارية ، فإن الأزواج يحرصن أشد الحرص على ما يقطع وصلة الضرةِ الضعيفة ويبترها من عضو الزوجية هذا ما ظهر لي الآن ، وأما تخريج رواية العسل في هذه الآية ، وقول بعض السلف نزلت فيه ، فالمراد منه أن الآية تشمل قصته بعمومها ، على ما عُرف من عادة السلف في قولهم: نزلت في كذا كما نبهنا عليه مراراً »[٢] .

القول الثالث : إطلاق القولين احتمالاً بلا تعيين ، وذهب إلى هذا القول الطبري والبغوي[٣]والسعدي[٤] .

قال الطبري بعد عرض الروايات : « والصواب من القول في ذلك أن يقال : كان الذي حرمه النبي -ﷺ- على نفسه شيئاً كان اللَّه قد أحله له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون شراباً من الأشربة، وجائز أن يكون كان غير ذلك غير أنه أيَّ ذلك كان

---

(١) المحرر الوجيز : (١٦/٤٦-٤٧) .

(٢) محاسن التأويل : (١٦/٥٨٥٥) .

(٣) البغوي أبو محمد الحسين بن مسعود الشافعي، ، محيي السنة ، المفسر ، صاحب التصانيف ، كـ (شرح السنة) و (معالم التنزيل) و (المصابيح) ، و (الجمع بين الصحيحين) ، بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام ، كان على منهاج السلف حالا وعقدا ، وله القدم الراسخ في التفسير ، والباع المديد في الفقه ، توفي : بمرو الروذ مدينة من مدائن خراسان – في شوال ، سنة ست عشرة وخمس مائة . انظر : سير أعلام النبلاء : (١٩/ ٤٣٩) .

(٤) عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ولد : (١٣٠٧ه) ، منح حياته للعلم والتعليم ، وعرف منذ حداثة سنه برغبته القوية وحرصه الشديد على تحصيل العلم ، له مؤلفات تربو على خمسة وأربعين مؤلَّفاً في مختلف العلوم الشرعية ، ومن أجلها كتابه في التفسير : (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ثم لخصه في كتاب (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) وكتب في أصول التفسير (القواعد الحسان لتفسير القرآن)، توفي سنة :(١٣٧٦هـ). للاستزادة : (صفحات من حياة علامة القصيم) للدكتور / عبد الله بن محمد الطيار.

فإنه كان تحريم شيء كان له حلالاً ، فعاتبه اللَّه على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله ، وبيّن له تحلة يمينه في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حرم على نفسه » [١].

أما البغوي فقال ابتداءً : « سبب نزولها ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ... ثم ساق قصة العسل ، ثم قال : وقال المفسرون : كان رسول الله -ﷺ- يقسم بين نسائه ثم ذكر قضية حفصة مع الجارية ... » [٢].

وقال السعدي : « هذا عتاب من الله لنبيه محمد -ﷺ- حين حرم على نفسه سريته (مارية) أو شرب العسل ، مراعاةً لخاطر بعض زوجاته في قصة معروفة » [٣].

هذه أقوال المفسرين أقربها إلي القول الثالث ، والله أعلم .

(١) جامع البيان : (٢٨/١٥٥-١٥٨) .

(٢) معالم التنزيل : (٤/٣٦٢-٣٦٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن : (٧/٤١٨) .

المطلب الثالث
التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع

قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ افتتحت هذه السورة الكريمة بتوجيه النداء إلى النبي -ﷺ- وهو نِدَاءُ إقبالٍ وتشرِيف بِالصّفة عَلَى عِصْمَته مما يقع فِيه من لَيْس بِمَعْصُوم ، وتنبيه إلى أن ما سيذكر بعد النداء ، شيء مهم بالنسبة له ، ولسائر المسلمين(١).

وقوله : ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ الاستفهام هنا للنفي المصحوب بالعتاب منه -ﷻ- لنبيه -ﷺ- ، وهو سؤال تلطف ، وَلِذَلِك قَدّم قَبْلَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ، والمعنى : لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك ؛ ذلك أنه لما التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاما بيمين أو بدون يمين أراد الامتناع منه في المستقبل قاصدا بذلك تطمين أزواجه اللائي تمالأن عليه ؛ لفرط غيرتهن، أي: ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام(٢).

وَمَعْنَى ﴿تُحَرِّمُ﴾ أي : تمنع ، فلفظ الحرام في القرآن يأتي على ثلاثة أوجه : فوجه منها : المنع كقوله -تعالى- هنا، وكقوله-تعالى-:﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[القصص:١٢] يعني منعناه عن المراضع من قبل.والوجه الثاني:التحريم، كقوله-تعالى-:﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ..﴾ [المائدة:٣] والوجه الثالث : الشرف،كقوله -تعالى-:﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[المائد:٩٧](٣).

قال الرازي : « المراد من هذا التحريم هو الامتناع عن الانتفاع بالأزواج ، لا اعتقاد كونه حراما بعد ما أحل الله -تعالى- ، فالنبي -ﷺ- امتنع عن الانتفاع معها مع اعتقاده بكونه حلالا ، ومن اعتقد أن هذا التحريم هو تحريم ما أحله الله -تعالى- بعينه ، فقد كفر

(١) المحرر الوجيز : (٣٣٠/٥) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٤٦/٢٨) .
(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٣٤٦/٢٨) .
(٣) الوجوه والنظائر : (١٩٣) .

فكيف يضاف إلى الرسول -ﷺ- مثل هذا ؟ » [١].

وقوله : ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ أي : من ملك اليمين أو شرب العسل ، أو كلاهما وقد تقدم في أسباب نزول السورة أن الراجح هو تحريمه جاريته ، وفي الإتيان بالموصول لما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم هو أن ما أحله الله لعبده ينبغي له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضر أو مرض ؛ لأن تناوله شكر لله ، واعتراف بنعمته والحاجة إليه، والمعنى : « تمتنع من الانتفاع به مع اعتقاد كونه حلالا لك ؛ لأن اعتقاد كونه حراما بعد ما أحل الله مما لا يتصور من عوام المؤمنين فكيف من الأنبياء »[٢].

ثم علل ذلك -ﷻ- بقوله : ﴿تَبْتَغِى﴾ أي : تريد إرادة عظيمة من مكارم أخلاقك وحسن صحبتك﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ ، وفي هذه الجملة عذر للنبي -ﷺ- فيما فعله من أنه أراد به خيرا، وهو جلب رضا الأزواج ؛ لأنه أعون على معاشرته ، مع الإشعار بأن مثل هذه المرضاة لا يعبأ بها ؛ لأن الغيرة نشأت عن مجرد مخالفة بعضهن بعضا ، وذلك مما يختل به حسن المعاشرة بينهن ، فأنبأه الله أن هذا الاجتهاد معارض بأن تحريم ما أحل الله له يفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه ، وأن ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمة[٣].

وفي هذه الجملة عتاب أيضا لزوجات النبي -ﷺ- حيث أنهن لم يرضهن من النبي -ﷺ- إلا أن يمنع على نفسه ما أباحه الله -تعالى- له ، مع أنه يجب عليهن أن يسعين إلى إرضاء رسول الله ، لا التضييق عليه ، وإلجاءه إلى أمر ليس فيه مرضاة الله تعالى .

قال زادة[٤] في حاشيته : « فإن ابتغاء مرضاة الأزواج من مثله -عليه الصلاة والسلام- بعيد ؛ لأنهن أحق بابتغاء مرضاته -عليه الصلاة والسلام- منه بابتغاء مرضاتهن ، فإنه -عليه

---

(١) مفاتيح الغيب : (٥٦٩/٣٠) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٣٤٦/٢٨) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٤٧/٢٨) .

(٤) هو : محمد محيي الدين بن مصطفى القوجوي ، مفسر، من فقهاء الحنفية ، كان مدرسا في إستانبول ، له (حاشية على أنوار التنزيل للبيضاوي) وهي من أعظم الحواشي فائدة وأكثرها نفعا وأسهلها عبارة ، توفي : ٩٥١ه ، الأعلام للزركلي : (٩٩/٧) .

الصلاة والسلام – متفضل بذاته ، وفضيلتهن إنما هي بالانتساب إليه »[١].

وإنما جمع الأزواج مع أن من أرضاها النبي –ﷺ– فى هذه القصة عائشة وحفصة–رضي الله عنهم–؛ إما لأن إرضاءهما فى الأمر المذكور إرضاء لكلهن ، أو لأن النساء فى طبقة واحدة فى مثل تلك الغيرة ؛ لأنهن جبلن عليها ، أو لأن الجمع قد يطلق على الاثنين ، أو للتحذير من إرضاء من تطلذب منه –ﷺ– ما لا يحسن وتلح عليه أيتهن كانت ؛ لأنه –ﷺ– كان حييا كريما[٢].

وقوله : ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ أي: كثير الغفران ، فقد غفر لك ، وستر ما فعلت من التحريم ، وقصدت من الرضى ؛ لان الامتناع من الانتفاع بإحسان المولى الكريم يشبه عدم قبول إحسانه وقوله : ﴿رَّحِيمٌ﴾ بك، حيث وسّع عليك ، و لم يرضَ لك أن تُضيق على نفسك ، و لم يؤاخذك بما فعلت من التحريم ، وإنما عاتبك محافظة على عصمتك .

ولما كان امتناع النبي –ﷺ– من تلك الأشياء التي تقدم ذكرها في سبب النزول ليمين تقدمت منه ، وهو قوله : « والله لا أقربها بعد اليوم » ، دل قوله –تعالى– : ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ على ذلك ، حيث أمر –عليه الصلاة والسلام – بتحلة يمينه .

قال الرازي : « كيف يناسب قوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ؟ نقول : يناسبه لما كان تحريم المرأة يمينا حتى إذا قال لامرأته : أنت علي حرام فهو يمين ويصير موليا بذكره من بعد ويكفِّر» [٣].

وقال أبو حيان : « الظاهر أنه كان حلف على أنه يمتنع من وطء مارية ، أو من شرب ذلك العسل، على الخلاف في السبب » [٤].

ومن تأمل في هذه الآية وسابقتها لاح له مترلة النبي –ﷺ– عند ربه[٥] ، فبعد أن حرم

(١) حاشية زادة : (٢٥٣/٨) .
(٢) روح البيان : (٤٩/١٠) .
(٣) مفاتيح الغيب : (٥٧٠/٣٠) .
(٤) البحر المحيط : (٢٠٩/١٠) .
(٥) البحر المديد : (٨١/٧) .

النبي -ﷺ- على نفسه شيئا بالحلف باليمين جاء الفرج من الله -تعالى- في هذه الآية بتذكيره بأن يحلل يمينه بما شرعه الله -تعالى- من كفارة ، وفي ذلك إشارة إلى قول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-: «يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[١] .

قال ابن عاشور في هذه الآية : « استئناف بياني بين الله به لنبيه -ﷺ- أن له سعة في التحلل مما التزم تحريمه على نفسه، وذلك فيما شرع الله من كفارة اليمين فأفتاه الله بأن يأخذ برخصته في كفارة اليمين المشروعة للأمة كلها » [٢].

قوله : ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ في افتتاح هذه الجملة بحرف التحقيق لتنزيل النبي -ﷺ- منزلة من لا يعلم أن الله فرض تحلة الأيمان بآية الكفارة بناء على أنه لم يأخذ بالرخصة تعظيما للقسم ، فأعلمه الله أن الأخذ بالكفارة لا تقصير عليه فيه ، فإن في الكفارة ما يكفي للوفاء بتعظيم اليمين بالله[٢].

وقوله : ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أصلها تحللة ، قال الراغب : قوله -عَزَّوَجَلَّ- : ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي : بين ما تنحل به عقدة أيمانكم من الكفارة[٣] .

ومعنى الآية : شرع الله لكم تحليل ايمانكم ، وبين لكم ما تنحل به عقدها من الكفارة كما في سورة المائدة من الإطعام أو الكسوة ، أو العتق ، ثم الصوم[٤] عند قوله تعالى : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ....﴾ [المائدة : ١٢٤] .

وقوله : ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ تذييل لجملة قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، وفي هذا إشارة إلى أن الله -عَزَّوَجَلَّ- إنما فرض لهم ذلك ؛ لأن المولى والولي، هو الناصر ، وهو متولي تدبير ما أضيف إليه ، وهو هنا كناية عن الرؤوف والميسر[٥].

وقوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم فيشرعه لكم ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المتقن فى أفعاله وأحكامه ، فلا يأمركم ولا ينهاكم إلا حسبما تقتضيه الحكمة[١] .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب تفسير القرآن الكريم، باب قوله تعالى: ﴿ترجي من تشاء منهن...﴾ برقم: (٤٧٨٨).
(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٣٤٧/٢٨) .
(٣) المفردات في غريب القرآن : (٢٥١) .
(٤) روح البيان ، (٤٩/١٠) .
(٥) نظم الدرر : (١٨٤/٢٠) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٤٨/٢٨) .

=

(١) روح البيان ، (٥٠/١٠) .

المطلب الرابع
التفسير الإجمالي لآيات الموضوع

في فاتحة هذه السورة يعاتب الله -ﷻ- نبيه محمدا-ﷺ-، بحسن تلطف ، وتنويه بنبوته وعلو مكانته عند ربه ، قائلا : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ أي : لأي شيء تمتنع من الانتفاع بما أحله الله لك ؟ هل تطلب وتقصد بذلك تطييب خاطر أزواجك وإرضاءهن؟ أي: لم يكن ينبغي لمقامك السامي أن تفعل ذلك ، فتشق على نفسك ، ثم بشره ربه بأنه قد غفر له امتناعه من الحلال ، وهو -ﷻ- رحيم به ، فلا يؤاخذه بذلك ، ولهذا شرع له ولأمته ما تنحل به عقدة اليمين ، وتكفر بها ، وذلك إما بالإطعام ، أو الكسوة ، أو العتق ، ثم الصوم ، وهو -ﷻ- شرع لهم ذلك لأنه متولي أمورهم ، فيسهل لهم سبل الفلاح ، وطرق السعادة، في معاشهم ومعادهم، وفي دنياهم وأخراهم ، وهو -ﷻ- ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحهم فيشرعه لهم ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير أمورهم ، فلا يأمرهم ولا ينهاهم إلا ما فيه مصلحتهم .

المطلب الخامس
مما ترشد إليه الآيات

أولا : أقوال رسول الله -ﷺ- وأفعاله وتقريراته مصدر تشريع للأمة ؛ لذا كانت المبادرة إلى تنبيه أن الامتناع عن المباح لغير مصلحة معتبرة سابقة تشريعية قد تؤدي إلى حرج للأمة فكان الأمر بالرجوع عن هذا الموقف الاجتهادي .

ثانيا : عظيم مكانة رسول الله -ﷺ- عند ربه ، ففي كل مقام هضم رسول الله -ﷺ- حظ نفسه إشفاقاً على من حوله، أو تواضعاً ، أو إيثاراً لرغبات غيره ، تولى الله -ﷻ- الدفاع عنه وعلمهم الأدب اللائق والتصرف الذي يتناسب مع مقام النبوة .

ثالثا : أن للكلمة في الإسلام وزنا ، فلا ينبغي أن تخرج من فم صاحبها إلا ويعرف مكانها في ميزان الشرع هي له أم عليه ، وباب الاستغفار والإنابة مفتوح لمن أراد الرجوع عنها ، وإن تضمنت وعداً أو التزاماً في مستقبل الأيام كانت الكفارة والتحلل ، كل ذلك يرفع من شفافية الكلمة عند المؤمن ، يقول رسول الله -ﷺ- : « من حلف على يمين ، فرأى غيرها خيرا منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه »[1] .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الأيمان ، باب ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها ، برقم : (١٦٥٠) .

المبحث الثاني

التربية في حفظ الأسرار الزوجية

ويشمل الآيات (٣-٥) ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع.

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

التربية في حفظ الأسرار الزوجية

قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

المطلب الأول
ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة

بعد التأمل والتدبر في آيات هذا الموضوع ، نلحظ ارتباط هذا الموضوع بالمحور الأساس للسورة وهو (التربية الزوجية) ، وذلك بعرض نموذج من نماذج التربية الزوجية ، وهو (التربية في حفظ الأسرار الزوجية) ، وهو موضوع خطيرٌ جداً قد يكون بسببه هدم البيوت الزوجية ، وحصول الشقاق والشحناء والبغضاء بين الأزواج ، فالأسرار التي بين الزوجين يجب أن لا يطلع عليها أحد حتى الأقارب والزوجات الأخر ، وذلك لتدوم المحبة والألفة بينهما ، ونرى في آيات هذا الموضوع كيف وصل الأمر باللتين أفشتا سر النبي -ﷺ- وتظاهرتا عليه ، إلى حد أن تهددهما الله تعالى إن لم يتوبا عن ذلك ، إما بالعذاب في الدنيا والآخرة ، وإما على أقل تقدير بالطلاق الذي تخشاه معظم النساء ، وإبدال الله -ﷻ- لنبيه -ﷺ- من هن خيراً منهن من الزوجات .

المطلب الثاني
التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد التدبر والنظر في هذه الآيات الكريمة ، وما قبلها من بداية السورة الكريمة ، تبين لي أنه بعد ذلك العتاب الموجه إلى النبي -ﷺ- الذي هو القدوة للأزواج المؤمنين والذي تحدثت عنه الآيتين السابقتين ، جاء الحديث هنا عن تربية زوجات النبي -ﷺ- اللاتي هن القدوة للزوجات المؤمنات في قضية مهمة وخطيرة وهي أهمية (حفظ الأسرار الزوجية)، نظرا لما يتمتع به بيت النبي-ﷺ- من خصوصيات كثيرة، فكان من كريم معاشرة النبي -ﷺ- لأزواجه وحسن أخلاقه معهن أنه كان يأتمنهن على أسراره الخاصة ، تطييبا لخاطرهن ، وكسبا لودهن، وابتغاء لمرضاتهن، فكان كما ثبت عنه -ﷺ- أنه قال : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى»[1] .

يقول الشوكاني في شرح هذا الحديث : « في ذلك تنبيه على أعلى الناس رتبة في الخير وأحقهم بالاتصاف به هو من كان خير الناس لأهله ؛ فإن الأهل هم الأحق بالبِشر وحسن الخلق والإحسان ، وجلب النفع ودفع الضر ، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس ، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر ، وكثيراً ما يقع الناس في هذه الورطة فترى الرجل إذا لقي أهله كان أسوأ الناس أخلاقاً وأشحهم نفساً ، وأقلهم خيراً ، وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكته وانبسطت أخلاقه وجادت نفسه وكثر خيره ، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق، زائغ عن سواء الطريق، نسأل الله

(١) أخرجه الترمذي ، في أبواب المناقب ، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم برقم : (٣٨٩٥) ، وقال: هذا حديث حسن صحيح ، وعلق عليه الألباني : صحيح .

السلامة»[1].

قال البقاعي ذاكرا المناسبة بين الموضوعين : « ولما كانت العادة فيمن رأى حبيبه قد ضاق صدره أن يسعى أولا في شرح صدره وطيب نفسه ، ثم يزيده بسطا بأن يقول للحاضرين : إن حبيبنا هذا الكريم علينا اتفق له كذا ، وقد كرهت هذا وضمنت زواله ، وكان تعالى قد طيب نفسه -ﷺ- بأول السورة ، ثم أتبعه الأمر الآخر، فكان التقدير: اذكروا هذا الذي ذكرته من حسن عشرة نبيكم -ﷺ- لنسائه -رضي الله تعالى عنهن- وكريم صحبته وشريف أخلاقه وجميل أفضاله وجليل حلمه ، واذكروا ما خفف الله به عنكم في الأيمان التي لا مثنوية فيها واذكروا فيها اسمه المقدس، عطف عليه قوله تعالى تشريفاً لنبيه -ﷺ- بالمعاتبة عليه وبإظهار ما هو حامل له من ثقل هذا السر على أجمل وجه تخفيفاً عنه وترويحاً له ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾» [2].

وأيضا فإن في إحدى الروايتين في تحريم النبي -ﷺ- على نفسه جاريته مارية يقول -ﷺ- لزوجته حفصة : « لا تخبري أحدا» ، فأخبرت عائشة —رضي الله عنها- ، فكان موضوع هذه الآيات امتدادا للموضوع السابق ، ولهذا يقول ابن عاشور : « هذا تذكير وموعظة بما جرى في خلال تينك الحادثتين ثني إليه عنان الكلام بعد أن قضي ما يهم من التشريع للنبي -ﷺ- بما حرم على نفسه من جرائهما ، وهو معطوف على جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ بتقدير واذكر، وقد أعيد ما دلت عليه الآية السابقة ضمنا بما تضمنته هذه الآية

(١) نيل الأوطار : (٦/٢٤٥-٢٤٦) .

(٢) نظم الدرر : (٢٠/١٨٥) .

بأسلوب آخر ليبن عليه ما فيه من عبر ومواعظ وأدب، ومكارم وتنبيه وتحذير » [1].

(١) انظر : التحرير والتنوير : (٣٥٠/٢٨) .

المطلب الثالث
التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع

لما ختم الله -ﷻ-آيات الموضوع السابق بذكر علمه الشامل، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ذكر في بداية آيات هذا الموضوع ما هو كالدليل على شمول علمه[1] ، وذلك بذكر ما كان بين نبيه محمد -ﷺ- وإحدى زوجاته من حديث أسر به ، وما قامت به من إفشائه إلى أخرى .

ولما كان من عادة القرآن الكريم التركيز على جوانب معينة من الأحداث مما له شأن في التوجيه والتربية نجد في هذه الآية أنه أهمل ذكر الشيء الذي أسره إلى بعض أزواجه في آيات هذا الموضوع ، كما أهمل ذكر ما حرمه الرسول -ﷺ- على نفسه في آيات الموضوع السابق ، ولهذا لم تتحدث الآيات عن الجانب الذي عرَّف به ، والجانب الذي أعرض عنه ، وإنما كان التركيز على قضية هي من الأهمية بمكان ألا وهو حفظ الأسرار الزوجية ، وأن الله أطلع رسوله على إفشاء بعض أسراره ، فكشفه جوانب منها ، وترك جوانب أخرى ، ولم يستقص ترفقا وتكريما وإبقاءا.

قال الزمخشري[2] : « ليس الغرض بيان ما المذاع إليه وما المعرف ، وإنما هو ذكر جناية حفصة في وجود الإنباء به وإفشائه من قبلها ، وأن رسول الله -ﷺ- بكرمه وحلمه، لم يوجد منه إلا الإعلام ببعضه »[3].

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَسَرَّ﴾ الواو هنا عاطفة قصة على قصة ؛ لأن قصة إفشاء حفصة السر غير قصة تحريم النبي -ﷺ- على نفسه بعض ما أحل له[4] ، وقد تقدم بيان أسباب نزولها .

وقوله : ﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ ذكرت في أسباب نزول السورة أن التي أسر إليها النبي -

---

(١) تفسير المراغي : (٢٨/ ١٥٧) .

(٢) هو: أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الخوارزمي، علامة نسابة، برع في الآداب، وصنف التصانيف، كان داعية إلى الإعتزال ، له الكشاف ، وأساس البلاغة ، وغيرهما ، مات ٥٣٨ه ، سير أعلام النبلاء : (١٥٥/٢٠).

(٣) الكشاف : (٤/ ٥٦٦) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : (٣٥١/٢٨) .

ﷺ- الحديث هي حفصة ، وبينت هناك أن هذا هو قول أغلب أهل العلم[١] .

وقوله : ﴿حَدِيثًا﴾ اختلف علماء التفسير في الحديث الذي أسر به النبي -ﷺ- لبعض أزواجه، وذكرت الراجح في أسباب نزول السورة [٢].

وقوله : ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي : أخبرت حفصةُ عائشةَ بهذا السر لمصافاة كانت بينهما ، وأنهما كانتا حزبا واحدا ، كما مر بيانه في أسباب النزول .

وقوله : ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي : أطلعه الله -تعالى- على نبيه محمد -ﷺ- أنها قد أفشت السر، وأنبأت عائشة به [٣].

وقوله : ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي : عرّف النبيّ -ﷺ- حفصة ، بعضا مما أطلعه الله عليه ، من حديثها عائشة ، وترك أن يخبرها ببعض[٤] .

قوله : ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي : لما أخبر حفصة بما أظهره الله عليه ، ظنت حفصة أن عائشة فضتحها ، فسألت النبي -ﷺ- على جهة التثبت : ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ ؟ وفيه تعجب واستبعاد من إخبار عائشة بذلك ؛ لأنها أوصتها بالكتم ؛ ولأنها من حزبها، فلما أخبرها أن الله-تعالى - أخبره ، سكتت وسلمت[٥] .

قوله : ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي : خبرني به العليم بسرائر عباده ، وضمائر قلوبهم ، الخبير بأمورهم ، الذي لا يخفى عنه شيء .

قال الرازي : « وصفه بكونه خبيرا بعد ما وصفه بكونه عليما لما أن في الخبير من المبالغة ما ليس في العليم » [٦]. فالخبير يشمل بواطن الأمور وسرائرها.

ثم إنه -ﷻ- لما ذكر أن بعض أزواج رسول الله أفشت سره -ﷺ- ، ونبأت به

---

(١) في صفحة : (٧٧-٨٢) .

(٢) في صفحة (٨٢) .

(٣) جامع أحكام القرآن : (١٨٧/١٨) .

(٤) جامع البيان : (٤٨٢/٢٣) .

(٥) جامع أحكام القرآن : (١٨٨/١٨) .

(٦) مفاتيح الغيب : (٥٧٠/٣٠) .

صاحبتها خاطب هاتين الزوجتين على سبيل الالتفات معاتبا وموجبا عليهما التوبة[١]، فقال تعالى : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

وقوله : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطاب لحفصة وعائشة –رضي الله عنهم- على طريقة الالتفات ؛ ليكون أبلغ في معاتبتهما ، والتوبة من التعاون والتظاهر على رسول الله –ﷺ- بالإيذاء [٢].

وقوله:﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾أي: عدلت ومالت عن الحق[٣]،والمعنى: فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب في حب ما يحبه الرسول-ﷺ- وكراهية ما يكرهه[٤].

وقوله : ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ جمع القلوب مع أن الشخصين لا يكون لهما أكثر من قلبين لبعد الالتباس وللاحتراز عن الجمع بين تثنيتين في لفظ واحد [٥].

وقوله : ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بإسقاط إحدى التاءين وهو تفاعل من الظهر ، وإنما ذكر فعل الظهر ؛ لأنه أقوى الأعضاء ، والمعنى : وإن تتعاونا على النبي –ﷺ- بما يسوؤه من الافراط فى الغيرة ، وإفشاء سره وكانت كل منكما ظهرا لصاحبتها فيه .

وقوله : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ زيادة ﴿هُوَ﴾ هنا إيذان بأن نصرته عزيمة من عزائمه، وأنه يتولى ذلك بذاته ، والمعنى : أنه لن يضره ذلك التظاهر منكما [٦].

وقوله : ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ في ذكر جبريل باسمه مفردا من بين سائر الملائكة ، وقرن ذكره بجوار اسم الله –تعالى- ، تنويه بشأنه ، وتعظيم له ، وإظهار لمكانته عند ربه [٧].

وقوله : ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو واحد أريد به الجمع ، ويجوز أن يكون أصله: صالحو

---

(١) حاشية زادة : (٢٥٧/٨) .
(٢) مفاتيح الغيب : (٥٧٠/٣٠) .
(٣) المفردات في غريب القرآن : (٤٨٦) .
(٤) الكشاف : (٥٦٦/٤) .
(٥) حاشية زادة : (٢٥٨/٨) .
(٦) مفاتيح الغيب : (٥٧٠/٣٠) بتصرف.
(٧) الكشاف : (٥٦٦/٤) .

المؤمنين بالواو، فكتب بغير واو على اللفظ ؛ لأنّ لفظ الواحد والجمع واحد فيه، ، وفي هذه الجملة تنويه بشأن المؤمنين الصالحين ، وفيه تعريض للمتظاهرتين [١].

وقوله : ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في ذكر الملائكة هنا بعد ذكر تأييد الله وجبريل وصالح المؤمنين فائدة وهي : أن المذكورين قبلهم آثار تأييدهم ظاهرة بوحي الله للنبي -ﷺ- بواسطة جبريل ونصره إياه بواسطة المؤمنين ، فنبه الله المرأتين على تأييد آخر غير ظاهرة آثاره وهو تأييد الملائكة بالنصر في يوم بدر ، وغير النصر من الاستغفار في السماوات [٢].

وقوله : ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ في هذه الجملة تعظيم لمظاهرة الملائكة ، فإن المراد بالبعدية البعدية بحسب الرتبة، ولا شك أن مظاهرة الملائكة أعظم من نصرة سائر ما يكون واسطة في نصرة الله تعالى إياه -ﷺ- ؛ لأنه-تعالى- مكن الملائكة على ما لم يمكن الإنسان عليه[٣].

قال ابن عاشور : « والمقصود منه تعظيم هذا النصر بوفرة الناصرين تنويها بمحبة أهل السماء للنبي -ﷺ- وحسن ذكره بينهم فإن ذلك مما يزيد نصر الله إياه شأنا»[٤].

ثم إنه -تعالى- لما عاتبهما شرع في تخويفهما بأن ذكر لهما أنه -عليه الصلاة والسلام- يحتمل أن يطلقكما[٥]، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾.

وقد ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية ما جاء عن أنس-رضي الله عنه-، قال: قال عمر-رضي الله عنه- : « وافقت الله في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال: وبلغني معاتبةُ النبيِّ بعضَ نسائه، فدخلت عليهن، قلت: إن انتهيتُن أو لَيُبدِّلنَّ اللَّه رسوله -ﷺ- خيراً منكن، حتى أتيتُ إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله -ﷺ- ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ

---

(١) الكشاف : (٥٦٦/٤) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٥٩/٢٨).

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٣٥٩/٢٨).

(٣) حاشية زادة : (٢٥٩/٨) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : (٣٥٨/٢٨).

(٥) حاشية زادة : (٢٥٩/٨) .

﴿إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ ...﴾ (١).

وعند النظر في تناسق هذا الموضوع مع الموضوع السابق ، وسياق الآيات السابقة نجد أنها من أول السورة تتحدث عن تحريم النبي -ﷺ- للجارية إلى قوله تعالى : ﴿ظَهِيرٌ﴾ ، ثم قال : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ وهذا يشير إلى تعلق الآية بالسياق السابق ، وأن اللَّه لما توعد المرأتين على فعلهما حذر سائر النساء بهذه الآية أن الله سيبدل رسوله نساءً خيرًا منهن ، ولعل الجمع بين حديث عمر-رضي الله عنه- ، وسياق الآيات هو أن يقال: إنه لما وقعت قضية التظاهر على رسول اللَّه-ﷺ-في شأن الجارية ، غضب عمر-رضي الله عنه- لرسول الله-ﷺ-فهدد نساءه قائلا : إن انتهيتن أو ليبدلن اللَّه رسوله خيرًا منكن ، أو : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ، فنزلت الآية تهديدًا للمتظاهرتين، وتحذيرًا لسائر نسائه أن يفعلن مثلهما، وموافقة لعمر رضي الله عنه (٢).

ولهذا قال ابن عاشور : « كلام مستأنف عدل به إلى تذكير جميع أزواجه بالحذر من أن يضيق صدره عن تحمل أمثال هذا الصنيع فيفارقهن لتقلع المتلبسة ، وتحذر غيرها من مثل فعلها، فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا عقبت بها جملة ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ التي أفادت التحذير من عقاب في الآخرة إن لم يتوبا مما جرى منهما في شأن رسول الله-ﷺ-، أفاد هذا الإيماء إلى التحذير من عقوبة دنيوية لهن يأمر الله فيها نبيه-ﷺ- وهي عقوبة الطلاق عليه ما يحصل من المؤاخذة في الآخرة إن لم يتوبا ، ولذلك فصلت عن التي قبلها لاختلاف الغرضين» (٣).

وقوله : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾ كل عسى في القرآن واجب إلا هذا ؛ لأن الله -عز وجل- علقه بشرط وهو التطليق و لم يطلقهن (٤).

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ برقم : (٤٢١٣) ، وكتاب التفسير ، باب قوله : ﴿عسى ربه إن طلقهن﴾ برقم : (٤٦٣٢) ، وأحمد في مسنده (١/٢٩٧-٢٩٩) ، برقم : (١٥٧) و (١٦٠) ، والنسائي ، كتاب التفسير ، قوله: ﴿عسى ربه إن طلقكن﴾ برقم : (١١٦١١) .

(٢) المحرر في أسباب النزول : (١٠٣٩-١٠٤١) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٢٨/٣٦٠) ، بتصرف .

(٤) الجامع لأحكام القرآن : (١٨/١٩٣).

وقوله : ﴿ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ في هذه الجملة تذكير لزوجات النبي -ﷺ- بأنهن ما اكتسبن التفضيل على النساء إلا من فضل زوجهن عند الله .

قال الزمخشري : « فإن قلت : كيف تكون المبدلات خيرا منهن، ولم تكن على وجه الأرض نساء خير من أمّهات المؤمنين؟ قلت : إذا طلقهن رسول الله لعصيانهن له وإيذائهن إياه، لم يبقين على تلك الصفة »[١] .

قلت : فيدل هذا – عدم حصول الطلاق- على أنه ليس ثمت من هن خير منهن ، -رضوان الله عليهن جميعا- .

وقال ابن عاشور : « وإجراء الأوصاف المفصلة بعد الوصف المجمل وهو ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ للتنبيه على أن أصول التفضيل موجودة فيهن ، فيكمل اللائي يتزوجهن النبي -ﷺ- فضل على بقية النساء بأنهن صرن أزواجا للنبي -ﷺ- »[٢].

قوله : ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ ، أي : متصفات بالإسلام ، أو مسلمات لأمر الله -تعالى- وأمر رسوله. ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدقات بقلوبهن أو مصدقات بما أمرن به ونهين عنه[٣]. قال الرازي : « قوله : ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ يوهم التكرار ، والمسلمات والمؤمنات على السواء »[٤].

ومعلوم أن الإسلام والإيمان إن اجتمعا لفظا افترقا معنى ، وإن افترقا لفظا اجتمعا معنى .

وقوله : ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ أي : القائمات بالطاعة أحسن قيام ، قال الرازي : « وقيل : قائمات بالليل للصلاة ، وهذا أشبه ؛ لأنه ذكر السائحات بعد هذا ، والسائحات الصائمات ، فلزم أن يكون قيام الليل مع صيام النهار»[٥].

وقال ابن عاشور : «وفي هذا الوصف إشعار بأنهن مطيعات لله ورسوله ، ففيه تعريض لما وقع من تقصير إحداهن في ذلك فعاتبها الله وأيقظها للتوبة »[٦].

---

(١) الكشاف : (٥٦٧/٤)

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٠/٢٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن : (١٩٣/١٨) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٦٠/٢٨).

(٤) مفاتيح الغيب : (٥٧١/٣٠) .

(٥) مفاتيح الغيب : (٥٧١/٣٠) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٦٠/٢٨).

(٦) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٠/٢٨).

وقوله : ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أي : مقلعات عن الذنب إذا وقعن فيه ، أو راجعات إلى أمر رسول الله -ﷺ- تاركات لمحاب أنفسهن ، وفيه تعريض بإعادة التحريض على التوبة من ذنبهما التي أمرتا بها بقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

وقوله : ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ ، أي : المقبلات على عبادة الله أو كثيرات العبادة لله -تعالى-[2]، وهذه الصفات تفيد الإشارة إلى فضل المتصفين بها .

وقوله : ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ ، أي : المهاجرات ، وإنما ذكر هذا الوصف لتنبيههن على أنهن إن كن يمتَنّ بالهجرة فإن المهاجرات غيرهن كثير، والمهاجرات أفضل من غيرهن[3].

قال الرازي : « وقيل للصائم : سائح ؛ لأن السائح لا زاد معه ، فلا يزال ممسكا إلى أن يجد من يطعمه فشبه بالصائم الذي يمسك إلى أن يجيء وقت إفطاره »[4].

وإنما لم تعطف هذه الصفات بعضها على بعض بالواو، لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن ، ولو عطفت بالواو لاحتمل أن تكون الواو للتقسيم ، أي : تقسيم الأزواج إلى من يثبت لهن بعض تلك الصفات دون بعض، إلا أنه لما أريد إفادة ثبوت إحدى صفتين عطف بالواو بقوله : ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ لأن الثيبات لا يوصفن بأبكار ، والأبكار لا يوصفن بالثيبات .

قال الزمخشري : « فإن قلت: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسط بين الثيبات والأبكار ؟ قلت : لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن في إحداهن اجتماعهن في سائر الصفات، فلم يكن بد من الواو »[5] .

وقال الرازي : « ذكر الثيبات في مقام المدح وهي من جملة ما يقلل رغبة الرجال إليهن ، نقول: يمكن أن يكون البعض من الثيب خيرا بالنسبة إلى البعض من الأبكار عند الرسول-

(١) الجامع لأحكام القرآن : (١٩٣/١٨) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٦٠/٢٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن : (١٩٣/١٨) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٦٠/٢٨).
(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٠/٢٨).
(٤) مفاتيح الغيب : (٥٧١/٣٠) .
(٥) الكشاف: (٥٦٧/٤-٥٦٨) ، بتصرف .

ﷺ-؛ لاختصاصهن بالمال والجمال ، أو النسب ، أو المجموع مثلا ، وإذا كان كذلك فلا يقدح ذكر الثيب في المدح ، لجواز أن يكون المراد مثل ما ذكرناه من الثيب »[1].

وقال ابن عاشور : « ووجه هذا التفصيل (الثيبات والأبكار) في الزوجات المقدرات ؛ لأن لكلتا الصفتين محاسنها عند الرجال ، فالثيب أرعى لواجبات الزوج ، وأميل مع أهوائه ، وأقوم على بيته ، وأحسن لعابا، وأبهى زينة ، وأحلى غنجا ، والبكر أشد حياء ، وأكثر غرارة ودلا ، وفي ذلك مجلبة للنفس، والبكر لا تعرف رجلا قبل زوجها ، ففي نفوس الرجال خلق من التنافس في المرأة التي لم يسبق إليها غيرهم ، فما اعتزت واحدة من أزواج النبي -ﷺ- بمزية إلا وقد أنبأها الله بأن سيبدله خيرا منها في تلك المزية أيضا ، وفي تقديم وصف ثيبات ؛ لأن أكثر أزواج النبي -ﷺ- لما تزوجهن كن ثيبات، ولعله إشارة إلى أن الملام الأشد موجه إلى حفصة قبل عائشة ، وكانت حفصة ممن تزوجهن ثيبات ، وعائشة هي التي تزوجها بكرا »[2].

(١) مفاتيح الغيب : (٣٠/٥٧١-٥٧٢) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٢٨/٣٦٠).

المطلب الرابع
التفسير الإجمالي لآيات الموضوع

يقول الله -تعالى- لنبيه محمد -ﷺ- : واذكر حين أسر النبي -ﷺ- إلى بعض أزواجه وهي حفصة -رضي الله عنها- بحديث ، فأفشت ما استكتمها من ذلك الحديث إلى عائشة -رضي الله عنها- ، وأطلعه الله -تعالى- على ما قامت به حفصة من إفشاء سره، فأخبرها بذلك ، فظنت ان عائشة فضحتها، فسألت النبي -ﷺ- من أخبره بهذا ، فقال النبي -ﷺ- : أخبرني ربي العليم بالسر والنجوى ، الخبير بما في الأرض والسماء الذي لا يخفى عليه شيء فيهما .

ثم وجه -ﷻ- الخطاب إلى حفصة وعائشة -رضي الله عنهم-مبالغة في العتب ، قائلا : إن تتوبا إلى الله من ذنبكما ، فقد وجد منكما ما يوجب التوبة ؛ لأنه قد صغت قلوبكما ومالت وعدلت عما يجب عليكما من محبة ما يحبه الرسول -ﷺ- ، وإن تتعاونا على العمل بما يؤذيه ويسوؤه ، من الإفراط في الغيرة ، وإفشاء سره ، فلن يضره ذلك شيئا ، فإن الله هو ناصره في أمر دينه ، وسائر شؤون حياته ، على كل من يتصدى لما يكرهه ، وأن جبريل والمؤمنين الصالحين ، وسائر ملائكة الرحمن مظاهرون له ومعينون .

ثم شرع -ﷻ- في تخويفهما وتهديدهما مع بقية أزواجه ، وذكر لهن أنه -ﷺ- يحتمل أن يطلقكن ، فإن حصل ذلك فإن ضرره لا يعود إلا إليكن ؛ فإنه -ﷻ- يبدله أزواجا خيرا منكن ، ثم ذكر صفات الأزواج اللائي هن خيرا منهن إسلاما وإيمانا ، ومواظبة على الطاعة ، وإقلاعا عن الذنوب ، وكثرة في العبادة ، وخضوعا لأوامر النبي -ﷺ- ، سواء كن ثيبات أو أبكارا .

المطلب الخامس
مما ترشد إليه الآيات

أولا: قوام الحياة الزوجية على الثقة المتبادلة بين الزوجين، ومما يدعم هذه الثقة ويوطد أركانها كتمان أحدهما لسر الآخر وعدم إفشائه ، وعند وقوع ما يخدشها فالعتاب الرقيق والمحاسبة الجزئية على بعض المآخذ، كفيل بإعادة المياه إلى مجاريها ويجتنب الاستقصاء والإلحاف في المساءلة والمعاقبة (فما استقصى كريم قط).

ثانيا : الطلاق شديد الوقع على نفوس أهل البيت جميعاً، ولكن الطرف الأكبر ضرراً وتأثراً هو المرأة ، فهي ترى في الطلاق هدما لعش الزوجية الدافئ، وتدميرا لمملكتها وعرشها الذي تتربع عليه ، وقطعا لوشائج المودة التي نسجت خيوطها من عواطفها ومشاعرها ، ومما يضاعف التأثر والإزعاج لها إذا علمت أن أخرى ستحل محلها ، وتكون خيراً منها وأقرب إلى قلب زوجها .

ثالثا : تكريم أمهات المؤمنين باستخدام ألطف العبارات وأخفها عند تهديدهن بالطلاق والاستبدال حيث جاء التعبير بـــ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾ ، ودلالة عسى تفيد الترجي غالبا ، وعلقه بشرط – إن طلقكن – واستخدم في الشرط حرف –إن– وهو يفيد التشكيك بخلاف–إذا – التي تفيد تحقق الوقوع ، ومع هذا كله لم يحصل الطلاق لعظيم فضلهن .

رابعا : خير الأزواج ما توفر فيهن الصفات المذكورة في الآية الكريمة ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾. فعندما هددت أمهات المؤمنين بالاستبدال بخير منهن ، جاء تفصيل الخيرية في الصفات الست التي ذكرت في الآية وكلها صفات تدل على المستوى الإيماني الرفيع والأخلاق النبيلة وإيثار الآخرة على الفانية وكأنها تفصيل لما رغب فيه رسول الله –ﷺ–: « فاظفر بذات الدين تربت يداك » [1].

(١) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح ، برقم : (٤٨٠٢) ، ومسلم ، كتاب الرضاع ، برقم : (١٤٦٦) .

المبحث الثالث

التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع

ويشمل الآيات (٦-٩) ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع.

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع

قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾ .

المطلب الأول
ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة

بعد التأمل والتدبر في آيات هذا الموضوع ، نلحظ ارتباطها بالمحور الأساس للسورة وهو (التربية الزوجية) ، وذلك بعرض نموذج من نماذج التربية الزوجية ، وهو التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع ، وإنقاذهم من النيران التي أعدها الله للكفار ، وحثهم على التوبة النصوح المكفرة للذنوب، والجالبة لرضى الله ، والمبعدة عن خزي الدنيا والآخرة، وذلك إن حصل منهم خلل في تلك التربية ، ثم ختم الله -ﷻ- بأمر النبي -ﷺ- بالتربية الوقائية لعموم المجتمع المسلم من الداخل والخارج ، ففى الداخل نجد المنافقين الذين لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم فهؤلاء يجب تربيتهم ومجاهدتهم باللسان والبيان ، وفضح مكائدهم ومؤامراتهم ليسلم المجتمع الداخلي من شرهم ، وهناك في الخارج الكفار الذي لا يرغبون بامتداد الدين الإسلامي ويضعون العراقيل والحواجز لمنع الناس من الدخول في الإسلام ، فهؤلاء تربيتهم ومجاهدتهم باللسان والسنان .

قال ابن عاشور : « فهذا نداء ثان للنبي -ﷺ- يأمره بإقامة صلاح عموم الأمة بتطهيرها من الخبثاء بعد أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيء من واجب حسن المعاشرة مع الزوج»[1].

والذي يظهر للمتأمل أن هناك تناسقا محوريا واضحا في ختم آيات هذا الموضوع بالتربية الوقائية للمجتمع من المنافقين والكفار حيث إن المجتمع الأسري وهو المجتمع المصغر الذي تناولته مواضيع السورة الكريمة يتأثر تأثرا مباشرا وغير مباشر بالمجتمع الأكبر ، فبصلاح المجتمع الأكبر يصلح المجتمع الأصغر ، ولهذا كان مناسبا أن يؤمر النبي -ﷺ- في هذه السورة -المسوقة في التربية الزوجية- بالجهاد باعتباره ولي أمور المسلمين،حتى﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ؛ لأن الغرض والمقصد الأكبر من فرض الجهاد هو إدخال الناس في دين الله تعالى الذي هو طريق الجنة ، وإبعاد الناس ووقايتهم من دخول النار، وكأن الله -ﷻ- عندما أمر بوقاية النفس والأهل من النار ، أراد أن يبين للنبي-ﷺ- والمؤمنين بأن هناك أناسا يحتاجون أيضا إلى الوقاية من النار وهم الكفار

(١) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٢/٢٨).

والمنافقون ، فعليهم إنقاذهم من النار بالجهاد المناسب لكل منهم ، حسب ما يراه ولي أمر المسلمين من أنواع الجهاد .

المطلب الثاني
التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد التأمل والتفكر فيما سبق بيانه من تناسق المحور العام والموضوع الكلي للسورة وهو (التربية الزوجية) مع هذا الموضوع ، تبين لي أيضا أن هذا الموضوع متناسق موضوعيا مع الموضوع السابق ، وذلك أنه -ﷻ- لما أدب في آيات الموضوع السابق نساء النبي -ﷺ- ، وتوعد المتظاهرتين إن لم يتوبا عما وقعتا فيه ، وتهدد جميع الزوجات بالطلاق، أتت آيات هذا الموضوع لتأمر المؤمنين بالتربية الوقائية لأنفسهم وأهليهم ومجتمعهم ، وتحذرهم من الوقوع في غضب الله وعذابه ، وتحميهم من الانحراف والضياع ، وأن أي إخلال في المسؤولية والرعاية والوقاية فهو من عمل الكفار الذين سيجزون ما كانوا يعملون ، فيجب عليهم التوبة منها توبة نصوحا ، كبداية طريق للسير في الوقاية من النار[١] ، ونيل رضوان الله -تعالى- ، ودخول الجنات التي أعدها -ﷻ- لعباده المؤمنين .

قال أبو حيان : « لما وعظ أزواج الرسول -ﷺ- موعظة خاصة، أتبع ذلك بموعظة عامة للمؤمنين وأهليهم، وعطف وأهليكم على أنفسكم ؛ لأن رب المترل راع وهو مسؤول عن أهله»[٢].

وقال ابن عاشور : « كانت موعظة نساء النبي -ﷺ- مناسبة لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم وأن لا يصدهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم، وإن كان في ذلك بعض الأذى ، وهذا نداء ثان موجه إلى المؤمنين بعد استيفاء المقصود من النداء الأول نداء النبي -ﷺ- بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ ، ووجه الخطاب إلى المؤمنين ليأتسوا بالنبي -ﷺ- في موعظة أهليهم » [٣].

قال سعيد حوى : « بعد أن عاتب الله -ﷻ- رسوله -ﷺ- ذلك العتاب ، وعاتب

---

(١) الأساس في تفسير القرآن : (١٠/ ٦٠٠٤) .

(٢) البحر المحيط : (٢١٢/١٠) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٥/٢٨) .

زوجتيه ذلك العتاب ، وعرف كل مؤمن أن الأمر جد ، والحساب دقيق ، جاء النداء آمرا كل مؤمن بوقاية نفسه وأهله من عذاب الله »[١] .

وقال الفراهي : « فبعد هذا التمهيد خاطب المؤمنين كافة بالتحذير الشديد لأنفسهم وأهليهم أسوة بالنبي-ﷺ- ، ثم سلاهم بأن الله يحذركم ؛ ليكفر عنكم سيآتكم، ويجمع بينكم، فعليكم أن تشمروا له ، وبشر بأن الله قد قضى أن يكرم نبيه يوم القيامة بكرامة أهل بيته المطهرة وأصحابه الكرام البررة ، وكان أكبر ذلك تطهير أهل بيته ، فشدد عليهم ، ولو عاملهم بالمداهنة يوشك أن يفرقوا عن النبي -ﷺ-، فكان فضل الله على النبي -ﷺ- بأن بشره بنفي الخزي عنه ، وعن خاصته وبطانته ، وبهذه البشارة علمهم بأنه -تعالى- لم يرد من التشديد عليهم حرجا ، بل تطهيرهم وإتمام نعمته عليهم ، ثم وسع ذمة النبي -ﷺ- باحتساب نبوي -مجاهدة بالكفار والمنافقين- ، وأمره بالغلظة قبل لقائهم بملائكة غلاظ شداد »[٢].

(١) الأساس في تفسير القرآن : (٨/٦٠٠٣-٦٠٠٤) .

(٢) نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان : (١٨٢-١٨٣) .

المطلب الثالث

التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع

لما عاتب الله نساء النبي -ﷺ- ، ودلهن على رشدهن ، والتوبة مما وقعن فيه من التظاهر على النبي -ﷺ-، أمر الله المؤمنين جميعا في بداية آيات هذا الموضوع بطاعته والانتهاء عما نهاهم عنه ، وبأن يأمروا أزواجهم وأولادهم بذلك ، ويعلموهم الخير[1] ، فإن في ذلك وقايتهم من النار ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾.

وقوله تعالى : ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ عبر بالتحذير والوقاية من النار على سبيل المجاز، لأن المراد منها تجنب ما يفضي إلى عذاب النار ، وحملهم على طاعته ، وإلزامهم أداء ما فرض عليهم ، وعطف وأهليكم على أنفسكم ؛ لأن رب المترل راع وهو مسؤول عن أهله[2].

وقوله : ﴿نَارٗا﴾ تنكير النار هنا للتعظيم ، وإنما أجري عليها وصف جملة ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ زيادة في التحذير لئلا يكونوا من وقود النار. وتذكيرا بحال المشركين الذي في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ...﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨] . وتفظيعا للنار إذ يكون الحجر عوضا لها عن الحطب[3].

وقوله : ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ هذه الجملة زيادة في تهويل النار ، ووصف خزنتها الزبانية ، قال ابن كثير : « قوله: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ﴾ أي: طباعهم غليظة، قد نزعت من

(١) حاشية زادة على البيضاوي : (٢٦٠/٨) .

(٢) البحر المحيط : (٢١٢/١٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٦/٢٨) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٦/٢٨) .

قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿شِدَادٌ﴾ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج»[١].

وقوله : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ هذه الجملة ثناء عليهم أعقب به وصفهم بأنهم غلاظ شداد تعديلا لما تقتضيانه من كراهية نفوس الناس إياهم ، وهذا مؤذن بأنهم مأمورون بالغلظة والشدة في تعذيب أهل النار[٢] .

وقوله : ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ في هذه الجملة تصريح بمفهوم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ دعا إليه مقام الإطناب في الثناء عليهم ، مع ما في هذا التصريح من استحضار الصورة البديعة في امتثالهم لما يؤمرون به ، وقد عطف هذا التأكيد عطفا يقتضي المغايرة تنويها بهذه الفضيلة ؛ لأن فعل المأمور أوضح في الطاعة من عدم العصيان ، واعتبار لمغايرة المعنيين [٣].

ثم يأتي بعد خطاب الله -تعالى- للمؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم تلك النار الهائلة المذهلة، مناداة الكفار ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ وفي ذلك بيان واضح إلى أن تلك النار مهيئة للكفار ، وفيها إشارة واضحة أيضا إلى أن التفريط تجاه التربية الزوجية هو من أعمال الكافرين فهم سيجزون في الآخرة على ما فرطوا في حق من استرعاهم الله وكلفهم بالقوامة عليهم .

وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ هو من قول الملائكة الذين على النار ، يقال لهم ذلك عند دخولهم النار، والنهي عن الاعتذار ؛ لأنه لا عذر لهم أو العذر لا ينفعهم[٤]، وذكر هذه المقالة هنا استطراد يفيد التنفير من جهنم بأنها دار أهل الكفر ، وتحذير للمؤمنين من الموبقات في النار [٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم : (١٦٨/٨) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٦/٢٨) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٦/٢٨) .

(٤) انظر : البحر المحيط : (٢١٣/١٠) ، وحاشية زادة : (٢٦١/٨) .

(٥) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٦/٢٨) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أفادت هذه الجملة قصر الجزاء على مماثلة العمل المجزى عليه ، وهو قصر قلب لتنزيلهم منزلة من اعتذر ، وطلب أن يكون جزاؤه أهون مما شاهده(١).

ولما أمر الله -تعالى- المؤمنين بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يزج بهم في عذاب النار ، وأعلمهم بأن تلك النار الهائلة مهيئة للكفار ؛ لأنهم فرطوا في وقاية أنفسهم وأهليهم ما يجنبهم النار ، هداهم بعد ذلك فيمن وقع منهم التقصير والإهمال والإخلال بواجباته في التربية الوقائية إلى سبيل التوبة النصوح التي هي بداية الطريق لوقاية الأنفس من النار(٢) ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ .

قال الرازي : « نبههم -تعالى- على دفع العذاب في ذلك اليوم بالتوبة في هذا اليوم ، إذ في ذلك اليوم لا تفيد ، وفيه لطيفة : وهي أن التنبيه على الدفع بعد الترهيب فيما مضى يفيد الترغيب بذكر أحوالهم ، والإنعام في حقهم وإكرامهم »(٣).

قال ابن عاشور : « أعيد خطاب المؤمنين وأعيد نداؤهم وهو نداء ثالث في هذه السورة ، والذي قبله نداء للواعظين ، وهذا نداء للموعوظين ، وهذا الأسلوب من أساليب الإعراض المهتم بها ، أمر المؤمنين بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها ؛ لأن ذلك من إصلاح أنفسهم بعد أن أمروا بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يزج بهم في عذاب النار ؛ لأن اتقاء النار يتحقق باجتناب ما يرمي بهم فيها ، وقد يذهلون عما فرط من سيئاتهم ، فهدوا إلى سبيل التوبة التي يمحون بها ما فرط من سيئاتهم ، وهذا ناظر إلى ما ذكر من موعظة امرأتي النبي -ﷺ- بقوله : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ » (٤).

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٦/٢٨) .

(٢) حاشية زادة : (٢٦١/٨) .

(٣) مفاتيح الغيب : (٥٧٤/٣٠) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : (٣٦٧/٢٨) .

وقال سعيد حوى : « ولما كان الإنسان لا يخلو من ذنب فإن النداء الثاني يأتي مطالبا بالتوبة النصوح كبداية طريق للسير في الوقاية من النار » [١].

وقوله : ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ وصفت التوبة بالنصوح على سبيل المجاز، إذ النصح صفة التائب ، وهو أن ينصح نفسه بالتوبة ، فيأتي بها على طريقها ، وهي خلوصها من جميع الشوائب المفسدة لها، ونصوحا من نصح، فاحتمل-وهو الظاهر- أن تكون التوبة تنصح نفس التائب، واحتمل أن يكون متعلق النصح الناس، أي: يدعوهم إلى مثلها لظهور أمرها على صاحبها[٢].

قوله : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ في هذه الجملة تعريض بمن أخزاهم الله في ذلك اليوم من أهل الكفر والفسوق والنفاق ، واستحماد للمؤمنين على أنه عصمهم من مثل حالهم [٣].

وقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يجوز أن يكون معطوفا على النبي فيدخلون في انتفاء الخزي. وجاز أن يكون مبتدأ، والخبر نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم[٤] . وفي ذكر قوله : ﴿مَعَهُۥ﴾ مناسبة لطيفة وهي : إفادة الاجتماع بين الذين آمنوا وبين نبيهم في ذلك اليوم ، وفي ذلك تشريف في حقهم وتعظيم [٥].

وقوله : ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ هذا النور المذكور نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة ، وسعيه هو: امتداده وانتشاره ، شبه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنه يحف بهم حيثما انتقلوا ؛ تنويها بشأنهم[٦].

وقوله : ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ إنما خص بالذكر من الجهات الأمام واليمين ؛ لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته، واستطاعوا المشي، وشعروا بأنه كرامة لهم؛ ولأن اليمين هي الجهة التي يؤتون منها كتبهم عند الحساب، وهي اليد التي بايعوا النبي-ﷺ-بها على

(١) الأساس في تفسير القرآن : (١٠/ ٦٠٠٤) .
(٢) البحر المحيط : (٢١٤/١٠) .
(٣) مفاتيح الغيب : (٥٧٣/٣٠) .
(٤) البحر المحيط : (٢١٤/١٠) .
(٥) مفاتيح الغيب : (٥٧٤/٣٠) .
(٦) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧١/٢٨) .

الإيمان والنصر، وإنما يسعى النور بين أيديهم وبأيمانهم؛ لأن خلفهم وشمالهم طريق الفاسقين والكفرة[١].

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ ﴾ هذه الجملة يقولونها في ذلك اليوم ، عند إطفاء نور المنافقين إشفاقا على أنفسهم ؛ لأن النور على قدر أعمالهم فيسألون إتمامه ، وإتمام النور إدامته أو الزيادة منه على الوجهين المذكورين آنفا ، وكذلك الدعاء بطلب المغفرة لهم هو لطلب دوام المغفرة ، وذلك كله أدب مع الله وخضوع له [٢] .

وقوله : ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ في ختم الآية بهذه الجملة إشعار بتعليل الدعاء ، وكناية عن رجاء إجابته لهم [٣].

ولما ذكر الله -ﷻ- ما سيحل بالكفار في الآخرة تصريحا بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾، وتعريضا بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ، ختمت آيات هذا المقطع بتوجيه الأمر إلى رسول الله -ﷺ- أن يجاهد الذين يرفضون وقاية أنفسهم وأهليهم من النار ، والذين يرفضون التوبة عن الكفر والنفاق ، فكل من هؤلاء يحتاجون إلى غلظة من القول ، ومجاهدة باللسان والسنان ، فقال -تعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾ .

قال سيد قطب : « وفي سبيل حماية الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر لرسول اللّه -ﷺ- بمجاهدة أعدائها ، وهي لفتة لها معناها وقيمتها ، بعدما تقدم من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار ، وبالتوبة النصوح التي تكفر عنهم السيئات وتدخلهم الجنة ، لها معناها وقيمتها في ضرورة حماية المحضن الذي تتم فيه الوقاية من النار ، فلا تترك هذه العناصر المفسدة، الجائرة الظالمة ، تهاجم المعسكر الإسلامي من خارجه كما كان الكفار يصنعون ، أو تهاجمه من داخله كما كان المنافقون يفعلون ، وتجمع الآية بين الكفار والمنافقين في الأمر بجهادهم والغلظة عليهم ؛ لأن كلا من الفريقين يؤدي دورا مماثلا في تهديد المعسكر

(١) انظر : مفاتيح الغيب : (٥٧٣/٣٠) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٧١/٢٨) .
(٢) انظر : مفاتيح الغيب : (٥٧٣/٣٠) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٧١/٢٨) .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧١/٢٨) .

الإسلامي ، وتحطيمه أو تفتيته ، فجهادهم هو الجهاد الواقي من النار ، وجزاؤهم هو الغلظة عليهم من رسول اللّه -ﷺ- والمؤمنين في الدنيا .﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآخرة! وهكذا تتناسق هذه الجولة فيما بين آياتها واتجاهاتها كما تتناسق بجملتها مع الجولة الأولى في السياق»[1].

وقال سعيد حوى : « ولعل القارئ يدرك صلة آيات السورة ببعضها لأول نظرة إلا آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ فإن صلتها بما قبلها وبما بعدها تحتاج إلى تأمل:

أ- بدأت السورة بعتاب الرسول -ﷺ- ؛ لأنه حرم ما أحل الله ابتغاء مرضاة أزواجه ، وقد رأينا أن سياق السورة انصب على تأديب الأزواج ، ولما كان إرضاء الأزواج قد يترتب عليه ترك الجهاد ؛ لأنه كثيرا ما تحاول المرأة أن تصرف زوجها عن شؤون الجهاد ، ليلتفت إلى شؤون العيال، فجاءت الآية تأمر بالجهاد في سياق السورة .

ب- مما يراه كل عامل في الدعوة إلى الله تأثير الزوجة على زوجها ، حتى ليبلغ الأمر ببعضهم أن يكون الزواج في حقه هو نقطة الانعطاف من الإيمان إلى الكفر ، وكل ذلك مرده إرضاء الزوجة ، فأن تأتي سورة من القرآن تحذر من هذا المنعطف نحو الفسوق ، وتحمل على بذل الجهد للتقويم من خلال مخاطبة أعظم الخلق شأنا في عتابه -ﷺ- على حادثة جزئية ، وإعطائها هذا الحجم الكبير ، فذلك مظهر من مظاهر حكمة هذا القرآن ، ومظهر من مظاهر إحاطة الله علما بكل شيء ، ولعله بهذا الذي ذكرناه ، قد اتضح صلة الأمر بالجهاد في سياق هذه السورة، ولعله بذلك قد اكتملت لنا معرفة السياق الخاص للسورة، وصلتها بمحورها »[2].

وقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جهاد الكفار ظاهر ومعروف ، وأما عطف المنافقين على الكفار المفعول لـ﴿جَٰهِدِ﴾ فيقتضي أن النبي -ﷺ- مأمور بجهاد المنافقين، ومعلوم من حال النبي -ﷺ- أنه لم يعلن جهادهم بين المسلمين ، فتعين تأويل عطف

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٦/ ٣٦٢٠- ٣٦٢١)

(٢) الأساس في تفسير القرآن الكريم : (١٠/٦٠١٠-٦٠١١).

المنافقين على الكفار إما بأن يكون فعل جاهد مستعملا في حقيقته أو مجازه وهما : الجهاد بالسيف ، والجهاد بإقامة الحجة والبرهان.

قال ابن عاشور: « وعندي أن الأقرب في تأويل هذا العطف أن يكون المراد منه إلقاء الرعب في قلوب المنافقين ليشعروا بأن النبي -ﷺ- والمؤمنين بالمرصاد بهم فلو بدت من أحدهم بادرة يعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروا ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الافتضاح »[1].

المطلب الرابع
التفسير الإجمالي لآيات الموضوع

يأمر الله -ﷻ- في هذه الآيات عباده المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النيران التي تشتعل بالناس والحجارة ، وذلك بحملهم على الطاعة لله -تعالى- وامتثال أوامره ، ثم بين صفات الملائكة الموكلة بالنار ؛ للتحذير من دخولهم فيها ، وأنهم ملائكة غلاظ على أهل النار، أشداء عليهم ، وهم مع ذلك مطيعون لله -تعالى-، فلا يخالفون ما يأمرهم به ولا يمتنعون عن تنفيذ أوامره ، بل يؤدون ويمتثلون ما يؤمرون به من غير تثاقل ولا تأخير ، وأنهم يخاطبون الكفار المعذبين في النار ، ويخبرونهم بعدم الفائدة من الاعتذار في هذا اليوم ؛ لأنه لا توبة لهم ، فهو يوم جزاء وحساب ، وقد فات أوان العمل والاعتذار والندم ، فلا يجدي رجاء ولا اعتذار.

ثم أمر -ﷻ- عباده المؤمنين بالمبادرة بالتوبة النصوح التي تنصح صاحبها بعدم العود إلى الذنب الذي تاب منه ، وأنهم إن فعلوا ذلك فإن الله -ﷻ- سيمحو سيئاتهم ويدخلهم في الآخرة حدائق وبساتين ناضرة ، تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ، ثم بين -ﷻ- أنه في ذلك اليوم لا يفضح النبي -ﷺ- ومن معه من المؤمنين ، بل يعزهم ويكرمهم ، ومن ذلك

(١) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٢/٢٨) .

أن نورهم يضيء لهم بين أيديهم ، ويسطع عن أيمانهم ، فيدعون الله -تعالى- قائلين: يا ربنا أكمل علينا هذا النور وأدمه لنا ، ويطلبون أيضا منه أن يمحو عنهم ذنوبهم ، ولا يفضحهم بعقوبتهم عليها حين الحساب ، ثم ذكروا ما يطمعهم فى إجابة الدعاء فقالوا : ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، أي : إنك على إتمام نورنا ، وغفران ذنوبنا ، وكل ما نرجو منك ونطمع قدير يا ربنا، فاللهم أجب دعاءنا ، ولا تخيب رجاءنا .

ثم في ختام آيات الموضوع يأمر الله -ﷻ- رسوله محمدا -ﷺ- بجهاد الكفار والمنافقين ، فجهاد الكفار بالسيف والسِّنان ، والمنافقين بالحجة والبرهان ، مع الغلظة عليهم ، والتشديد في مخاطباتهم ، وعدم معاملتهم بالرأفة واللين، إرعاباً وإذلالاً لهم ، لتنكسر صلابتهم وتلين شكيمتهم ، وبين أن مستقرهم في الآخرة جهنم وبئس المقيل والمأوى ، نسأل الله السلامة والمعافاة .

المطلب الخامس

مما ترشد إليه الآيات

١- عظم المسؤولية تجاه من استرعاهم الله -ﷻ- إياه ، فعلى المرء أن يحرص على مصلحتهم الدنيوية والأخروية حرصه على مصلحته الخاصة ، ولا يكفيه صلاح نفسه ووقايتها من النار ، فمن شروط وقايتها من النار العمل على ما يقي أهله من النار أيضاً ، وربما كانوا سبباً في إقحامه نار جهنم ؛ لعدم رعايتهم كما أمر الله وترك الحبل لهم على الغارب في العقائد والأخلاق والسلوك ، مفسدة أي مفسدة .

٢- من الأساليب التربوية المطردة في القرآن الكريم عدم التيئيس من رحمة الله -ﷻ- وفتح باب التوبة للعائدين إلى الله مهما عظمت الذنوب ، ومهما كان البعد عن الطريق القويم ، بل ويبرز فرح ربه بعودة الآبق المتمرد إلى حظيرة الطاعة . فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- خادم رسول الله -ﷺ- قال : قال رسول الله -ﷺ- : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك ، إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[(١)].

٣- من شروط التوبة النصوح التي قال الله -ﷻ- عنها : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠].

أولا : الإخلاص لله .

ثانيا : الإقلاع عن الذنب .

ثالثا : الندم على فعله .

رابعا : العزم على عدم العودة إليه. وإن تعلق بحق آدمي فعليه أن يبرأ من حق صاحبه .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب التوبة ، باب الحض على التوبة ، برقم : (٢٧٤٧) .

خامسا : أن تكون قبل غرغرة الروح ، وقبل طلوع الشمس من مغربها .

٤- من الأساليب التربوية الإشادة والتكريم على ملأ ، فإن القيمة المعنوية للمكافأة أو الجائزة قد تكون أعظم من قيمتها المادية ، فالتكريم على ملأ من وجهاء الناس يشعر المستحق للجائزة بمزيد من الاحترام والتقدير ، هذا ما نستشفه من مكافأة التائبين المنيبين إلى ربهم ، فلم يكتف بتكفير السيئات لهم ، وإدخالهم الجنة ، وإنما يأتي هذا التكريم في موكب كريم مهيب يشهده الأنبياء والمرسلون والشهداء والصالحون . ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ ، على قدر إيمان كل منهم ، وما أن يقتربوا من أبواب الجنة حتى تستقبلهم الملائكة بالحفاوة والتكريم ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] .

٥- من الأساليب التربوية في الآيات :

أولا : أسلوب التخويف بالنار والإنذار والغلظة في القول ببيان سوء العاقبة في الدنيا والآخرة مع المنافقين .

ثانيا : أسلوب الدعوة ، ومراعاة المصلحة ، والمجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة مع الكفار المستأمنين والمعاهدين والمحايدين .

ثالثا : أسلوب الدعوة ثم التخيير بين الجزية والقتال ، مع الكفار المحاربين .

إن المربي الحصيف يستخدم الوسيلة المثلى بالطريقة المثلى للوصول إلى التأثير في نفس المخاطب، والله هو الهادي -ﷻ- .

المبحث الرابع

التربية الزوجية بضرب المثل بالنساء الغابرات

ويشمل الآيات (١٠-١٢) ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

التربية الزوجية بضرب المثل بالنساء الغابرات

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

المطلب الأول
ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة

بعد التأمل والتدبر في هذه الآيات الكريمة ، وبعد النظر في المحور الأساس والموضوع الكلي للسورة وهو (التربية الزوجية) ، تبين لي تناسق موضوع هذه الآيات وهو : (التربية الزوجية بضرب المثل بالنساء الغابرات) ، مع المحور الأساس للسورة ، وذلك أنه لما كان السياق العام للسورة قد تعرض لبعض المواقف التي صدرت من بعض أزواج النبي -عليه الصلاة والسلام- ، والتي كادت أن تؤدي بهن إلى إخراجهن من بيت النبوة ، وحرمانهن من ذلك المكان الكريم العالي القدر ، وكان تأديب الله -ﷻ- لهن واضحا في ذلك ، وفي سياق هذا التأديب والتربية الإلهية لهن خاصة ، ولغيرهن من نساء المؤمنين ، ناسب أن تجيء هنا آيات هذا الموضوع لتتعرض لبعض النماذج المختلفة من نساء غابرات كان بعضهن فى بيت النبوة ، فلما لم يستقمن على طريق الحق والخير ، أخذهن الله ببأسه ، وألقى بهن خارج بيت النبوة ، وكانت عاقبتهن الخسران، والوبال، والعذاب فى نار جهنم، ولم يغن عنهن حرم النبوة اللائي تحصنّ فيه ظاهرا، وهتكن ستره باطنا .

فآيات هذا الموضوع تأتي في السياق العام للسورة بضرب أمثال: لزوجتين كافرتين تحت زوجين نبيين صالحين ، وأخرى زوجة مؤمنة تحت زوج كافر ، ثم أخيرا بضرب المثل لامرأة صالحة لم تتزوج إلا أنها كانت قدوة حسنة لغيرها من النساء في التجرد لله -تعالى- ، والطاعة والقنوت له ، وفي ذلك تعريض لأزواج النبي -ﷺ- وحث لهن إلى حسن المعاشرة، ومراعاة الأدب معه ، وتبعيد لهن من النفاق والمراء والمجادلة ، لا سيما في أمر قد أباحه الله لنبيه -ﷺ- بمقتضى حكمته المتقنة البالغة ، وإنما ضرب -ﷻ- لهن ووعظهن بمثل هذه الأمثال ليتزجرن بها عما جئن به ، ويتربين على الأخلاق الفاضلة ، ولتكون عظة وتذكيرا لسائر النساء المؤمنات.

وقد ضرب الله -تعالى- الأمثال هنا لثلاثة أصناف من النساء ، المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر ، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد ، فالأولى : لا تنفعها وصلتها وسببها ، والثانية : لا تضرها وصلتها

وسببها ، والثالثة : لا يضرها عدم الصلة شيئا ، ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة، فإنها سيقت في ذكر أزواج النبيّ -ﷺ- ، ومناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر هذه السورة، والتحذير من تظاهرهن عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله -تعالى- ورسوله -ﷺ-، ويردن الدار الآخرة ، لم ينفعهن اتصالهن برسول الله -ﷺ- ، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بهما(١).

قال دروزة : « ولم نطلع على رواية خاصة بنزول هذه الآيات أيضا ، والمتبادر أنها متصلة بموضوع آيات السورة ، وخاصة بفصلها الأول ، صلة تمثيل وتذكير لنساء النبي -ﷺ- اللائي صدر من بعضهن ما صدر ، وأنه أريد بها كما تلهمه تقرير كون رابطتهن الزوجية بالنبي -ﷺ- ليس من شأنها وحدها أن تنجيهن من عذاب الله أو تضمن لهن رضاه ، وأن هذا وذاك متوقف على عملهن وسلوكهن ، والإطلاق في الآيات يجعل العظة التي استهدفتها والأمثال التي ضربتها والتذكير الذي ذكرت به موجها إلى عموم المسلمين ، ومستمر التلقين . وخاصة في صدد كون المرء لا ينجيه إلّا عمله مستقلا عن أية رابطة تربطه بغيره ،... ومع خصوصية الآيات ومناسبتها الموضوعية فإنها لا تخلو كما يتبادر لنا من تلقين تقريري لشخصية المرأة واستقلالها السلوكي وأهليتها لتحمل نتائج هذا السلوك» (٢).

فالخلاصة أن الأمثال المضروبة في آيات هذا الموضوع تضمنت تحذير نساء النبي -ﷺ- خصوصا ، وغيرهن من النساء المؤمنات عموما ، وتخويفهن ، وتربيتهن على الطاعة ، وتسليتهن وتوطيد النفس لمن أوذي منهن ، والله أعلم .

(١) التفسير القيم : (٥٤٩/١) .

(٢) التفسير الحديث : (٥٤٠/٨) باختصار .

المطلب الثاني
التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

لما أمر الله -تعالى- في آيات الموضوع السابق المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار ، ذكر في آيات هذا الموضوع أن كل امرأة مسؤولة عن نفسها ، وأنها لا ينفعها اتصالها بصالح ، كما لا يضرها اتصالها بطالح ، وأن استحاق المرأة لكرامة ربها هو عملها الصالح ، ولا أثر لذلك الاتصال فيما بعد الموت ، بل يقتصر أمرها فقط في هذه الحياة ، فمبدأ تبعية الزوجة لزوجها إنما هو في الأمور الدنيوية من المخالطة والمعاشرة ، وأن الزوج المؤمن ما دام قد أدى الأمانة التي كلفه الله -تعالى- بها في آيات الموضوع السابق ، من أمر أهله بالعمل الصالح الذي يقيهم من النار ، فليس عليه جناح بعد ذلك ، فهذان نبيان كريمان صالحان قاما بدعوة قومهما فترة من الزمن ومع ذلك لم يستطيعا تغيير دين أقرب الأقربين إليهما وهما زوجتاهما .

قال الزمخشري : « مثل الله -ﷻ- حال الكفار- في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة ، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر ؛ لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء الله- بحال امرأة نوح وامرأة لوط: لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء مّا مِن عذاب الله ، وَقِيلَ لهما عند موتهما ، أو يوم القيامة : ﴿ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء. أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط. ومثل حال المؤمنين- في أنّ وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند الله- بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله -تعالى- ، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى، ومثل كذلك بمريم ابنة عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين،

مع أنّ قومها كانوا كفارا . وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله -ﷺ- بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ، لما في التمثيل من ذكر الكفر، ونحوه في التغليظ ، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله -ﷺ- ، فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين ، والتعريض بحفصة —رضي الله عنها- أرجح ؛ وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن تبصره » [(١)].

قال ابن القيم[(٢)]: « اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار، ومثلين للمؤمنين، فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب، أو وصلة صهر، أو سبب من أسباب الاتصال. فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة ، إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي رسله ، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح، مع عدم الإيمان، لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما. فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين. قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله، وخالف أمره، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبيّ ، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال ، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ، ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح

---

(١) الكشاف : (٥٧١/٤) بتصرف .

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعي الدمشقيّ، أبو عبد الله ، شمس الدين ، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء ، مولده ووفاته في دمشق . تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية ، حتى كان لا يخرج عن شئ من أقواله ، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه ، وهو الّذي هذب كتبه ونشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق ، وأهين وعذب بسببه ، وطيف به على جمل مضروبا بالعصى ، وأطلق بعد موت ابن تيمية ، وكان حسن الخلق محبوبا عند الناس، ألّف تصانيف كثيرة منها (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) ، توفي -رحمه الله- سنة ٧٥١ه. انظر : الأعلام للزركلي : (٦/ ٥٦) .

ولوط عن امرأتيهما من الله شيئا »[١].

وقال الشوكاني : « إن ذكر امرأتي النبيين بعد ذكر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله- ﷺ- يرشد أتم إرشاد، ويلوح أبلغ تلويح، إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين، وبيان أنهما وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله وخاتم رسله، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئا، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة »[٢].

وقال سيد قطب : « ثم تجيء الجولة الثالثة والأخيرة وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى، إذ تتحدث عن نساء كافرات في بيوت أنبياء ، ونساء مؤمنات في وسط كفار ، إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا ، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار ، كما يراد أن يقال لأزواج النبي -ﷺ- وأزواج المؤمنين كذلك : إن عليهن أنفسهن بعد كل شيء ، فهن مسؤولات عن ذواتهن ، ولن يعفيهن من التبعة أنهن زوجات نبي أو صالح من المسلمين! فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان » [٣].

(١) التفسير القيم : (٥٤٨/١) باختصار .

(٢) فتح القدير : (٣٠٥/٥) .

(٣) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٢١/٦) .

المطـــلب الثالث
التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع

لما أمر الله -تعالى- في الآية السابقة نبيه بجهاد الكفار والمنافقين ، وأخبر أن مأواهم النار ، زعم الذين بينهم وبين النبي-ﷺ- أو بينهم وبين المؤمنين وصلة نسب أن ينتفعوا بها ، فأبطل الله زعمهم ، بأن مثّل حالهم بحال امرأتين كافرتين كانتا تحت نبيين كريمين ، وبالرغم من ذلك لم ينتفعا من ذينك العبدين المكرمين عند الله -تعالى- لتحقق المخالفة بينهما وبين زوجيهما في الطريقة والسيرة، فكذلك الكفار والمنافقون لا ينتفعون بالانتساب إلى المقربين عند الله -تعالى-، وفي ضرب هذا المثل نوع تعريض بأمي المؤمنين حفصة وعائشة رضي الله عنهما بأن وصلتهما بالنبي-ﷺ- لا تغني عنهما من الله شيئا إذا عصتا وتظاهرتا على ما يسوؤه ؛ ولذلك ذكر امرأتين تحت نبيين[1]، فقال-تعالى-:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾.

قال ابن عاشور : « معنى ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾ : أن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا ، أي : ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف ، فلا يحسبوا أن لهم شفعاء عند الله ، ولا أن مكانهم من جوار بيته وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم ، فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين »[2].

وقوله : ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾ ورد ضرب المثل هنا بامرأة نوح وامرأة لوط دون غيرهما من قرابة الأنبياء ؛ لأن ضرب المثل بهاتين المرأتين لم يتقدم في القرآن الكريم ، وفي ذكرهما فائدة مستجدة؛ وذلك أنهما ذكرتا عقب ما سبق في السورة من تمالؤ أمي المؤمنين على زوجهما-ﷺ- تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في

(١) حاشية زادة : (٢٦٣/٨) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٤/٢٨) .

الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبي -ﷺ- ليكون الشبه في التمثيل أقوى[١].

وقوله : ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ، أي : تحت نكاح وعصمة نبيين ورسولين عظيمى الشأن، متمكنتين من تحصيل خيري الدنيا والآخرة وحيازة سعادتهما ، ولم يؤت بالضمير هنا فيقال: تحتهما ، أي : تحت نوح ولوط ؛ لما قصد من تشريفهما بهذه الإضافة الشريفة إليه -تعالى- ، ولما قصد من ذكر وصفهما بالصلاح ، وفي ذلك بيان شرف العبودية والصلاح ؛ لأن الصلاح هو الوصف الذي يمتاز به من اصطفاه الله -تعالى- ، وأنه وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله ، وإنما قال -ﷻ- : ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ للدلالة على كثرة عبيده تنبيها على غناه[٢].

قال ابن عاشور : « وإنما خصا بوصف «عبدين صالحين» مع أن وصف النبوة أخص من وصف الصلاح تنويها بوصف الصلاح وإيماء إلى أن النبوة صلاح ليعظم بذلك شأن الصالحين كما في قوله-تعالى-: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات:١١٢]. ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن فإن وصف النبوءة قد انتهى بالنسبة للأمة الإسلامية، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين وعناية ربهم بهم ومدافعته عنهم»[٣].

وقوله : ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في هذه الجملة بيان لما صدر عنهما من الجناية العظيمة بحق هذين النبيين ، أي : فخانتاهما في الدِّين . وليست خيانة الزنا ؛ لأن هذا أولا غير ممكن ؛ فإن الأنبياء -عليهم السلام- عصموا عما يوجب عليهم العار والشنار، والزوج يعير بزنى زوجته وفراشه، ثم إن فيه توهم التهمة في أولادهم ، وهذا يستحيل في مقام النبوة[٤] .

ولما بين -ﷻ- ما قامتا به من خيانة زوجيهما ذكر عاقبة تلك الخيانة فقال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي : أن نوحا ولوطا -عليهما السلام- مع جلالة قدرهما ، لم

(١) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٤/٢٨) .
(٢) انظر : البحر المحيط : (٢١٥/١٠) . روح البيان : (٦٨/١٠) ، السراج المنير : (٣٣٤/٤) .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٥/٢٨) .
(٤) تفسير ابن كثير : ١٩٢/٨) بتصرف .

يستطيعا أن يدفعا شيئا من العذاب عن زوجتيهما الخائنتين لهما سواء في الدنيا أو في الآخرة [١].

وقوله : ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ﴾ ، أي : قيل لهما ذلك عند موتهما أو يوم القيامة ، وإنما ذكر بصيغة المضي للدلالة على التحقق .

وقوله : ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ ذكرتا بصيغة جمع المذكر ؛ لأنهن لا ينفردن بالدخول ، وإذا اجتمعا فالغلبة للذكور[٢]، وإن كان يشمل أهل النار ذكورا وإناثا .

قال ابن عاشور : « وزيادة ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ ؛ لإفادة مساواتهما في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة ، وذلك تأييس لهما من أن ينتفعا بشيء من حظوة زوجيهما»[٣].

ولما ضرب المثل السابق للذين كفروا أعقب بضرب مثل للذين آمنوا لتحصل المقابلة ، فيتضح مقصود المثلين معا ، وجريا على عادة القرآن في إتباع الترهيب بالترغيب ، وجعل المثل للذين آمنوا بحال امرأتين لتحصل المقابلة للمثلين السابقين، فهذا من مراعاة النظير في المثلين[٤]، فقال -تعالى- : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾.

ومعنى جعل الله حال امرأة فرعون، مثلا للمؤمنين؛ لأنها آمنت بالحق بعد أن تبين لها، دون أن يصرفها عن ذلك أى صارف، فكان ما فعلته في أسمى درجات الإخلاص وصدق اليقين[٥].

وقوله : ﴿ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ هي آسية بنت مزاحم امرأة فرعون الذي أرسل إليه موسى -عليه السلام- ، وسماها النبي -صلى الله عليه وسلم- آسية في قوله : «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون »[٦].

---

(١) انظر : روح البيان : (٦٨/١٠) ، التفسير الوسيط : (٤٨٢/١٤) .

(٢) روح البيان : (٦٨/١٠)

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٦/٢٨) .

(٤) المصدر السابق : (٣٧٦/٢٨) .

(٥) التفسير الوسيط : (٤٨٣/١٤) .

(٦) رواه البخاري ، في كتاب أحاديث الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ ⇦=

ووجه ضرب المثل بامرأة فرعون أمران : الأول : أن يعلم المقهور تحت أيدي الكفرة أنه لا عذر له في التخلف عن الإيمان باللَّه -تعالى- ؛ إذ كانت امرأة فرعون مقهورة تحت يديه ، وكانت بين ظهراني الظلمة، ولم يمنعها ذلك عن الإيمان باللَّه -تعالى- وعن التصديق برسوله موسى -عليه السلام-.

والثاني: أنها لم تشاهد من زوجها ومن القوم الذين بين ظهرانيهم سوى الكفر بالله- تعالى-، ثم إن اللَّه -تعالى- بلطفه ألهمها الإيمان به فآمنت ، وكانت امرأة نوح -عليه السلام- تحت نوح ولم تشاهد منه سوى الطاعة والعبادة لربه جل وعلا ثم لم ينفعها إيمانه وعبادته ؛ ليعلم أنه لا ينفع أحدا إسلام أحد، ولا يضر أحدا كفر غيره، وإنما يصير مؤمنا بفعل نفسه كافرا بفعل نفسه[1].

وقوله: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي﴾ في هذه الجملة دلالة على إيمانها بالبعث والحساب والجزاء في الآخرة[2]، وقد ذكر أهل التفسير أنها قالت ذلك عندما عذبها فرعون .

قال ابن عاشور : «الظاهر أن قولها : ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ مؤذن بأن فرعون وقومه صدوها عن الإيمان به وزينوا لها أنها إن آمنت بموسى تضيع ملكا عظيما وقصرا فخيما ، أو أن فرعون وعظها بأنها إن أصرت على ذلك تقتل ، فلا يكون مدفنها الهرم الذي بناه فرعون لنفسه لدفنه »[3].

واختلف علماء التفسير في صفة العذاب ، وذكروا وجوها عديدة ، إلا أنني رأيت الإمساك عنها والإعراض عن ذكرها ؛ لأن أكثر ذلك من الإسرائيليات التي أدخلها بعض علماء التفسير في كتبهم .

= فرعون﴾ برقم: (٣٤١١) ، ومسلم : في فضائل الصحابة ، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ، برقم (٢٤٣١) .

(١) تأويلات أهل السنة : (٩٧/١٠) .

(٢) التفسير المنير : (٣٢٧/٢٨) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٧/٢٨) .

قال أبو حيان : « وذكر المفسرون أنواعا مضطربة في تعذيبها ، وليس في القرآن نص أنها عذبت »[١].

وقوله : ﴿عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ جمعت بين ﴿عِندَكَ﴾ و﴿فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ ، فطلبت الجار قبل الدار ، ففي الأولى طلبت القرب من رحمة الله ، ثم بينت مكان القرب بقولها : ﴿فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ ، أو أنها أرادت ارتفاع درجتها في جنة المأوى التي هي أقرب إلى العرش [٢].

وقوله : ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ﴾ ، أي : نجني من صحبة فرعون ، طلبت الخلاص والنجاة من شخصه . ثم طلبت النجاة من ﴿عَمَلِهِ﴾ ، أي :كفره وظلمه وجبروته ، وهو من عطف الخاص على العام .

وقوله : ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، أي : من قوم فرعون ، سألت النجاة عنهم جملة، لما كانوا يمنعونها عبادة اللَّه -تعالى- ، فكانت لا تأمن ناحيتهم ، وتخاف منهم ، فسألت النجاة منهم ؛ لتصل إلى عبادة ربها ، وقد استجاب الله دعاءها فنجاها أكرم نجاة ، فرفعها إلى الجنة ، وجعلها زوجة أكمل خلقه محمد-ﷺ- فكانت معه في مترله الذي هو أعلى المنازل [٣].

ولما ذكر الله -ﷻ- صبر امرأة فرعون على زوجها ، أتبعه بذكر امرأة أخرى صبرت على أذى قومها ، حيث نسبوا إليها الفاحشة فبين أنها كانت عفيفة طاهرة ، وأنها كانت من المصدقات القانتات المطيعات لله تعالى ، فقال تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ .

وفي ذلك أيضا تسلية لعائشة أم المؤمنين-رضي الله عنها-، إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، التي اتهمت فيه بالخطيئة . وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها ، فإن مريم عليها السلام اتهمت بذلك ، فلم يضرها ذلك شيئا [٤].

---

(١) البحر المحيط : (٢١٦/١٠) .

(٢) مفاتيح الغيب : (٥٧٥/٣٠) .

(٣) انظر : جامع أحكام القرآن : (٢٠٣/١٨) ، السراج المنير : (٣٣٥/٤) .

(٤) التفسير القيم : (٥٥٠/١) .

وأيضا فإن في ختم السورة بذكرها مفردة وباسمها فيه إظهار لقدرها وكرامتها ، وعلو شأنها ، واصطفاء الله لها من بين سائر نساء العالمين ، وفي ذلك أيضا تسلية للنساء اللاتي لا أزواج لهن، وتطييبا لأنفسهن حيث ذكرت في الآيات السابقة النساء اللاتي لهن أزواج .

وقوله : ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ سميت مريم فى القرآن باسمها فى سبعة مواضع ، ولم يسم غيرها من النساء ؛ لأنها أقامت نفسها فى الطاعة كالرجل الكامل ، وأيضا للتنبيه على أنها أمة الله إبطالا لعقائد النصارى [١].

وقوله : ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ﴾ ، أي : عفت عن السوء وجميع مقدماته ، وكانت كالحصن العظيم المانع من العدو فاستمرت على حالها إلى الممات ، فزوجها الله تعالى في الجنة جزاءا لها بخير خلقه محمد -ﷺ- كما تقدم ذكره [٢].

وقوله : ﴿فَرْجَهَا﴾ قال القرطبي : قال المفسرون : إنه أراد بالفرج هنا الجيب ؛ لأنه قال : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وجبريل -عليه السلام- إنما نفخ في جيبها ولم ينفخ في فرجها . وكل خرق في الثوب يسمى جيبا، ومنه قوله -تعالى- : ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق : ٦]. ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جيبها . ومعنى ﴿فَنَفَخْنَا﴾ : أرسلنا جبريل فنفخ في جيبها ، ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ ، أي : روحا من أرواحنا وهي روح عيسى- عليه السلام- [٣].

وقوله : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ ، أي : جزيناها على إحصان فرجها، بأن كون الله فيه نبيا بصفة خارقة للعادة فخلد بذلك ذكرها في الصالحات[٤].

وقوله : ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ في إضافة الروح إلى ذاته -تعالى- تفخيم لمريم -عليها السلام- ولعيسى -عليه السلام- ؛ ولأن تكوين المخلوق الحي في الرحم كان دون الأسباب المعتادة [٥].

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٨/٢٨) .
(٢) السراج المنير : (٣٣٦/٤) .
(٣) جامع أحكام القرآن : (٢٠٤/١٨،٢٠٣) .
(٤) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٨/٢٨) .
(٥) انظر : روح البيان : (٧١/١٠) ، وانظر : التحرير والتنوير : (٣٧٨/٢٨).

وقوله : ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ ، يعني : بشرائعه التي شرعها الله لعباده ، وقيل: المراد بالكلمات عيسى ، وقيل : صحفه التي أنزلها على أنبيائه ، والراجح أنها للعموم .

وقوله : ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ العطف هنا إما : للتفسير، أو أن الكلمات أعم من المكتوب والمحفوظ من أوامره ووصاياه المتوارثة ، والكتب خاصة بالمخطوط من الأسفار [١].

قال ابن عاشور : « ويجوز أن يراد بـــ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾، إرادة الله وقدره أن تحمل من دون مس رجل إياها ، من باب (وكان كتابا مفعولا)»[٢].

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أى : من عداد المواظبين على الطاعة ، والمكثرين من العبادة ، وأن شأن ذلك لرجال بني إسرائيل ؛ لأن نساءهم كن معفيات من عبادات كثيرة ، ففيه إشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعات الرجال حتى عدت من جملتهم ، ولأجل ذلك لم يقل من (القانتات) ، وأيضا ؛ لأن القنوت صفه تشمل كل من قنت فغلب ذكوره على إناثه ، وأيضا يجوز أن يراد بـــ﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ رهطها وعشيرتها الذين كانت من نسلهم ؛ لأنها من أعقاب وسليلة هارون أخي موسى عليهم السلام ، وكانوا أهل بيت صلاح وطاعة [٣].

(١) محاسن التأويل : (٩/ ٢٧٩) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٣٧٨/٢٨) .

(٣) انظر : روح البيان : (٧١/١٠) ، فتح القدير : (٣٠٥/٥) . التحرير والتنوير : (٣٧٩/٢٨) .

المطلب الرابع
التفسير الإجمالي لآيات الموضوع

يخبر الله -تعالى- في هذه الآيات أنه ضرب مثلا يبين حال الكافرين الذين لم ينتفعوا بعظات المؤمنين الصادقين من الأنبياء والمرسلين ، لظلمة قلوبهم ، وسوء استعدادهم ، وفساد فطرتهم ، بامرأة نوح وامرأة لوط ، إذ كانتا في عصمة نبيين يمكنهما أن ينتفعا بهديهما ويحصلا ما فيه سعادتهما في معاشهما ومعادهما ، لكنهما أبتا ذلك ، وعملتا ما يدل على الخيانة والكفر ، فلم يدفع عنهما قربهما من ذينك العبدين الصالحين شيئا ، وحاق بهما سوء ما عملتاه ، وسيحل بهما عقاب الله ، وسيدخلان النار في زمرة داخليها ، جزاءاً وفاقا لما اجترحاه من السيئات ، وما دستا به أنفسهما من كبير الآثام وعظيم المعاصي .

ثم ذكر -ﷻ- أنه جعل الله حال امرأة فرعون مثلا يبين به أن وصلة المؤمنين بالكافرين لا تضرهم شيئا إذا كانت النفوس خالصة من الأكدار، فقد كانت تحت أعدى أعداء الله فى الدنيا، وطلبت النجاة منه ومن عمله، وقالت فى دعائها : ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾، أي : اجعلنى في مستقر رحمتك ، في أعلى درجات المقرّبين منك ، ونجني من ذات فرعون ، ومما يصدر عنه من أعمال الشر ، وأنقذنى من قومه الظالمين .

ثم ذكر -ﷻ- أنه جعل حال مريم ابنة عمران والدة عيسى - عليهما السلام- مثلا للذين آمنوا ، وذلك لما أوتيت من كرامة في الدنيا والآخرة ، واصطفاء على نساء العالمين ، بمجرد صلاحها في نفسها مع كونها لا زوج لها صالح ، ولا طالح ، وبالرغم من ذلك حفظت فرجها وصانته عن الحرام ، -لا كما يتهمها اليهود - ، فنفخ جبريل بأمر من ربه فى جيب درعها فحملت بنبي الله وكلمته عيسى -عليه الصلاة والسلام- ، وقد صدقت بشرائع الله وكتبه التي أنزلها على أنبيائه ، وكانت فى عداد القانتين العابدين المخبتين لربهم المطيعين له .

المطلب الخامس
مما ترشد إليه الآيات

أولا : من الأساليب التربوية سوق النماذج الإنسانية التي تتمثل فيها المباديء والقيم، فالقضايا الفكرية إذا ذكرت بشكل نظري تأتي باهتة لا تثير الأحاسيس ولا تطلق المشاعر، وقد يظن أنها غير قابلة للتطبيق في واقع الحياة ، ولكن إذا عرضت من خلال سيرة أناس تمثلوها في حياتهم وعاشوها واقعاً عملياً لا شك أنهم سيكونون قدوة لمن بعدهم .

ثانيا : من يتصور أن تخون امرأة عقيدة زوجها وهي تعايشه ليلاً ونهاراً ، والأصل فيها أن تكون مكمن سر الزوج ومستودع أماناته ، وأن يجد الزوج عندها السلوة والعزاء فيما يلاقيه من عنت الناس وإيذائهم ، ولكن صنفاً من البشر يبرز من خلال هذا الأنموذج السيء – امرأة نوح وامرأة لوط – لتتقرر الحقيقة الربانية : أن القرب من الصالحين لا ينفع من لم يهد الله قلبه للإيمان، فلا عبرة بالقرب المكاني أو النسبي ما لم يكن قربا في العقيدة والقلب وبالمقابل إن مباديء الرفعة والتسامي على متع الدنيا وزينتها وحطامها والرغبة فيما عند الله وإيثار الباقية على الفانية، تحفظ لأصحابها المكانة عند الله، ولا عبرة بالقرب من أهل السوء ما دام الفاصل الشعوري يبعدهم عن بعضهم وكذلك معاني العفة والطهر والنبل والكرامة والتي تتمثل في الأنموذجين الصالحين، امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] (١).

ثالثا : إن في سير الغابرين سلوة للدعاة في كل عصر ، وكثير ما يعيَّر الدعاة إلى الله بأبنائهم ونسائهم وأقربائهم ؛ لأنهم لا يلتزمون دعوة ولي أمرهم ، ويحمِّلون الداعية مسؤولية ذلك ، نعم تكون المسؤولية عليه إن لم يبذل الجهد لإصلاحهم ولم يلتفت إليهم ، ولم يبين لهم الحق الذي يحمله للناس ، أما إذا بذل كل ذلك فلم يستجب له فلا ملامة عليه ، وهذا نوح -عليه السلام- وهو من أولي العزم من الرسل، ولوط -عليه السلام- نبي مرسل لم يستطيعا حمل

(١) موسوعة التفسير الموضوعي : (٢٥٩/٨) .

زوجتيهما على الهداية ولئن كانت سيرة نوح ولوط -عليهما السلام- غير معروفة لنا بالتفصيل فإن سيرة نبينا محمد -ﷺ- مع عمه أبي طالب معروفة بوقائعها ، فقد تحقق فيها سنة الله وحكمته ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾[القصص: ٥٦].

فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : « لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي -ﷺ- فقال : « يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة، فقال : لولا أن تعيرني قريش ، يقولون : ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك »، فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية »[(١)].

إذن لا ملامة على الدعاة إن وجد في أسرهم من لا يلتزم دعوتهم ، أو يحاربها، كما أنه قد يوجد في بيئة علم وصلاح من يغلب عليه الجهل والفساد ، فإن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء [(٢)].

رابعا : دور المرأة في الدعوة وتحمل أعبائها وتمثل المباديء في سيرتها الخاصة والعامة بارز في القصص القرآني ، وفي أحداث سيرة رسول الله -ﷺ- وعلى الدعاة في العصر الحاضر أن يلتفتوا إلى هذا العنصر الهام في الدعوة ولا يغفلوه .

خامسا : لقد اتخذ أعداء الإسلام ما سموه حقوق المرأة ومساواتها بالرجل وغير ذلك من المزاعم مطية لمحاربة الإسلام وأهله، والآن يمارسون ضغوطاً هائلة على المسلمين لتغيير ثقافة الأمة ومناهج التعليم ، ومنطلقاتهم الأساسية في ذلك المرأة .

سادسا : إن تهيئة المرأة المسلمة الداعية إلى الله، البصيرة بأحكام شرع ربها، الواعية لمخطط أعداء الإسلام هو السلاح الذي ينبغي أن تحابه به مخططات أعداء الإسلام .

سابعا : إن في فتيات المسلمين ونسائهم الكثير من الوعي والتضحية والاقتداء بنساء السلف الصالح إلا أنهن يحتجن إلى توجيه وتوعية وتربية فقط .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله ، برقم : (٢٤) .

(٢) موسوعة التفسير الموضوعي : (٢٥٩/٨) .

ثامنا : قال الزمخشريّ : « في دعاء امرأة فرعون دليل على أن الاستعاذة بالله، والالتجاء إليه، عند المحن والنوازل من سير الصالحين، وسنن الأنبياء. والمرسلين »[١].

تاسعا : إن في ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط فوائد متعددة ، منها : التنبيه للرجال والنساء على الثواب العظيم ، والعذاب الأليم .

عاشرا : العلم بأن صلاح الغير لا ينفع المفسد ، وفساد الغير لا يضر المصلح.

الحادي عشر : أن الرجل وإن كان في غاية الصلاح فلا يأمن المرأة، ولا يأمن نفسه، كالصادر من امرأتي نوح ولوط ، والعلم بأن إحصان المرأة وعفتها مفيدة غاية الإفادة ، كما أفاد مريم بنت عمران ، والتنبيه على أن التضرع بالصدق وسيلة إلى الخلاص من العقاب[٢]، والله أعلى وأعلم ، وأعز وأكرم ، وهو الموفق سبحانه .

(١) الكشاف : (٥٧٣/٤) .

(٢) مفاتيح الغيب : (٥٧٦/٣٠) .

الباب الثاني

التناسق الموضوعي في سورة المعارج

ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : بين يدي سورة المعارج .

الفصل الثاني : موضوعات سورة المعارج وتناسقها .

الفصل الأول

بين يدي سورة المعارج

ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : اسم السورة ، وفضلها ، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها ، ومكيها ومدنيها .

المبحث الثاني : اختصاص سورة المعارج بما اختصت به.

المبحث الثالث : مقاصد سورة المعارج .

المبحث الرابع : الوحدة الموضوعية لسورة المعارج .

المبحث الخامس : مناسبات سورة المعارج .

المبحث الأول

اسم السورة ، وفضلها ، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها ، ومكيها ومدنيها .

ويشتمل على خمسة مطالب :

المطلب الأول : اسم السورة ، وما ذكر لها من أسماء.

المطلب الثاني : فضل سورة المعارج أو بعض آياتها .

المطلب الثالث : عدد آيات سورة المعارج .

المطلب الرابع : تاريخ نزول سورة المعارج .

المطلب الخامس : مكي سورة المعارج ومدنيها .

المطلب الأول
اسم السورة ، وما ذكر لها من أسماء

أولا : اسم السورة :

اشتهرت تسمية هذه السورة بسورة (المعارج) ؛ وبذلك سميت في أغلب المصاحف المشرقية والمغربية ، ومعظم كتب التفسير والسنة[1] ، ولم أقف على خبر مأثور عن رسول الله -ﷺ- صرح فيه بتسميتها بهذا الاسم .

ووجه التسمية بهذا الاسم : ورود لفظة المعارج في الآيات الأولى منها في قوله تعالى : ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ .

معنى التسمية : المعارج من عرج في الدرجة والسلم يعرج عروجا ، أي : ارتقى ، وعرج الشي فهو عريج : ارتفع وعلا ، وفي هذه السورة : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ...﴾ أي : تصعد، والمعارج : المصاعد والدرج ، والمعرج : الطريق الذي تصعد فيه الملائكة ، والمعراج : شبه سلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت ، والمعراج : السلم ، ومنه ليلة المعراج[2].

ثانيا : ما ذكر لها من أسماء :

١) سورة (سأل) :

عرفت هذه السورة أيضا بـــ(سورة سأل) في عهد الصحابة -رضوان الله عليهم- ، فعن

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٢/٢٩) .

(٢) انظر : لسان العرب : (٣٢٠/٢-٣٢٢) .

ابن عباس رضي الله عنهما قال : «نزلت سورة سأل بمكة »[١] .

ووجه تسميتها بهذا الاسم : افتتاح السورة الكريمة بهذا اللفظ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.

٢) سورة (الواقع) :

أورد هذه التسمية السخاوي في جمال القراء[٢] ، والسيوطي في الاتقان[٣] ، كما ذكرها ابن الجوزي[٤][٥] ، والفيروز آبادي[٦] ، وقد جاءت هذه التسمية في بعض مصاحف نسخت نسخت سنة ١٣٤٤ه[٧].

ووجه تسميتها بهذا الاسم : علل الفيروز آبادي تسميتها بذلك ؛ لوقوع قوله تعالى فيها : ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[٨].

---

(١) الدر المنثور : (٢٧٧/٨) ، وعزاه السيوطي إلى ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي .

(٢) جمال القراء : (٩٢/١-١٩٦) .

(٣) الاتقان : (١٧٦/١) .

(٤) هو : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج ، علامة عصره في التاريخ والحديث ، كثير التصانيف ، مولده ووفاته ببغداد ، ونسبته إلى (مشرعة الجوز) من محالها. له نحو ثلاث مئة مصنف، توفي سنة ٥٩٧هـ . انظر : الأعلام للزركلي : (٣/ ٣١٦) .

(٥) انظر : زاد المسير في علم التفسير : (٣٣٥/٤) ،

(٦) هو : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي: من أئمة اللغة والأدب، ولد بكارزين (بكسر الراء وتفتح) من أعمال شيراز. وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند، وانتشر اسمه في الآفاق، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، وتوفي في زبيد سنة ٨١٧ هـ أشهر كتبه (القاموس المحيط) و(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز). انظر : الأعلام للزركلي : (٧/ ١٤٦) .

(٧) أسماء سور القرآن وفضائلها، للدكتورة / منيرة محمد الدوسري ، (أصلها رسالة ماجستير) ، الدمام ، دار ابن الجوزي، ١٤٢٦ه : (٤٨٤) .

(٨) بصائر ذوي التمييز : (٤٨٠/١) .

المطلب الثاني
ما ورد في فضل سورة المعارج أو بعض آياتها

لم يثبت في فضل سورة المعارج حديث صحيح عن النبي -ﷺ- ، إلا أنها بلا شك داخلة في عموم الفضل المسند لكتاب الله -ﷻ- ، ولسوره ، وحروفه .

كما أنها داخلة في الفضل المخصص لسور المفصل الذي خص به النبي -ﷺ- في الحديث الذي رواه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، وقد تقدم وروده في الباب الأول (سورة التحريم) ، والذي فيه : «وفضلت بالمفصل » [1].

(١) انظر الصفحة : (٤٢) .

المطلب الثالث
عدد آيات سورة المعارج

آي سورة المعارج هي ثلاث وأربعون آية ، في عد الشام ، وأربع وأربعون في عد غيرهم .

فالمختلف فيه من هذا العد موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، عده غير الدمشقيين آية ، وتركه الدمشقيون.

ووجه العد : انقطاع الكلام ، ووجه الترك : عدم المشاكلة ، وعدم عد مثله في القرآن ، وليس فيها مشبه الفاصلة [1].

(١) انظر : البيان في عد سور القرآن : (٢٥٤) ، والفرائد الحسان : (٦٦) ، والمحرر الوجيز في عد آي الكتاب العزيز : (١٦٨) ، وسعادة الدارين في بيان وعد آي معجز الثقلين : (٧٥) .

المطلب الرابع
تاريخ نزول سورة المعارج

سورة المعارج من السور المكية ، ، وهي السّورة الثامنة والسبعون في ترتيب نزول السّور ، نزلت بعد سورة الحاقة وقبل سورة النّبأ[1] .

ومما يدل على مكيتها عناية السورة بتصحيح وتقرير العقيدة ، التي هي من سمات وخصائص السور المكية ، وكذلك عالجت السورة ما كان عليه أهل مكة من إنكار لليوم الآخر، وما فيه من البعث والحساب والجزاء ، مع بيان صفات المؤمنين به والمنكرين لذلك اليوم، وحالهم فيه .

(١) الاتقان : (٩٧/١) ، قلت : ليس هناك دليل صحيح على هذا الترتيب الزماني لسور القرآن الكريم كاملة .

المطلب الخامس
مكي سورة المعارج ومدنيها

اتفق العلماء على أن سورة المعارج مكية بجميع آياتها ، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال : « نزلت سورة سأل بمكة »[١] .

وقال القرطبي : «سورة المعارج مكية باتفاق»[٢] .

وقال ابن عطية : «سورة المعارج وهي مكية لا خلاف بين الرواة في ذلك »[٣].

وقالَ ابن عاشور : « وهي مكّيّةٌ بالاتّفاق ، وشذّ من ذكر أنّ آية ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ مدنيّة »[٤] .

(١) الدر المنثور : (٢٧٧/٨) ، وعزاه إلى ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي .
(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم : (٢٧٨/١٨) .
(٣) المحرر الوجيز : (٣٦٤/٥) .
(٤) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٢/٢٩) .

المبحث الثاني

اختصاص سورة المعارج بما اختصت به

اختصاص سورة المعارج بما اختصت به

لقد اختصت سورة المعارج من بين سائر سور القرآن الكريم بعدد من الموضوعات والجمل والألفاظ .

أولا : أبرز ما اختصت به سورة المعارج من موضوعات ، ما يلي :

- سؤال سائل واحد عن عذاب الله تعالى .
- وصف الله تعالى بذي المعارج ، وبرب المشارق والمغارب .
- عروج الملائكة والروح إلى ربهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .
- وصف النار بأوصاف لم ترد في غيرها من القرآن منها ، قوله تعالى :

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ .

- وصف الإنسان بأوصاف لم ترد في غيرها من القرآن ، منها قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

- وصف كفار مكة بأوصاف في الدنيا والآخرة لم ترد في غيرها من القرآن منها قوله تعالى:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

ثانيا : ومن أبرز ما اختصت به سورة المعارج من جمل وألفاظ ما يلي:

قوله تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾.

وقوله تعالى : ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾.

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿عِزِينَ﴾.

وقوله تعالى : ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾.

وقوله تعالى : ﴿خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقوله تعالى : ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ ﴾ .

المبحث الثالث

مقاصد سورة المعارج

مقاصد سورة المعارج

قبل الحديث عن مقاصد سورة المعارج ، ينبغي أن أتطرق إلى الظروف والأجواء التي نزلت فيها هذه السورة ؛ لأنه بمعرفتها قد تفتح لنا أبواباً واسعة أمام المقصد الكلي والهدف الرئيس الذي من أجله أنزلت .

فكما هو معلوم ومذكور في حديثنا عن مكية السورة ومدنيتها أن السورة مكية بالإجماع ، وأنها نزلت في وقت كان الاهتمام التشريعي منصبا آنذاك لتقرير العقيدة في نفوس المؤمنين ، والرد على شبهات وتساؤلات الكفار والمشركين ، وخاصة فيما يتعلق بالجانب الغيبي وهو اليوم الآخر وما فيه من البعث والنشور والحساب والجزاء للمؤمنين والكفار .

ولهذا فإنه يمكننا القول بأن المقصد الأعظم من هذه السورة هو بيان حقيقة : « اليوم الآخر وصفات المؤمنين به والمنكرين له ومآلهم فيه » .

قال البقاعي : « مقصودها إثبات القيامة وإنذار من كفر بها وتصوير عظمتها بعظمة ملكها وطول يومها وتسلية المنذر بها ، بما لمن كذبه من الصغار والذل والتبار، ودل على وجوب وقوعها سابقا بما ختمه بتسميتها في السورة الماضية بالحاقة تنبيها على أنه لا بد منها ولا محيد عنها ، ودل على ذلك بالقدرة في أولها ، والعلم في أثنائها ، والتنزه عما في إهمالها من النقص في آخرها »[1].

وقال ابن عاشور : « حوت من الأغراض تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة ، وإثبات ذلك اليوم ، ووصف أهواله ، ووصف شيء من جلال الله فيه، وتهويل دار العذاب وهي جهنم، وذكر أسباب استحقاق عذابها ، ومقابلة ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دار الكرامة ، وهي أضداد صفات الكافرين » [2].

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور : (١١٩/٣) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١١٩/٢٩) .

وقال سيد قطب : « الاتجاه الرئيس في سورة المعارج هو تقرير حقيقة الآخرة ، وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء ، فحقيقة الآخرة هي الحقيقة الرئيسة فيها »[1].

ويمكن إجمال ما تناولته السورة من مقاصد فرعية مرتبطة كلها ارتباطا مباشرا بهذا المقصد الكلي في النقاط التالية :

أولا : التذكير بعظمة الله -تعالى- ، وبيان مظاهر قدرته التي لا يعجزها شيء ، وأن كل ما في هذا الكون لا يخرج عن إرادته ومشيئته ، وترى هذا المقصد واضحا من بداية السورة إلى نهايتها.

ثانيا : التأكيد على وقوع عذاب الله -تعالى- في اليوم الموعود ، وقد جاء هذا المقصد في بداية السورة وفي نهايتها ، قال تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾.

ثالثا : بيان صورة من صور الهزء والسخرية التي كانت تبدو من الكفار نحو النبي -ﷺ- ، والتنديد بأفعالهم ، ويظهر ذلك في افتتاحية هذه السورة بسؤال الكفار العذاب.

رابعا : تثبيت النبي -ﷺ- ، وتسليته على ما يلقاه من أذى المشركين واستهزائهم .

خامسا : تقرير وتصوير النفوس البشرية ، وما طبعت عليه من صفات في الضراء والسراء ، وأن المؤمنين بالله واليوم الآخرين ، المحافظين على أداء الحقوق التي فرضها الله عليهم ، مستثنون من تلك الطبائع ، وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ....﴾.

سادسا : تحذير المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم ، قال تعالى : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٤١﴾.

---

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٦/٣٦٩٣-٣٦٩٤) بتصرف .

قال سيد قطب : « ومن ثم كانت الحقائق الأخرى في السورة كلها متصلة اتصالا مباشرا بحقيقة الآخرة فيها ، من ذلك حديث السورة عن الفارق بين حساب الله في أيامه ، وحساب البشر، وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ...﴾ وهو متعلق باليوم الآخر ، ومنه ذلك الفارق بين النفس البشرية في الضراء والسراء في حالتي الإيمان والخلو من الإيمان. وهما مؤهلان للجزاء في يوم الجزاء ، ومنه غرور الذين كفروا وطمعهم أن يدخلوا كلهم جنات النعيم، مع هوانهم على الله وعجزهم عن التفلت من عقابه ، وهو متصل اتصالا وثيقا بمحور السورة الأصيل ، وهكذا تكاد السورة تقتصر على حقيقة الآخرة وهي الحقيقة الكبرى التي تتصدى لإقرارها في النفوس. مع تنوع اللمسات والحقائق الأخرى المصاحبة للموضوع الأصيل »[1] .

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٦/٣٦٩٣-٣٦٩٤) بتصرف .

المبحث الرابع

الوحدة الموضوعية لسورة المعارج

الوحدة الموضوعية لسورة المعارج

بعد التأمل والنظر في سياق آيات هذه السورة الكريمة والتدبر في كل آية من آياتها ، وجدت أنها سورة تتميز بسياقها الخاص ، وتناسق موضوعاتها الفريد ، مما يسوغ القول بأن لها وحدة موضوعية واضحة .

قال دروزة : «وآيات السورة متوازنة منسجمة مما يسوغ القول بتزولها دفعة واحدة »[1].

وقد قسمت هذه السورة الكريمة على إثر ذلك التأمل والتدبر إلى ثلاثة موضوعات ، وقد جاءت على النحو التالي :

الموضوع الأول : « اليوم الآخر وحال المجرم فيه » .

الموضوع الثاني : « المؤمنون باليوم الآخر صفاتهم وحالهم فيه » .

الموضوع الثالث : « المنكرون لليوم الآخر وبعض أحوالهم » .

وبالنظر إلى هذه الموضوعات الثلاثة بتمعن ، يمكن القول أن السورة الكريمة عالجت موضوعاً رئيسا واحدا يدور حول إثبات وجود اليوم الآخر وما فيه من الأحداث والأهوال وصفات المؤمنين به والمنكرين له ومآل كل منهم .

فالسورة الكريمة أرى في مطلعها وفي أول موضوعاتها ، أن السياق يظهر جانبا من استهزاء المشركين بما أخبرهم به النبي -ﷺ- من بعث وثواب وعقاب ، ويرد عليهم بما يكبتهم، حيث يؤكد أن يوم القيامة حق ، وأنه واقع ، وأن أهواله شديدة ، وأحداثه عظيمه

(١) التفسير الحديث : (٣٩٢/٥) .

، ومن ذلك ما يحصل من المجرم عند رؤيته للعذاب من الافتداء بأقرب الأقربين إليه وبأعز الأشياء إلى نفسه، لكي ينجو من عذاب ذلك اليوم ، ولكن هيهات هيهات ، قال تعالى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ ﴾.

ثم يأتي البيان بعد ذلك لمدح المحافظين على صلاتهم ، وعلى أداء حقوق الله -تعالى-في الأموال والفروج ، فهم يؤمنون بذلك اليوم الآخر ، ويستعدون له بالإيمان والعمل الصالح ، وأن مآلهم الجنات في ذلك اليوم ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥ ﴾.

وتـــأتي تسلية النبي -ﷺ- في آخرها ، وذلك بذكر حال هؤلاء المنكرين لليوم الآخر ، ثم تذكر الآيات مظاهر قدرة الله -ﷻ- التي لا يعجزها شيء ، وأن إعادة وبعث أجساد هؤلاء الكفار أهون عند الله من خلقهم، ثم تأمر الآيات النبي -ﷺ- بترك هؤلاء المنكرين للبعث يخوضون ويلعبون في دنياهم، فإن في انتظارهم يوما عصيبا رهيبا سيخرجون فيه من قبورهم إلى أرض المحشر مسرعين ، قد بدت على أبصارهم آثار الخشوع والخضوع ، واستولت عليهم المذلة الشديدة ، وأهكت نفوسهم بوطأتها القوية ، لهول العذاب الذي

يواجهونه في ذلك اليوم الذي لم يعملوا له حسابا، ولم يصدقوا به ، وها هو قد جاءهم بالعذاب الذي كانوا يسألونه ، ويتوعدون به في الدنيا ، قال تعالى : ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فالمتدبر في هذه السورة الكريمة ، من أول موضوعاتها ، إلى آخرها ، يرى أنها تركز الحديث على موضوع واحد وهو بيان حقيقة اليوم الآخر ، والتذكير بأهواله وشدائده ، وما فيه من حساب وجزاء ، ومآل المؤمنين به والمنكرين له .

فخلاصة القول في الوحدة الموضوعية للسورة ، أن هذه السورة جاء البيان في عمومها نسقاً واحداً ، وعقداً منتظماً ، في التذكير باليوم الآخر ، الذي هو محورها الأساس ، ومقصدها العام .

المبحث الخامس

مناسبات سورة المعارج

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : مناسبة سورة المعارج لما قبلها وما بعدها.

المطلب الثاني : مناسبة اسم سورة المعارج لموضوعاتها .

المطلب الثالث : مناسبة فاتحة سورة المعارج لموضوعاتها .

المطلب الرابع : مناسبة فاتحة سورة المعارج لخاتمتها .

المطلب الأول
مناسبة سورة المعارج لما قبلها وما بعدها

أولا : مناسبة سورة المعارج لسورة الحاقة التي قبلها :

لا ريب أن فهم العلاقات التناسبية ، والروابط التناسقية بين سورة المعارج والحاقة ، مما يعين على فهمٍ أدق لجوهر السورة نفسها ، ويمكن أن نلحظ أن هناك وشائج وتناسقا واضحا بينهما، وخاصة أن بعض العلماء ذكر أن نزول سورة المعارج بعد سورة الحاقة[1] ، وأيضا فإن محور كل منهما يتناول الحديث عن اليوم الآخر وما فيه من البعث والنشور والحساب والجزاء ، ففي الحاقة التركيز على أحوال وتغيرات الكون في اليوم الآخر ، بينما في المعارج جاء التركيز على حال الإنسان نفسه في اليوم الآخر ، وسأتناول ذلك من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : مناسبة فاتحة السورتين :

افتتحت سورة الحاقة بذكر اليوم الآخر وتهويل شأنه ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ ، وهذا ما بيّن وفصل في فاتحة سورة المعارج ، من خلال ذكر ملك ومالك العذاب في ذلك اليوم ، والمتصرف فيه ، قال تعالى : ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾، كما جاء بيان مقدار ذلك اليوم في قوله تعالى : ﴿...فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾[2].

الجانب الثاني : مناسبة فاتحة سورة المعارج لخاتمة سورة الحاقة :

اختتمت سورة الحاقة بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾ ، ومن المعلوم أن التسبيح معناه : «تنزيه الله تعالى» ، وحيث إن المشركين لم يكونوا يتزهون الله -تعالى- ، جاء في افتتاحية سورة المعارج ما يدل على ذلك ، بل كانوا يشكون في قدرة الله تعالى

---

(١) الاتقان : (١٩/١) .

(٢) جواهر البيان في تناسب سور القرآن : (١٢٩) .

وحكمته ، وبالتالى فهم يسألون سؤال من هو منكر لذلك اليوم الذي هو من مظاهر قدرة الله -تعالى-وحكمته ، قال تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾.

قال البقاعي : « لما ختم أمر الطامة الكبرى في الحاقة حتى ثبت أمره، وتساوى سره وجهره، ودل عليها حتى لم يبق هناك نوع لبس في وجوب التفرقة في الحكمة بين المحسن والمسيء، وختم بأنّ ترك ذلك منافٍ للكمال فيما نتعارفه من أمور العمال بعد أن أخبر أنه يعلم أن منهم مكذبين، وكان السائلُ عن شيء يدل على أن السائلَ ما فهمه حق فهمه ، ولا اتصف بحقيقة علمه ، عجِب في أول هذه ممن سأل عنها فقال: ﴿سَأَلَ﴾ ودل على أنه لو لم يسأل عنها إلا واحد من العباد لكان جديراً بالتعجب منه والإنكار عليه بالإفراد»[1].

الجانب الثالث: مناسبة موضوعات السورتين :

أ) جاء الحديث في سورة الحاقة عما يلقى عموم الكفار من عذاب ونكال يوم القيامة ، وأنهم يسحبون فى سلاسل إلى النار، ويسجرون فيها، ثم يطعمون غسلينها وزقومها ، ولما كان هذا الحديث لا يلقى من مشركي مكة إلا الهزء والسخرية ، والتحدّى ؛ لأنهم لا يؤمنون أصلا بذلك اليوم الذي يكون فيه العذاب، ومن ثم فلا يصدقون بما وراءه من البعث والحساب والجزاء، جاءت سورة «المعارج» متوعدة بالعذاب لهؤلاء المكذبين بيوم القيامة .

ب) ذكر في سورة الحاقة ما سيحصل من حوادث كونية ، ففيما يتعلق بالسماء ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ وفي سورة المعارج ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ وأما الجبال ففي سورة الحاقة ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ ، وفي سورة المعارج ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ .

(١) نظم الدرر : (٣٨٩/٢٠) .

ج) في كلتا السورتين ذكر للأقوام المكذبة ، وما آل إليه حالهم ، ففي سورة الحاقة ذكر للأقوام المكذبة من الأمم السابقة ، وفي سور المعارج ذكر للمكذبين من هذه الأمة بيوم البعث.

د) في كلتا السورتين تعريض بكبار مشركي قريش ، ففي سورة المعارج ذكر لما يتحسر عليه المكذبون بعد البعث ، قال تعالى : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ ، وقال في سورة الحاقة ذاكرا حسرة المكذبين : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

ه) في كلتا السورتين ذكر لصفات المشركين المكذبين ، ففي سورة الحاقة قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ، وفي سورة المعارج قال تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن الكافر لم يمنع المال عن مستحقيه إلا ليجمع أكبر قدر منه ، وهذه الصفة نفاها الله –وَجَلَّ– عن المؤمنين في سورة المعارج ، فقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [1].

قال الإمام أبو جعفر ابن الزبير: « لما انطوت سورة الحاقة على أشد وعيد وأعظمه اتبعت بجواب من استبطأ ذلك واستبعده، إذ هو مما يلجأ إليه المعاند الممتحن فقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ ﴾ ، ثم ذكر حالهم إذاك ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴾الآيات. ثم أتبع بأن ذلك لا يغني عنه ولا يفيده ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾ ثم ختمت السورة بتأكيد الوعيد وأشد التهديد ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ أي: ذلك يوم الحاقة ويوم القارعة» [2].

(١) موسوعة التفسير الموضوعي : (٣٧٣/٨) .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن : (٣٤٦) .

ثانيا : مناسبة سورة المعارج لسورة نوح التي بعدها :

إن الصلة والمناسبة بين سورتي المعارج ونوح واضحة وجلية ، ولعلها تتضح أكثر من خلال الجوانب التالية :

الجانب الأول : مناسبة فاتحة السورتين :

افتتحت سورة المعارج بسؤال الكفار للعذاب ، قال تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ وجاءت فاتحة نوح بأمر الله تعالى لنوح -عليه الصلاة والسلام- بإنذار قومه من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، قال تعالى: ﴿...أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ ، وفي هذه الفاتحة تنصيص على العذاب من دون تحديد لمكانه ، هل هو العذاب الدنيوي أو الأخروي ، أو الاثنين معا .

قال السيوطي : « أكثر ما ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر: أنه -ﷺ- لما قال في "سأل": ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ عقبه بقصة قوم نوح، المشتملة على إغراقهم عن آخرهم ؛ بحيث لم يبقَ منهم ديار وبدل خيرًا منهم ، فوقعت موقع الاستدلال والاستظهار لتلك الدعوى، كما وقعت قصة أصحاب الجنة في سورة "ن" موقع الاستدلال والاستظهار لما ختم به تبارك ، هذا مع تآخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرين »[1].

الجانب الثاني : مناسبة خاتمة المعارج لفاتحة نوح :

اختمتت سورة المعارج بالتأكيد على وجود البعث ، وأن المشركين سيخرجون ذلك اليوم الموعود الذي أنكروه وكذبوه ، والذلة تغشاهم ، والخشوع باد على أبصارهم ، قال تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ثم افتتحت سورة نوح بمثال من الأمم السابقة التي كذبت ذلك اليوم الموعود وأنكرت وجود البعث ، قال تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

(١) تناسق الدرر في تناسب السور : (١٢٩) .

﴿٢﴾.

الجانب الثالث : مناسبة موضوعات السورتين :

أ) لما كان محور سورة المعارج هو اليوم الآخر وصفات المؤمنين به والمنكرين له ، جاء الحديث في سورة نوح عن الفريق الذي أنكر اليوم الآخر ، وعرضت نماذج من سلوكهم وأخلاقهم مع نبيهم والتي لا تبعد كثيرا عن تصرفات المنكرين له في كل زمان ومكان ، ومنهم مشركو مكة ، وبعد ذلك ذكرت السورة عقاب قوم نوح في الدنيا والآخرة ، تعريضا بمشركي قريش ، علهم يرتدعون ويأخذون العبرة من هذه السورة .

ب) لما أمر الله تعالى نبيه-ﷺ-في سورة المعارج بالصبر في قوله تعالى:﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾ وجليل الإغضاء في قوله : ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ أتبع ذلك بذكر قصة نوح -عليه السلام- وتكرر دعاء قومه إلى الإيمان ، وخص من خبره : حاله في طول مدة التذكار والدعاء ؛ لأنه المقصود في الموضع ؛ ليتأسى به في الصبر والرفق في الدعاء ، كما قيل له -ﷺ- في غير هذا الموضع : ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥][1].

ج) ورود قصة نوح -عليه الصلاة والسلام- عقب بيان موقف مشركي مكة من دعوة النبي -ﷺ-فيه تسلية النبي-ﷺ-والمؤمنين معه ، فلا ينبغي الاغترار بكثرة العدد ، فقوم نوح-عليه السلام-ما آمن منهم إلا قليل ، ومع ذلك فإن الغلبة والنصر في الدنيا كانا لمن آمن منهم.

د) ذكرت سورة المعارج قضية البعث ، ولم تسهب في ذكر أدلة تفصيلية عليه ، وقد تولت سورة نوح تفصيل ذلك من خلال اثبات قدرة الله تعالى بدءا من قوله تعالى : ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾ .

ه) ذكر الله -عز وجل- في سورة المعارج في معرض الرد على المشركين المنكرين لليوم الآخر

(١) البرهان في تناسب سور القرآن : (٣٤٧) .

وما فيه من البعث ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وفي سورة نوح جاء قوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ وذلك في الاستدلال على قدرة الله تعالى ، وهو على وجازته أكثر تفصيلا مما في سورة المعارج [1].

المطلب الثاني
مناسبة اسم سورة المعارج لموضوعاتها

ذكرت في مبحث أسماء السورة[2] ، أن للسورة ثلاثة أسماء : وهي : المعارج ، وسأل ، والواقع .

ويمكن استنباط المناسبة من هذه الأسماء الثلاثة وبين الموضوعات الثلاثة التي وضعتها للسورة الكريمة بأن يقال : إن التسميات الثلاثة المذكورة للسورة كلها راجعة إلى تسمية واحدة وهي التسمية الأولى (المعارج) وذلك أن التسمية الثانية (سأل) تدل على أن الأمر المسؤول عنه أمر خطير ، وهول عظيم ، ينبغي بيانه ، وهو اليوم الآخر ، وما يكون فيه من العذاب ، وكذلك التسمية الثالثة (الواقع) صفة لذلك اليوم الذي لا شك في وقوعه .

ولهذا يمكن استنباط علاقة التسمية الأولى بالمحور الأساس للسورة ، من خلال معرفة ما ورد في الآيات أن اليوم الآخر فيه معارج ومصاعد أعدها الله لملائكته ، ودرجات عالية لعباده المؤمنين .

وعلاقتها بالموضوع الأول وهو : «**اليوم الآخر وحال المجرم فيه** » يتضح من خلال أنها تتحدث عن أهوال اليوم الآخر وما يكون فيه حال المجرم .

وعلاقتها بالموضوع الثاني وهو : « **المؤمنون باليوم الآخر صفاتهم وحالهم فيه** » يتضح من خلال أن تلك الصفات المذكورة للمؤمنين هي التي أهلتهم لتبؤ الدرجات العالية في الجنة.

---

(١) موسوعة التفسير الموضوعي : (٣٨٨/٨) .

(٢) في صفحة : (١٤٦-١٤٧) .

وعلاقتها بالموضوع الثالث وهو: «المنكرون لليوم الآخر وبعض أحوالهم » يتضح من خلال ذكر الشيء وضده ، وأنهم في دركات لا درجات .

ولهذا قال البقاعي : «وعلى هذا المقصد دل كل من أسمائها "سأل والواقع والمعارج" وهي أنسب ما فيها للدلالة على ذلك »[1] .

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور : (١٢١/٣) .

المطلب الثالث
مناسبة فاتحة سورة المعارج لموضوعاتها

إن سورة المعارج بجميع موضوعاتها تتحدث عن اليوم الآخر وصفات المؤمنين به والمنكرين له، وبعض أحوالهم ، فجاءت فاتحتها تتحدث عن سؤال المشركين عن العذاب الذي يقع عليهم في اليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ .

ففي هذه الفاتحة إشارة إلى عدم اقتناع هؤلاء الكفار بوجود اليوم الآخر وما فيه من البعث والحساب والجزاء ، بل والسخرية منه والاستهزاء به ، فأكد -ﷻ- أن ذلك العذاب واقع بهم، وأن ذلك اليوم مقداره خمسين ألف سنة، وأنهم يرونه بعيدا إلا أنه في الحقيقة قريب ليس ببعيد، ثم ذكرت الفاتحة بعض المقدمات التي تحصل قبل ذلك ، من تحول السماء إلى المهل ، وصيرورة الجبال كالعهن ، وأن ذلك اليوم يخاف ويرعب فيه الجميع ، ولا يستطيعون الحديث حتى مع أقرب الأقربين إليهم .

فخلاصة القول في مناسبة فاتحة سورة المعارج لموضوعاتها ، أن وحدة سورة المعارج الموضوعية اتضحت من خلال فاتحتها ، وأن جميع موضوعاتها مستمدة منها ، ومن مضامين تلك الفاتحة.

المطلب الرابع
مناسبة فاتحة سورة المعارج لخاتمتها

إن مناسبة افتتاحية سورة المعارج بخاتمتها واضحة جدا ، حيث بدأت بوعيد للكفار المنكرين لليوم الآخر بعذاب واقع ، قال تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ وختمت ببيان حالهم ومآلهم في ذلك اليوم الموعود ، حيث قال تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ .

قال السيوطي : « بدئت بالوعد بيوم القيامة وختمت به »[1].

وأيضا فإنه جاء في افتتاحية السورة الكريمة أمر النبي -ﷺ- بالصبر الجميل على ما يلقاه من المشركين المنكرين لليوم الآخر ، قال تعالى : ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ وفي خاتمتها أمر له بتركهم يخوضون ويلعبون حتى يجدوا جزاءهم في ذلك اليوم الموعود ، قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢﴾.

(١) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع : (١٦٩-١٧٠) .

الفصل الثاني

موضوعات سورة المعارج وتناسقها

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : بين يدي موضوعات سورة المعارج .

المبحث الأول : اليوم الآخر ، وحال المجرم فيه ، ويشمل الآيات : (١-٢١) . وفيه أربعة مطالب .

المبحث الثاني : المؤمنون باليوم الآخر ، صفاتهم ، وحالهم فيه ، ويشمل الآيات : (٢٢-٣٥) . وفيه خمسة مطالب .

المبحث الثالث : المنكرون لليوم الآخر ، وبعض أحوالهم ، ويشمل الآيات : (٣٦-٤٤) . وفيه خمسة مطالب .

التمهيد

بين يدي موضوعات سورة المعارج

التمهيد

اشتملت سورة المعارج على بعض الموضوعات ، ويمكن إجمالها في ثلاثة موضوعات وهي :

الموضوع الأول : « **اليوم الآخر وحال المجرم فيه** » ، ويشمل الآيات (١-٢١) ، حيث جاء فيها ذكر سؤال سائل عن عذاب الله تعالى ، وبيان الله تعالى أن هذا العذاب واقع لا محالة على الكفار ، وأن ذلك سيكون في اليوم الآخر ، ثم ذكرت بعض الأوصاف والأهوال الواقعة في ذلك اليوم ، وما يكون فيه حال المجرم الكافر .

الموضوع الثاني : « **المؤمنون باليوم الآخر صفاتهم وحالهم فيه** » ، ويشمل الآيات (٢٢-٣٥) ، حيث جاء في هذه الآيات ذكر صفات المؤمنين باليوم الآخر ، وما سيكون عليه حالهم في ذلك اليوم .

الموضوع الثالث : « **المنكرون لليوم الآخر وبعض أحوالهم** » . ويشمل الآيات (٣٦-٤٤) ، حيث جاء في هذه الآيات بيان حال المنكرين للبعث في اليوم الآخر ، ومقارنة حالهم في الدنيا بحالهم في الآخرة .

المبحث الأول

اليوم الآخر ، وحال المجرم فيه

ويشمل الآيات (١-٢١) ، وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع .

المطلب الثالث : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الرابع : مما ترشد إليه الآيات .

اليوم الآخر ، وحال المجرم فيه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الله تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

المطلب الأول
ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة

بعد التأمل والتدبر في آيات هذا الموضوع ، نلحظ ارتباط هذا الموضوع الأول بالمحور الأساس للسورة وهو (اليوم الآخر وصفات المؤمنين به والمنكرين له وبعض أحوالهم) ، وذلك أن في افتتاح آيات هذا الموضوع بذكر سؤال سائل عن العذاب الواقع على الكفار ، إيحاء إلى أنه سؤال استهزاء وسخرية وإنكار من السائل لهذا العذاب الواقع ، فجاء البيان الصريح في هذه الآيات بأن هذا العذاب سيقع في اليوم الآخر ، ثم ساقت آيات الموضوع صورا من أهوال اليوم الآخر ، ثم عقبت على ذلك ببيان حال المجرم المنكر لذلك اليوم ، وما ينتظره من العذاب الأليم فيه .

المطلب الثاني
التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع

قوله تعالى : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ هذه الجملة تحتمل وجوها من التفسير ذكرها العلماء :

الأول : أن هذا السؤال صادر من أحد الكفار ، ومعنى قوله : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ أي: دعا داع بعذاب واقع، من قولك : دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، وعلى هذا القول تقدير الباء للتوكيد، وتأويل الآية : سأل سائل عذابا واقعا .

قال الزمخشري: «ضمن سَأَلَ معنى دعا،فعدّى تعديته،كأنه قيل:دعا داع بِعَذابٍ واقِعٍ»(١).

الثاني : أن هذا السؤال صادر من جماعة وهم مشركو قريش ، وذلك أنه لما بعث الله محمدا -ﷺ- وخوف المشركين بالعذاب ، قال المشركون : بعضهم لبعض سلوا محمدا لمن هذا العذاب وبمن يقع ، فأخبره الله عنه بقوله : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ والتأويل على هذا القول : سأل سائل عن عذاب والباء بمعنى عن .

وقال ابن عاشور : « ومن بلاغة القرآن تعدية سأل بالباء ليصلح الفعل لمعنى الاستفهام والدعاء والاستعجال ؛ لأن الباء تأتي بمعنى (عن) ، وهو من معاني الباء الواقعة بعد فعل السؤال نحو : ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]»(٢).

الثالث : أن هذا السائل هو رسول الله -ﷺ- استعجل بعذاب الكافرين ، فبين الله تعالى أن هذا العذاب واقع بهم ، فلا دافع له ، قالوا : والذي يدل على صحة هذا التأويل ، قوله تعالى في آخر الآية : ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ وهذا يدل على أن ذلك السائل هو الذي أمره بالصبر الجميل(٣) .

---

(١) الكشاف : (٦٠٨/٤) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٥/٢٩) .

(٣) مفاتيح الغيب : (٦٣٧/٣٠) .

قال ابن عاشور : « وقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ بمنزلة سئل لأن مجيء فاعل الفعل اسم فاعل من لفظ فعله لا يفيد زيادة علم بفاعل الفعل ما هو، فالعدول عن أن يقول: سئل بعذاب إلى قوله سأل سائل بعذاب، لزيادة تصوير هذا السؤال العجيب »(١).

وقال سيد قطب : « وعلى أية حال فالسورة تحكي أن هناك سائلا سأل وقوع العذاب واستعجله ، وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلا ؛ لأنه كائن في تقدير اللّه من جهة ؛ ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى. وأن أحدا لا يمكنه دفعه ولا منعه ، فالسؤال عنه واستعجاله – وهو واقع ليس له من دافع – يبدو تعاسة من السائل المستعجل فردا كان أو مجموعة! وهذا العذاب للكافرين..إطلاقا.. فيدخل فيه أولئك السائلون المستعجلون كما يدخل فيه كل كافر»(٢).

وفي تعيين العذاب في قوله : ﴿بِعَذَابٍ﴾ قولان : أحدهما : أنه العذاب في الآخرة ، الثاني: أنها نزلت بمكة وعذابه يوم بدر بالقتل والأسر (٣).

وفي تنكير العذاب هنا دلالة على عظمه وشدته، أي:سأل سائل عن عذاب عظيم جدا(٤).

وقوله : ﴿وَاقِعٍ﴾ في وصف العذاب بأنه واقع ، وما بعده من أوصافه إلى قوله : ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ إدماج معترض ؛ ليفيد تعجيل الإجابة عما سأل عنه سائل بكلا معنيي السؤال ؛ لأن السؤال لم يحك فيه عذاب معين، وإنما كان مجملا ؛ لأن السائل سأل عن عذاب غير موصوف، أو الداعي دعا بعذاب غير موصوف، فحكي السؤال مجملا ؛ ليرتب عليه وصفه بهذه الأوصاف والتعلقات، فينتقل إلى ذكر أحوال هذا العذاب وما يحف به من الأهوال، وقد طويت في مطاوي هذه التعلقات جمل كثيرة ، كان الكلام بذلك إيجازا ، إذ حصل خلالها ما يفهم منه جواب السائل، واستجابة الداعي، والإنباء بأنه عذاب واقع عليهم من الله، لا يدفعه عنهم دافع، ولا يغرهم تأخره ، وهذه الأوصاف من قبيل الأسلوب الحكيم ؛ لأن ما

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٥/٢٩) .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٥/٦) .

(٣) النكت : (٩٠/٦) .

(٤) نظم الدرر : (٣٩٠/٢٠) .

عدد فيه من أوصاف العذاب وهوله ووقته هو الأولى لهم أن يعلموه ليحذروه ، دون أن يخوضوا في تعيين وقته[١].

وقوله : ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عبر باللام هنا بدلا من (على) تهكماً منهم ، وأن العذاب الواقع نازل لهم ، ومن أجلهم[٢] .

ولما أخبر -سبحانه وتعالى- بحتمية وقوعه علله بقوله : ﴿لَيْسَ لَهُۥ﴾ أي: بوجه من الوجوه، ولا حيلة من الحيل ﴿دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلا أمر لأحد مع الله تعالى ، وإذا لم يكن له دافع منه فغيره من باب أولى [٣].

وقوله : ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ المعارج جمع معرج وهو المصعد ، وفي المراد به وجوه :

أحدها : ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: معارج السموات، وسماها معارج؛لأن الملائكة يعرجون فيها.

ثانيها : ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي : ذي الدرجات التي يعطيها أولياءه في الجنة .

ثالثها : ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي : ذي الفواضل والنعم ، وذلك لأن لأياديه ووجوه إنعامه مراتب ، وهي تصل إلى الناس على مراتب مختلفة .

رابعها : ذي العظمة والعلاء .

خامسها : ذي الملائكة ، لأنهم كانوا يعرجون إليه[٤].

ولا يمتنع حمل الآية على هذه المعاني كلها .

قال ابن عاشور : « وإجراء وصف ذي المعارج على اسم الجلالة ؛ لاستحضار عظمة جلاله ولإدماج الإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء ، قال تعالى : ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف:

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (٢٩/١٥٥-١٥٦) .

(٢) انظر : الكشاف : (٤/٦٠٩) ، نظم الدرر : (٢٠/٣٩٠) .

(٣) نظم الدرر : (٢٠/٣٩٠) بتصرف .

(٤) انظر : النكت والعيون : (٦/٩٠) ، مفاتيح الغيب : (٣٠/٦٣٨) .

٣٣] . ولكل درجة من المعارج قوم عملوا لنوالها قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة : ١١] ، وليكون من هذا الوصف تخلص إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحق للكافرين »[١].

وبعد هذا الافتتاح الذي يقرر كلمة الفصل في موضوع العذاب ، ووقوعه ، ومستحقيه ، ومصدره ، وعلو هذا المصدر ورفعته ، مما يجعل قضاءه أمرا علويا نافذا لا مرد له ولا دافع ، بعد هذا أخذ في وصف ذلك اليوم الذي سيقع فيه هذا العذاب[٢]، فقال تعالى : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ .

وقوله : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وذلك لكونهم أشد الخلق وأقدرهم على اختراق الطباق ، والإسراع في النفوذ حتى يكونوا أعظم من لمح البرق الخفاق[٣].

وقوله : ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ يطلق الروح في الأصل اسما للجزء الذي به تحصل الحياة والتحرك، واستجلاب المنافع واستدفاع المضار[٤] ، وقد اختلف العلماء في المراد به هنا ، فقال الجمهور : أن المراد بالروح هنا : هو جبريل -عليه السلام-، وإنما أفرده بالذكر وخصه بذلك لكونه أعظم الملائكة قدرا ، وأعلاهم مكانة ، وأنبلهم فضلا [٥] .

وقيل : يجوز أن يكون مما شمله قوله : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ ، أي : أرواح أهل الجنة على اختلاف درجاتها في المعارج[٦].

وقيل : خلق من الملائكة حفظة عليهم ، كما أنّ الملائكة حفظة على الناس[٧].

وفي قوله تعالى : ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ اختلف علماء التفسير في صلة

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٦/٢٩) .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٥/٦) .

(٣) نظم الدرر : (٣٩١/٢٠) .

(٤) انظر : المفردات في غريب القرآن : (٣٦٩) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٥٧/٢٩) .

(٥) انظر : الكشاف : (٦٠٩/٤) ، المحرر الوجيز : (٣٦٥/٥) .

(٦) انظر : مفاتيح الغيب : (١٥٧/٢٩) . وانظر : التحرير والتنوير : (١٥٧/٢٩) .

(٧) انظر : الكشاف : (٦٠٩/٤) ، المحرر الوجيز : (٣٦٥/٥) .

قوله تعالى : ﴿فِي يَوْمٍ﴾ وذكروا أنها إما أن تكون صلة ﴿تَعْرُجُ﴾ ، أي : يحصل العروج في مثل هذا اليوم ، وإما أن تكون صلة : ﴿بعذاب واقع﴾ وعلى الأخير يكون في الآية تقديم وتأخير والتقدير : سأل سائل بعذاب واقع في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

واختلفوا كذلك في تعيين ذلك اليوم هل هو في الدنيا أم في الآخرة ، فذهب مجاهد وعكرمة[1] إلى أن المراد تقدير مدة الدنيا وأنها خمسون ألف سنة ، لا يدري أحد ما مضى منها ولا ما بقي، فالمعنى : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ ، أي : في مدة الدنيا[2].

وعلى هذا المذهب فإن السر في الارتباط بين سؤال السائل والعذاب الواقع ، وبين عروج الملائكة وترددها بين الله -ﷻ- وبين هذه الأكوان بما يريده منها ويقضيه فيها هو التنبيه إلى أن هذا العذاب الذي سأله الكفار ويرونه بعيدا لأجل طول مدة الدنيا في نظرهم ، مع أنها ليست كذلك عند الله تعالى ، وبالنسبة إلى الأحقاب التي تربط الأبد بالأزل، سوى يوم واحد تعرج فيه الملائكة إلى الله بالتدبير لهذه الدنيا التي تروها خمسين ألف سنة ، فما لكم تستعجلون العذاب؟ فهؤلاء يرون العذاب بعيدا جدّا ؛ لأن الدنيا في نظرهم طويلة جدّا ، وأما عند الله فالدنيا يوم واحد وزمن قليل فمالكم تستبطئون الحساب؟[3] قال تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧].

وذهب أكثر العلماء إلى أن ذلك اليوم يكون في الآخرة وأن العروج يقع في يوم من أيام الآخرة ، وأن المدة المذكورة ليوم واحد فقط وليس لمدة اليوم الآخر إذ لو كان كذلك لحصلت له غاية ولفنيت الجنة والنار عند تلك الغاية وهذا غير جائز ، بل المراد أن موقفهم

---

(١) هو العلامة ، الحافظ ، المفسر ، أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله المدني القرشي ، بربري الأصل ، مولى ابن عباس ، من كبار التابعين ، قال عنه النسائي : ثقة ، ووثّقه ابن معين وأبو حاتم والعجلي ، مات سنة خمس ومائة . انظر : الذهبي، سير أعلام النبلاء : (٥/١٢-٣٦) ؛ وابن حجر ، تهذيب التهذيب : (٧ /٢٦٣-٢٧٣) .

(٢) انظر : المحرر الوجيز : (٥/٣٦٥) ، مفاتيح الغيب : (٣٠/٦٣٩) . وانظر : التحرير والتنوير : (٢٩/١٥٧) .

(٣) التفسير الواضح : (٣/٧٤٥) .

للحساب حتى يفصل بين الناس خمسون ألف سنة من سني الدنيا ، وهذا على سبيل التقدير لا على سبيل التحقق[١].

واتفقوا على أن هذا الطول إنما يكون في حق الكافر، أما في حق المؤمن فلا ، والدليل عليه من الكتاب والسنة .

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

واتفقوا على أن ذلك المقيل والمستقر هو الجنة .

وأما السنة فما روي عن أبي سعيد الخدري قيل: يا رسول الله ما أطول يوما مقداره خمسون ألف سنة، فقال: «والذي نفسي بيده ليخف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة »[٢] [٣].

وعروج الملائكة والروح في هذا اليوم إيحاء بأهميته في هذا اليوم وخصوصيته ، وهم يعرجون في شؤون هذا اليوم ومهامه ، ولا ندري طبيعة هذه المهام ، ولا كيف يصعد الملائكة ، فهذه كلها تفصيلات في شأن الغيب لا تزيد شيئا من حكمة النص ، وليس لنا إليها من سبيل ، وليس لنا عليها من دليل ، فحسبنا أن نشعر من خلال هذا المشهد بأهمية ذلك اليوم ، الذي ينشغل فيه الملائكة والروح بتحركات تتعلق بمهام ذلك اليوم العظيم[٤].

ولما كان مشركو قريش قد سألوا استعجال العذاب ، وكان السؤال على سبيل الاستهزاء والتكذيب ، وكانوا قد وعدوا به ، أمر الله تعالى نبيه – ﷺ – بالصبر [٥] ، فقال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة ، وتكررت لكل رسول ، ولكل مؤمن يتبع الرسول ، وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة

(١) انظر : المحرر الوجيز : (٣٦٥/٥) ، مفاتيح الغيب : (٦٣٩/٣٠) . وانظر : التحرير والتنوير : (١٥٧/٢٩) .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده : (٢٤٦/١٨) برقم : (١١٧١٧) ، وابن جرير الطبري في تفسيره : (٧٢/٢٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد : (٣٣٧٠/١) ، وقال : « رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن على ضعف في راويه » .

وحَسن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح : (٤٤٨/١١) .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب : (١٥٧/٣٠) . وانظر : التحرير والتنوير : (١٥٧/٢٩) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٦/٦) ، بتصرف .

(٥) البحر المحيط : (٢٧٣/١٠) .

الطريق ، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد[١].

فالفاء في قوله : ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ لتفريع الأمر بالصبر على جملة ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ لأن استعجال المستعجلين بالعذاب بالسؤال عنه إنما كان على وجه الاستهزاء والتعريض بالتكذيب برسول الله -ﷺ- والوحي الذي جاء به ، وكان ذلك مما يضجر رسول الله -ﷺ- ، ومن شأنه أن لا تصبر عليه النفوس في العرف فأمر بالصبر عليه[٢].

والصبر الجميل قيل : إنه الصبر الذي ليس فيه جزع ، وقيل : الصبر الذي لا بث فيه ولا شكوى. وقيل : إنه الانتظار من غير استعجال ، وقيل : إنه المجاملة في الظاهر[٣] .

قال ابن عاشور : « الصبر الجميل : الصبر الحسن في نوعه وهو الذي لا يخالطه شيء مما ينافي حقيقة الصبر، أي : اصبر صبرا محضا، فإن جمال الحقائق الكاملة بخلوصها عما يعكر معناها من بقايا أضدادها » [٤].

ولما كان سؤال السائل عن العذاب سؤال استهزاء وتكذيب ، ذكر الله تعالى علة ذلك الاستهزاء والتكذيب ، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ أي : سألوا ذلك لأنهم يرونه محالا .

قال البقاعي : « ولما كان كونه تعالى ، بما تقدم في العظمة، أمراً معلوماً بما له من الآثار من هذا الكون وما فيه، وكان استبعادهم لما أخبر به أمراً واهياً ضعيفاً سفسافاً لا يكاد يصدق أن أحداً يحاول أن يرد به هذه الأمور التي هي في وضوحها كالشمس لا خفاء بها أصلاً ولا لبس قال مؤكداً: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ »[٥] .

فالضمير في قوله : ﴿يَرَوۡنَهُۥ﴾ إما أنه عائد إلى العذاب الواقع ، أو أنه عائد إلى : ﴿فِي

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٦/٦) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٨/٢٩).

(٣) النكت والعيون : (٩١/٦) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٨/٢٩).

(٥) نظم الدرر : (٣٩٣/٢٠) .

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ، فالبعيد هنا كناية عن معنى الإحالة ؛ لأنهم لا يؤمنون بوقوع العذاب الموعود به ، ولكنهم عبروا عنه ببعيد تشكيكا للمؤمنين ، فقد حكى الله عنهم أنهم قالوا : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق:٣]، وفي ذلك تجهيل لهم إذ اغتروا بما هم فيه من الأمن ومسالمة العرب لهم ومن الحياة الناعمة فرأوا العذاب الموعود بعيدا، إن كان في الدنيا فلأمنهم، وإن كان في الآخرة فلإنكارهم البعث [١].

ولما كان الله -ﷻ- قد أمر نبيه-ﷺ- بالصبر الجميل، ذكر علة ذلك فقال: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ أي : عليك بالصبر ؛ لأنا نعلم تحققه وإتيانه فهو هين في قدرتنا ، غير بعيد علينا ولا متعذر، وكل ما هو آت قريب ، فاستعمال البعد والقرب هنا في الإمكان لا في المسافة[٢].

ولما ذكر الله-ﷻ-سؤال السائل عن العذاب وأن ذلك اليوم الذي سيقع فيه تعرج الملائكة والروح إليه، وأن ذلك اليوم مقداره خمسين ألف سنة، ذكر أوصافا لذلك اليوم، مبينا عظمته[٣].

فالصفة الأولى : أن السماء تكون فيه كالمهل ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ، ومعنى المهل : دردي الزيت ، أو مذاب الرصاص والنحاس والفضة[٤]، ومعنى الآية : أن السماء في انحلال أجزائها في ذلك اليوم تشبه انحلال تماسك الزيت أو مذاب الرصاص والنحاس والفضة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾[٥]. [الرحمن:٣٧].

والصفة الثانية : أن الجبال تكون في ذلك اليوم كالعهن ، قال تعالى : ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ ، ومعنى العهن في اللغة : الصوف المصبوغ ألوانا مختلفة[٦]، فإيثار العهن بالذكر

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٨/٢٩) .

(٢) انظر : المحرر الوجيز : (٣٦٦/٥) ، مفاتيح الغيب : (٦٤٠/٣٠) . والبحر المحيط :(٢٧٣/١٠) ، ونظم الدرر: (٣٩٣/٢٠-٣٩٤) ، وانظر : التحرير والتنوير : (١٥٨/٢٩) .

(٣) نظم الدرر: (٣٩٤/٢٠) .

(٤) المفردات في غريب القرآن : (٧٨١) .

(٥) انظر : التحرير والتنوير : (١٥٩/٢٩) .

(٦) المفردات في غريب القرآن : (٥٩٢) .

لإكمال المشابهة ، لأن الجبال ذات ألوان ، كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[فاطر : ٢٧] فإذا النحل تماسك أجزائها ، وبست وطيرت في الجو ، أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح ، وتفرق بعد اجتماع[١].

قال سيد قطب : « ثم يرسم مشاهد اليوم الذي يقع فيه ذلك العذاب الواقع ، الذي يرونه بعيدا ويراه اللّه قريبا ، يرسم مشاهده في مجالي الكون وأغوار النفس. وهي مشاهد تشي بالهول المذهل المزلزل في الكون وفي النفس سواء » [٢].

ولما ذكر الله -ﷻ- حال السماء والأرض في ذلك اليوم ، وصف حال الخلائق[٣] ، وذكر **الصفة الثالثة** لذلك اليوم : قائلا-ﷻ-: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ، أي : الحميم لا يسئل حميمه ، فضلا عن أن يتساءل الناس كلهم ، لشدة ما يعتري الناس من الهول ، والحميم هو القريب الذي يعصب له ، وفي إيثار ذكر الحميم دون القريب في ذلك اليوم ؛ لأن الحميم هو القريب المشفق ، فكأنه الذي يطلب منه الحماية ويحتد حماية لذويه[٤] ، وعدم السؤال إما لانشغال كل أحد بنفسه، أو معرفة كل منهم أنه لا يغني ذلك اليوم أحد عن أحد، وفي معنى الآية وجوه :

أحدها : أن يكون التقدير : لا يسأل حميم عن حميمه فحذف الجار وأوصل الفعل .

الثاني: لا يسأل حميم حميمه كيف حالك ولا يكلمه ، لوجود ما يشغلهم عن هذا الكلام .

الثالث : لا يسأل حميم حميمه الشفاعة ، ولا يسأل حميم حميما إحسانا إليه ولا رفقا به[٥].

ولما ذكر الله -ﷻ- أن الحميم لا يسأل حميمه في ذلك اليوم ، دفع توهم من يتوهم أن

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب : (٦٤١/٣٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٥٩/٢٩) .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٧/٦) .

(٣) التفسير الواضح : (٧٤٦/٣) .

(٤) المفردات في غريب القرآن : (٢٥٥) .

(٥) انظر : مفاتيح الغيب : (٦٤١/٣٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٥٩/٢٩-١٦٠) .

عدم السؤال قد يكون لعدم رؤية بعضهم بعضاً لكثرة الجمع وشدة الزحام وتفرق الناس فيه على حسب مراتب أعمالهم ، فاستأنف الجواب لمن كأنه يقول : لعل ذلك يترك لعدم رؤيتهم لهم؟ فقال دالاً بالمجهول والتفعيل على عظمة ذلك التبصير وخروجه عن العادة جامعاً ؛ لأن المقصود من الحميم الجنس ، والجمع أدل على عموم التبصير[1]، فقال تعالى : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴾.

قال أبو السعود[2]: « استئناف لبيان أن اشتغال كل مجرم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنى أن يفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقهم بقلبه فضلا أن يهتم بحاله ويسأل عنها »[3] .

ومما فتح الله على العبد الفقير في مناسبة هذه الآية مع سابقتها أن من المعلوم عند الناس أن الشخص إذا كان في نفسه شيء سيء وقبيح أظهره الله تعالى إما من خلال نظراته ، أو فلتات لسانه ، من حيث يدري أو لا يدري ، فهذا المجرم كما في هذه الآية يتمنى ويشتهى أن يفتدي نفسه بأقرب الأقربين إليه إما بخاطر نفسي أو بكلام يصدر منه كما سيأتي ، فكيف له أن يسألهم عن حالهم ، أو يهتم لأمرهم ، وهو يتمنى أن يكونوا في مكانه ، ويفتدي نفسه بهم .

وقوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي : يجعلون بصراء بآثارهم[4] ، أي : يُعرَّف الحميم الحميم حتى يعرفه ، وهو مع ذلك لا يسأله ، وقيل في معنى : ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ : أن المجرمين يبصرون المؤمنين حال ما يود أحدهم الافتداء بما سيأتي ، فإن الإنسان إذا كان في البلاء الشديد ثم رآه عدوه على تلك الحالة كان ذلك في نهاية الشدة عليه [5].

وأيضا فإن الفعل ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ فيه ما ليس فى الفعل ((يُبْصِرُونهم)) وذلك من وجوه :

---

(١) نظم الدرر : (٣٩٥/٢٠) .

(٢) هو : محمد بن محمد العمادي الحنفي ، مشهور بأبي السعود ، صاحب التفسير ، توفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة. انظر : ابن العماد ، شذرات الذهب : (٣٩٨/٨) .

(٣) إرشاد العقل السليم : (٣١/٩) .

(٤) المفردات في غريب القرآن : (١٢٨) .

(٥) انظر : مفاتيح الغيب : (٦٤١/٣٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٦٠/٢٩).

أولا : أن يبصّروهم يفيد أن أهل الموقف- لما هم فيه من بلاء- لا يكادون يبصرون شيئا ، ولكن كأن قوة خارجة عنهم تحملهم حملا على أن يفتحوا أعينهم على هذا المكروه الذي يحيط بهم، ويهجم عليهم .

ثانيا : أن ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ ، تجعل المُبْصِرين والمبْصَرين على سواء، فكل منهم يُبْصِرُ، ويُبْصَر، فى حال من الفزع والهلع، لا تدع لأيٍّ سبيلاً إلى الاختيار فيما ينظر إليه[١].

وضمير الجمع في ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ راجع إلى ﴿حَمِيمٌ﴾ المرفوع وإلى ﴿حَمِيمًا﴾ المنصوب ، أي: يبصر كل حميم حميمه فجمع الضميران حملا على معنى العموم ؛ لأنهما نكرتان في سياق النفي[٢].

ولما تناهى الإخبار بعظمة ذلك اليوم إلى حد لا تحتمله القلوب، ذكر-ﷻ-نتيجة ذلك[٣]، وهي **الصفة الرابعة** لذلك اليوم : فقال تعالى : ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾.

وقوله : ﴿يَوَدُّ﴾ الود : محبة الشيء ، وتمني كونه ، ويستعمل في كل واحد من المعنيين ، على أن التمني يتضمن معنى الود ، لأن التمني هو تشهي حصول ما توده[٤] .

وهذا الوداد والتمني والمحبة إما بخاطر يخطر في نفس المجرم عند رؤية العذاب ، وإما بكلام يصدر منه ، نظير قوله : ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ ، [النبأ : ٤٠] .

قال ابن عاشور : « وهذا هو الظاهر، أي : يصرخ الكافر يومئذ فيقول : أفتدي من العذاب ببني وصاحبتي وفصيلتي فيكون ذلك فضيحة له يومئذ بين أهله » [٥].

وقوله : ﴿يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ الافتداء : إعطاء الفدية ، وهو ما يقي به الإنسان

---

(١) التفسير القرآني للقرآن : (١١٦٢/١٥) .

(٢) انظر : اللباب في علوم الكتاب : (٣٦٠/١٩) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٦٠/٢٩) .

(٣) نظم الدرر : (٣٩٥/٢٠) .

(٤) المفردات في غريب القرآن : (٨٦١) .

(٥) انظر : التحرير والتنوير : (١٦٠/٢٩) .

نفسه وينقذها من تبعة[١] .

وقوله : ﴿بِبَنِيهِ﴾ رتب الأقرباء في هذه الآيات على حسب شدة الميل الطبيعي في العرف الغالب ؛ لأن الميل الطبيعي ينشأ عن الملازمة وكثرة المخالطة ، وهذا الترتيب المتتابع فى تقديم ضحايا الفداء، لا يمكن أن يقع على هذا الوجه إلا بحساب دقيق محكم لاتجاهات النفس ، وإلا بتقدير واقعي لارتباطها الشعورى بكل ضحية يضحّى بها فى هذا المقام، وقد يبدو غريبا -فى ظاهر الأمر- أن يقدّم الإنسان أول ما يقدم للفداء والتضحية، أعزّ شيء لديه ، وهم أبناؤه ، وقد كان المتوقع أن يضنّ بهم ، أو أن يجعلهم آخر سهم يرمى به فى وجه هذا الهلاك الذي يحتويه!!وهذا الحساب إنما يجرى على هذا الوجه، حين تكون الأمور على ما ألف الناس، وحين يكون فى الأمر شيء من السّعة، ولو كان بمقدار سمّ الخياط ، أما والعذاب هو عذاب جهنم، فإن المعايير تختلّ والموازين تضطرب، فلا يدع للإنسان سبيلا للاختيار أو فرصة للموازنة[٢].

ويرى البقاعي : أنه لما كان السياق للافتداء ، بدأ بألصق الناس بالفؤاد ، وأعز من يلزم الإنسان نصره والذب عنه ، وذلك لشدة ما يرى ، فقال: ﴿بِبَنِيهِ﴾ ، ثم أتبع ذلك بذكر من يليه في الرتبة والمودة ، فقال : ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي : زوجته التي يلزمه الذب عنها والكون دائماً معها لكونها عديلة روحه في الدنيا ، ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة ، أتبعها الشقيق الذي لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم وربما كان مبايناً، فقال : ﴿وَأَخِيهِ﴾ ، ولما كان من بقي من الأقارب بعد ذلك متقاربين في الرتبة ذكر أقربهم فقال : ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته الذين انفصل عنهم وينتهي إليهم ، وقوله : ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي : التي كانت تضمه انتماء إليها في النسب ، وتضمه وتحميه عند الشدائد والنوائب ، لكونه أقرب الناس إليها ، وأعزهم عليها فهم أعظم الناس حقاً عليه وأعزهم لديه [٣].

---

(١) المفردات في غريب القرآن : (٦٢٧) .

(٢) التفسير القرآني للقرآن : (١٥/١١٦٥-١١٦٦) .

(٣) نظم الدرر : (٢٠/٣٩٦-٣٩٧) .

ولما خص أنواعا من الأشخاص في الآية السابقة ذكر عموما ممن ليس داخلا فيما تقدم من العقلاء وغيرهم ، فقال : ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ، أي : ويفتدي بمن في الأرض ولما كان السياق موهما التخصيص ، قال محققاً لإرادة العموم : ﴿جَمِيعًا﴾ أي : من الثقلين وغيرهم ، سواء كان فيهم صديق لا صبر عنه ، أو عدو لا حاجة فيه ، أو نفائس أموال لا غنى عنها . ومن الموصولة لتغليب العاقل على غيره لأن منهم الأخلاء[١].

ولما كان الإنسان في اليوم الآخر تتكشف له الأمور أتم كشف ، وتظهر له أوضح ظهور ، فيعلم أنه لا ينجيه من الخطايا المحيطة المحبطة شيء، دل على الاستبعاد بأداة البعد[٢] فقال : ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ يعني: يتمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ، ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه[٣]. فثم هنا للتراخي الرتبي، أي : يود بذل ذلك وأن ينجيه الفداء من العذاب، فالإنجاء من العذاب هو الأهم عند المجرم في ودادته ، ومتعلق ينجيه محذوف يدل عليه قوله: من عذاب يومئذ[٤].

وبينما المجرم في هذه الحال ، يتمنى ويشتهي ذلك المحال ، يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة أمل ، أو كل حديث خادع من النفس ، لأن بعض الناس يطبع على قلبه فتستغويه الأطماع حتى يعد المحال ممكناً ، قال تعالى رادعا وزاجرا ومبطلا وميئسا لما يخامر نفوس المجرم من الودادة ، الذي نُزِّل منزلة الكلام لأن الله مطلع عليه ، أو لإبطال ما يتفوه به من تمنى ذلك، فالتقدير: يقال له : ﴿كَلَّآ﴾ ، أي : لا افتداء ولا إنجاء أبداً بوجه من الوجوه[٥].

ولما كان المجرم مستحضرا في ذهنه ، وشاهدا بعينه العذاب ، قال تعالى بعد هذا الردع العظيم عن النجاة بل عن ودادة تمنيها : ﴿إِنَّهَا﴾، أي: النار التي ستعذب بها والتي

(١) انظر : نظم الدرر : (٣٩٧/٢٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٦٢/٢٩) .
(٢) نظم الدرر : (٣٩٧/٢٠) .
(٣) مفاتيح الغيب : (٦٤٢/٣٠) .
(٤) انظر : التحرير والتنوير : (١٦٢/٢٩) .
(٥) انظر : نظم الدرر: (٣٩٧/٢٠) ، التحرير والتنوير: (١٦٢/٢٩) ، في ظلال القرآن : (٣٦٩٧/٦).

تستحضرها في ذهنك وتشاهدها بعينك الآن هي ﴿لَظَىٰ﴾ ، أي : ذات اللهب الخالص المتناهي في الحر ، و﴿لَظَىٰ﴾ علم للنار منقول من اللظى، وهو معرفة لا ينصرف، فلذلك لم ينون ، وأيضا لما كان ﴿لَظَىٰ﴾ مقترنا بألف التأنيث أنث الضمير باعتبار تأنيث الخبر، وأتبع اسمها بأوصاف(١):

الوصف الأول : لما بين-ﷻ-أن ما يشاهده المجرم في ذلك الوقت هو النار التي تتلظى وتتلهب ، ذكر بعض ما تمتاز به هذه النار من أوصاف ، فقال -ﷻ- : ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: تحرق المجرم وتنزع شواه ، و﴿نَزَّاعَةً﴾ معناها : المبالغة في النزع وهو الفصل والقطع(٢)، والشوى : اسم جمع شواة بفتح الشين وتخفيف الواو ، وهي الأطراف ، كاليد والرجل(٣).

والمعنى : أن هذه النار شديدة النزع والفصل لأطراف من يعذب بها ، فضلا عن حرق جلودهم ولحومهم ، ثم يعودون كما كانوا ، قال تعالى : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ...﴾ [النساء: ٥٦] (٤).

وفى هذة الآية إشارة واضحة إلى أن أول ما تحدثه النار فى المعذب الذي يشوى بها ، هو انخلاع أطرافه ، وهذا يعنى أن يفقد المعذّب بالنار القدرة على الحركة، إذا انفصلت عنه رجلاه اللتان يتحرك بهما ، كما يفقد القدرة على الدفاع عن نفسه بيديه ، بعد أن عجز عن الفرار، إذ قد انخلعت عن جسده هاتان اليدان، وهكذا يصبح كتلة مستسلمة للعذاب، مقيدة بقيد العجز المطلق(٥) .

الوصف الثاني : ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ ، و﴿تَدْعُوا۟﴾ اختلف علماء التفسير في كيفية دعوة النار للمجرمين ، وذكروا في ذلك وجوها :

أحدها : أن الله -تعالى- يخلق الكلام في جرم النار حتى تقول صريحا : إلي يا كافر ، إلي

(١) انظر : مفاتيح الغيب : (٦٤٢/٣٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٦٣/٢٩) .
(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٦٤/٢٩) .
(٣) المفردات في غريب القرآن : (٤٧١) .
(٤) مفاتيح الغيب : (٤٧١) .
(٥) التفسير القرآني للقرآن : (١١٧٢/١٥) .

يا منافق ، ثم تلتقطهم التقاط الحب .

وثانيها : أنها تدعوهم بلسان الحال ، وأنه لما كان مرجع كل واحد من الكفار إلى زاوية من زوايا النار ، كأن تلك المواضع تدعوهم وتحضرهم .

وثالثها : المراد أن زبانية النار يدعون فأضيف ذلك الدعاء إلى النار بحذف المضاف .

ورابعها : أن ﴿تَدۡعُواْ﴾ بمعنى تهلك ، من قول العرب دعاك الله ، أي : أهلكك [١].

قال القرطبيُّ : « والقولُ الأولُ هو الحقيقةُ لظاهر القرآنِ ، والأخبار الصحيحة »[٢].

وقال سيد قطب في قوله : ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ : « تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى ، ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى ! ولقد كان من قبل مشغولا عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها ، ولا يملك أن يفتدي بما في الأرض كله منها!» [٣].

ثم ذكر الله -ﷻ- صفات المدعوين إلى النار ، وهي من آثار دين الشرك التي هي أقوى باعث للمشركين على إعراضهم عن دعوة الإسلام ، وهي ثلاثة : الإدبار والإعراض، وجمع المال، أي : الخشية على أموالهم[٤] ، قال تعالى : ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ .

فقوله : ﴿مَنۡ أَدۡبَرَ﴾ الإدبار : جعل شيء وراءه ، وذلك بأن لا يعرج عليه أصلا أو بأن يقبل عليه ثم يفارقه .

وقوله : ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ التولي : الإدبار عن شيء والإعراض عنه[٥] ، ففي التولي معنى إيثار غير المتولى عنه، ولذلك يكون بين التولي والإدبار فرق، وباعتبار ذلك الفرق عطف ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ على ﴿أَدۡبَرَ﴾ أي : تدعو من ترك الحق وتولى عنه إلى الباطل، أو أدبر عن الطاعة وتولى عن الإيمان، وهذه دقيقة من إعجاز القرآن بأن يكون الإدبار مرادا به إدبار غير تول ، أي :

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب : (٦٤٣/٣٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٦٤/٢٩-١٦٥) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : (٢٨٩/١٨) .

(٣) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٨/٦) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : (١٦٤/٢٩) .

(٥) المفردات في غريب القرآن : (٨٨٧) .

إدبارا من أول وهلة ، ويكون التولي مرادا به الإعراض بعد ملابسة ، ولذلك يكون الإدبار مستعارا لعدم قبول القرآن ونفي استماع دعوة الرسول -ﷺ- وهو حال الذين قال الله فيهم : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ...﴾ [فصلت: ٢٦] ، والتولي مستعار للإعراض عن القرآن بعد سماعه وللنفور عن دعوة الرسول -ﷺ- كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١] ، وكلا الحالين حال كفر ومحقة للعقاب ، وهما مجتمعتان في جميع المشركين[١].

ولما كانت الدنيا والآخرة ضرتين ، فكان الإقبال على إحداهما دالاً على الإعراض عن الأخرى ، قال دالاً على إدباره بقلبه : ﴿وَجَمَعَ﴾ أي : كل ما كان منسوباً إلى الدنيا ، ولما كانت العادة جارية بأن من كانت الدنيا أكبر همه كان همه بجمعه الاكتناز لا الإنفاق، سبب عن جمعه قوله : ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي : جعل ما جمعه في وعاء وكثره حرصاً وطول أمل و لم يعط حق الله فيه ، فكان همه الإيعاء لا إعطاء ما وجب من الحق ، إقبالاً على الدنيا [٢].

وقد جمع الله -ﷻ- في هذه الآية مجامع آفات الدين ، فالجمع إشارة إلى حبّ الدنيا ، والحِرْص عليها، والإيعاء إشارة إلى الأمل[٣].

وفي ذكر جمع المال في الأوعية إلى جانب الكفر والتكذيب والمعصية في هذه السورة دليل على أن الدعوة كانت تواجه في مكة حالات خاصة يجتمع فيها البخل والحرص والجشع إلى الكفر والتكذيب والضلالة ، مما اقتضى تكرار الإشارة إلى ذلك ، والتخويف من عاقبته ، بوصفه من موجبات العذاب بعد الكفر والشرك باللّه[٤].

ولما ذكر الله -ﷻ- صفات المدعويين إلى النار ، فبدلا من الانزجار والارتداع من الاتصاف بها يوجد من يسارع إلى ذلك ، فذكر الله -ﷻ- عقبها أن ذلك راجع إلى ما خلق عليه الإنسان من قصر نظره على الأحوال الجسمانية العاجلة ، وأن الواجب عليه أن

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٦٥/٢٩) .

(٢) نظم الدرر : (٣٩٩/٢٠) .

(٣) اللباب في علوم الكتاب : (٣٦٦/١٩) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٨/٦) .

يكون مشغولا بأحوال الآخرة، فإذا وقع في مرض أو فقر وعلم أنه فعل الله تعالى كان راضيا به، لعلمه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإذا وجد المال والصحة صرفهما إلى طلب السعادات الأخروية[1] ، فقال تعالى مبينا سبب ذلك : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ .

قال ابن عاشور عن هذه الآيات : « تذييل لجملة ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ تنبيها على خصلة تخامر نفوس البشر فتحملهم على الحرص لنيل النافع وعلى الاحتفاظ به خشية نفاده لما فيهم من خلق الهلع ، وهذا تذييل لوم وليس في مساقه عذر لمن جمع فأوعى، ولا هو تعليل لفعله»[2].

وقال دروزة : « والآيات متصلة بسابقاتها ، والمناسبة قائمة ، خاصة بينها وبين الآية الأخيرة السابقة لها مباشرة ، وقد انطوت على تقرير أثر الإيمان وعبادة الله في نفس الإنسان واتجاهه وسلوكه ، وتقويم ما في طبيعته من أنانية وجزع من الشر ومنع للخير ، وهي من روائع المجموعات القرآنية المنطوية على جليل التلقينات الأخلاقية والاجتماعية المستمرة المدى »[3].

وقوله : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المراد بالإنسان عموم الجنس[4] ، لكن الإشارة هنا إلى المجرم المذكور سابقا كما بينته قبل قليل .

وقوله : ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي : أن شدة الجزع والمنع متمكنة في الإنسان غالبة على نفسه ، وكأنه خلق محمولا عليهما ، ولما كان ذكر الهلع عقب مذمة الجمع والإيعاء ، أشعر بأن الهلع أيضا صفة مذمومة يلام عليه الإنسان في تقصيره عن التخلق بدفع آثارها ، وأنه يستطيع أن يكف عن هلعه إذا تدبر في العواقب[5].

وقد اختلف العلماء في تفسير : ﴿هَلُوعًا﴾ وقد حقق القول فيه المحقق ابن عاشور قائلا :

---

(١) مفاتيح الغيب : (٦٤٤/٣٠) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٦٦/٢٩) .

(٣) التفسير الحديث : (٣٩٨/٥-٣٩٩) .

(٤) المحرر الوجيز : (٣٦٨/٥) .

(٥) انظر : البحر المحيط : (٢٧٥/١٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٦٨/٢٩) .

«والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه ، وأما الجزع فمن آثار الهلع، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشَّره ، وبعضهم بالضجر، وبعضهم بالشح، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبن عند اللقاء. وما ذكرناه في ضبطه يجمع هذه المعاني ويريك أنها آثار لصفة الهلع » [(١)].

ولما ذكر -ﷻ- أن الانسان خلق هلوعا ، ذكر أثرا من آثار الهلع ، فقال تعالى : ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ، وهاتان الآيتان هما بيان للهلع ، وأن من شأنه أنه إذا مس الإنسان شر لم يصبر عليه ، واستبد به الجزع ، واستولى عليه اليأس ، لأنه لا يستند إلى قوة القويّ العزيز ، ولا يستعين بعون الرّحمن الرّحيم ، إنه فى دائرة مغلقة عليه مع هذا البلاء الذي نزل به ، لا يرى لهذا البلاء دافعا ، ولا يتوقع من وراء هذا الضيق فرجا ، أما المؤمن بالله، فإنه إذا مسّه الشر، وأصابه الضر، بسط يد الرجاء إلي ربه الكريم ، وطمع فى رحمته ، ورجا كشف الضر عنه ، فلا يأسى على شيء فاته من أمور الدنيا، ولا يجزع لشيء أصابه من همومها ، إذ هو على يقين من أن ذلك بقضاء وقدر ، وأن ما قدره الله -ﷻ-، هو الخير، وإن رآه الإنسان شرا ، وفى هذا كله عزاء للمؤمن عند كل مصيبة .

وأما الذي لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، فإنه قد خلّى بينه وبين مصيبته ، يتجرع غصصها ، ويمضغ جمرها ، ويبيت على أشواكها ، دون أن يجد للصبر طريقا، أو يرى للعزاء وجها ، هذا الإنسان الذي لا يؤمن بالله فى مواجهة الرزايا، وفى لقاء المصائب، هو طعام للجزع، ووقود لليأس والحسرة! أما فى حال العافية، والرخاء، وسعة الرزق، وفيض المال، فهو متسلط جبار، لا يرى لأحد شيئا مما ملك، بل إن هذا الملك الذي فى يده، يغريه بإذلال الناس، واستعبادهم، حتى يزداد علوا ، ولا يرى أبدا أن هذا الذي بين يديه ، هو وديعة عنده ، يمكن أن تسترد يوما ممن أودعها إياه[(٢)] ، فالمرادُ بالخيرِ والشر هنا : هو الغِنَى والفقرُ ، أو

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٦٧/٢٩) . وانظر : لسان العرب : (٣٧٤/٨-٣٧٥) ، تاج العروس : (٤٠٥/٢٢-٤٠٨) .

(٢) التفسير القرآني للقرآن : (١١٧٩/١٥) .

الصحة والمرض ، والمعنى : أنَّه إذا صار فقيراً أو مريضاً أخذ في الجزعِ والشكايةِ ، وإذا صار غنياً، أو صحيحاً أخذ في منعِ المعروف ، وشحَّ بمالِه ، وإنَّما ذمَّ اللَّهُ هذا الأمر لقصور نظر الإنسان على الأمورِ العاجلةِ ، والواجبُ عليه أن يكون شاكراً راضياً في كل حالٍ، لعلمه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وإذا وجد المال والصحة صرفهما إلى طلب السعادات الأخروية[1].

(١) مفاتيح الغيب : (٣٦٩/١٩) .

المطلب الثالث
التفسير الإجمالي لآيات الموضوع

يقول تعالى في بداية هذه السورة مبينا جهل المعاندين والمنكرين لليوم الآخر ، واستعجالهم لعذاب الله تعالى ، على سبيل الاستهزاء والتعنت والسخرية والتعجيز : ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ أي: دعا داع ، واستفتح مستفتح بعذاب نازل لمن اتصف بصفة الكفر ، وأن هذا العذاب ليس له أحد يدفعه قبل نزوله ، أو يرفعه بعد نزوله ، وأنه لا بد أن يقع عليهم من الله ، فإما أن يعجل لهم في الدنيا ، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة .

ثم بين -ﷻ- من عظمته ما يضاد أقوالهم القبيحة ، وأنه هو صاحب العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق ، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره ، ويعرج إليه الروح، أي : جبريل أو أرواح أهل الجنة ، أو جنس الأرواح كلها ، برها وفاجرها عند الوفاة .

ثم ذكر -ﷻ- المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب ، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير ، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة ، أو أنه -ﷻ- في يوم القيامة ، يظهر لعباده من عظمته وجلاله وكبريائه ، ما هو أكبر دليل على معرفته ، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح صاعدة ونازلة ، بالتدابير الإلهية ، والشؤون في الخليقة في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته ، لكن الله تعالى بفضله وكرمه يخففه على المؤمن .

ثم أمر -ﷻ- نبيه محمدا -ﷺ- أن يوطن نفسه على الصبر في دعوته صبرا لا ضجر فيه ولا ملل ، وإن كذبه المكذبون ، واستهزأ به المستهزؤون ، فإن السائل عن العذاب حاله حال المنكرين له لأنهم يرون استحالة وقوع العذاب ، إلا أنه وإن بدا هذا اليوم بعيدا فى نظر المشركين والمكذبين هو فى حقيقته قريب عند الله تعالى ، وأنه لا بد أن يكون ، وكل ما هو

آت فهو قريب .

ثم ذكر -ﷻ- أهوال ذلك اليوم وما يقع فيه من أمور عظيمة ، وأحداث جليلة حيث تكون السماء كالرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ ، وتكون الجبال كالصوف المصبوغ بالألوان بعد أن ينفش وتنحل أجزاؤه بعضه عن بعض .

ثم ذكر -ﷻ- ما يقع في الخلق من الذهول والفزع حتى أن القريب لا يسأل عن قريبه ، ولا يلتفت الصديق إلى صديقه بالرغم من مشاهدتهم لبعض ، ورؤيتهم رؤية كاشفة لأحوالهم وما هم فيه من كرب وبلاء ؛ لأنه لا يبقى في قلوبهم متسع للسؤال ، ولا يهم المرء إلا نفسه ، لما يواجه الناس يومئذ من أهوال ، وما يحيط بهم من كروب .

ثم بين -ﷻ- حال المجرم الذي استحق العذاب في ذلك اليوم حيث يتمني ويشتهي لو استطاع الافتداء عن نفسه بأقرب الأقربين إليه من أبناء له وزوجة وإخوة وقرابة كانت تنصره وتعينه ، إلا أن ذلك لا ينفعه في ذلك اليوم ، بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب عن نفسه بجميع ما في الأرضِ لم ينفعه ذلك ، وذلك لأن ما يشاهده في تلك اللحظة هي النار التي تتلظي وتتلهب لتحرق جسده ، وتنزع جلده وأطراف جسده نزعا شديدا قويا ، جزاء لإدباره وإعراضه وتوليه عن سماع دعوة الحق والإيمان به ، وجمعه للكنوز والنفائس أملا في البقاء في الدنيا .

ثم فسر -ﷻ- تصرف هذا الإنسان التصرف الغريب ، وذكر أن هذا تصرف طبيعي لا غرابة فيه وأن الإنسان خلق هلوعا ، وأن هذا المجرم انخلع قلبه من هول ما شاهده من العذاب، فكان بمجرد مس النار له هلوعا جزوعا لأجل ذلك تمنى ما تمنى من الافتداء عن نفسه بأقرب الأقربين وأنفس الأشياء إليه ، بالرغم من كونه في الحياة الدنيا منوعا لها ، ضانا بها، بخيلا فيها، لا يشكر الله عليها .

المطلب الرابع
مما ترشد إليه الآيات

أرشدت آيات هذا الموضوع إلى عدد من الأمور منها :

أولا : أن من أسباب إنكار اليوم الآخر هو الظن باستحالة وقوعه ، ومرد ذلك هو الشك في قدرة الله -جل جلاله- ، وهذا ناشيء من الجهل بالله تعالى .

ثانيا : على الإنسان أن يسعى في تخليص نفسه من عذاب الله يوم القيامة ، وأن لا يجعل أي إنسان سببا في ضلاله ، مهما بلغت محبته له ، فإنه سيتمنى يوم القيامة تقديم أغلى ما يملك ، ولا يجديه ذلك شيئا ، قال تعالى : ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ .

ثالثا : الجمع بين الإدبار عن الإيمان والتولي عن الطاعة ، وبين الإمساك عن الإنفاق في سبيل الله فيه دلالة جلية على شناعة هذا الفعل ، وتنفير شديد من الإتصاف بهذه الخصلة الذميمة ، وأنها شأن الكافرين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من الجزاء ، وهي من أهم أسباب دخول النار ، والعياذ بالله .

رابعا : في قوله تعالى : ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ إشارة إلى حب الدنيا فالجمع إشارة إلى الحرص ، وأوعى إشارة إلى الأمل ، ولا شك أن مجامع آفات الدين ليست إلا هذه ، وفي هذه الآية أيضا إشارة إلى أن الجمع وحده ليس معيبا ، وإنما المعيب الجمع مع الايعاء وعدم إخراج حقوق الفقراء والمساكين فيه .

خامسا : أن صفة الهلع والجزع والمنع من طبيعة الإنسان الغالبة عليه ، وأنه يجب عليه أن يهذبها بآداب الشرع ، ومرد ذلك كله إلى الإيمان باليوم الآخر ، قال رسول الله -ﷺ- : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرا له »[1] .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب المؤمن أمره كله خير ، برقم : (٢٩٩٩) .

سادسا : في قوله تعالى : ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إشارة إلى أن هذا الذي عليه الإنسان من كفر وضلال ، هو مما سبق به قضاء الله فيه ، واقتضته مشيئته ، ومع هذا القضاء السابق ، والمشيئة الغالبة ، فإن الإنسان مكلّف بأن يأخذ طريق الخير ، ويتجه إلى جانب الأمن والسلامة من عذاب الله، لأنه لا يدرى ما قضاء الله فيه ، ومشيئته له ، ولكن الذي يدريه ويقطع به ، هو أن للنجاة طريقا ، ينبغى أن يسلكه، وللهلاك طرقا يجب أن يتجنبها.. إنه يفرّق حتما بين النور والظلام، وفى النور الهدى والسلامة، ومع الظلام الضلال والضياع ، فإذا آثر الظلام على النور، والضلال على الهدى، ولم يتحرك بإرادته للخلاص مما هو فيه، فقد لزمته الحجة، وحق عليه العقاب[1].

(١) التفسير القرآني للقرآن : (١١٧٤/١٥) .

المبحث الثاني

المؤمنون باليوم الآخر صفاتهم وحالهم فيه

ويشمل الآيات (٢٢-٣٥) ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة.

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق.

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع.

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع .

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

المؤمنون باليوم الآخر ، صفاتهم ، وحالهم فيه

قال تعالى : ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المطلب الأول
ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة

بعد التأمل والتدبر في آيات هذا الموضوع ، نلحظ ارتباط هذا الموضوع الثاني بالمحور الأساس للسورة وهو الحديث عن اليوم الآخر وصفات المؤمنين به والمنكرين له .

حيث افتتحت آيات هذا الموضوع بالاستثناء مما سبق بيانه من أوصاف المجرمين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ، مما يدل على كثرة المنكرين لذلك اليوم ، وأن المتصفين بما سيأتي من أوصاف قلة ، وفي ذلك نوع من الإلهاب والتهييج للانخراط في سلكهم ، والسير على هديهم .

ثم ساقت آيات هذا الموضوع صفات المؤمنين باليوم الآخر ومآلهم في ذلك اليوم ، وقد جاءت هذه الصفات بنقيض الصفات المذكورة للمجرم الكافر المنكر لليوم الآخر ، فدلت على كمال تنزههم عن الهلع ، واستغراقهم في طاعة الله ، وتزكية النفس والمال ، والإيمان بالجزاء والحساب في اليوم الآخر ، والخوف من العقوبة ، وإيثار الآجل على العاجل ، والحفاظ على نظافة الفرد والمجتمع من ضياع الأنساب والأموال والعهود ، وكل ذلك في سياق المقصد الرئيس والمحور الأساس للسورة وهو : اليوم الآخر وصفات المؤمنين به ومآلهم ، وحال المنكرين له ومآلهم .

المطلب الثاني
التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد التدبر والنظر في هذه الآيات الكريمة ، وما قبلها من بداية السورة الكريمة ، تبين لي أنه بعد أن تحدثت آيات الموضوع الأول للسورة عن اليوم الآخر وحال المجرم في ذلك اليوم ، وبيان بعض الصفات التي كان عليها في الدنيا من الإدبار والتولي عن سماع الحق وقبوله، واللهث والسعي وراء الدنيا الزائلة لجمع الأموال الفانية واكتنازها ، والأمل في البقاء عليها ، وكان ذلك على حساب اليوم الباقي ، وبالرغم من أن الإنسان خلق هلوعا ، وإن صفة الجزع والمنع متمكنة فيه غالبة على نفسه ، إلا أن هناك من وقاهم الله شر ذلك ، وهم المؤمنون المصلون ، فجاءت آيات هذا الموضوع لتبين صفات هؤلاء الذين استثناهم الله – ﷻ– من هذا الخلق الذميم الذي يقود إلى النار ، والعياذ بالله ، وأنهم في اليوم الآخر منعمون وفي جنات مكرمون بفضل الله وكرمه وإحسانه، فتناسق آيات هذا الموضوع مع آيات الموضوع السابق واضحة جدا.

قال الرازي : « اعلم أنه استثنى من هذه الحالة المذكورة المذمومة من كان موصوفا بثمانية أشياء »[1].

وقال البقاعي : « ولما كان التقدير: فهو يسارع في آثار ما جبل عليه ما يترتب على الجزع مما لا يجوز في الشرع ومما يترتب على المنع من ذلك أيضاً فيكون من أهل النار، وكان من القدرة البالغة أن يحفظ –ﷻ– من أراد من الخزي مع جبلته ويحمله على كسر نفسه مرة بعد أخرى حتى يتلاشى ما عنده من جبلة الشر وتبقى الروح على حالها عند الفطرة الأولى، فلا تزال تحثه على المبادرة إلى طاعته –ﷻ– وحفظ حدوده، فكان لا كرامة أعظم من حفظ المكلف لحدود الشرع مع المنافاة لطبعه، فيكون جامعاً للإيمان بنصفيه: الصبر والشكر، لما جمع من هذه الأوصاف الثمانية المعادَّة لأبواب الجنة الثمانية ، فكان

(١) مفاتيح الغيب : (٦٤٤/٣٠) .

أسباباً لها، استثنى من هذا النوع الهلوع ولذلك جمع فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ »[1].

وقال سيد قطب : « وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع ، تلك السمة العامة للإنسان ، يفصلها السياق هنا ويحددها »[2].

ومن خلال اطلاعي على أكثر كتب التفاسير فإن أقوال العلماء في الاستثناء الوارد في أول هذا المقطع في قوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ راجع ومنصب إلى الهلع ، وأن المصلين الواردة صفاتهم في هذه الآيات مستثنون من الهلع ، إلا أن سياق الآيات وتناسق الموضوعات يدل على أن الاستثناء هنا شامل لآيات الموضوع السابق .

وبيان ذلك : أن المؤمنين المصلين مستثنون من العذاب الذي سأله سائل وأنه يقع على الكفار فقط ، وأن المؤمنين المصلين لا يتصور منهم طلب هذا السؤال لكونهم مشفقين من عذاب ربهم ، بدليل قوله تعالى في آيات هذا الموضوع : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ، وعموم المؤمنين لا يخلدون في النار بنص الكتاب والسنة والإجماع ، وأنهم مستثنون في هذه السورة من دعوة النار كما هي حال المجرمين الكفرة ، فدخول الاستثناء ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ لجميع ما سبق من جمل ، أولى من إخراجه وحصره على الهلع فقط .

ولهذا قال ابن عاشور : « والكلام استئناف بياني لمقابلة أحوال المؤمنين بأحوال الكافرين، ووعدهم بوعيدهم على عادة القرآن في أمثال هذه المقابلة »[3] .

(١) نظم الدرر : (٤٠٢/٢٠) .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٩/٦) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (١٧١/٢٩) .

المطلب الثالث

التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع

لما ذُكر في آيات الموضوع السابق اليوم الآخر وحال المجرم فيه ، قوبل به بيان حال المؤمنين في ذلك اليوم ، جريا على عادة القرآن في اتباع النذارة بالبشارة ، والترهيب بالترغيب.

ولما كانت الصلاة -فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان- ، وسيلة الاتصال باللّه والاستمداد من ذلك الرصيد ، ومظهر العبودية الخالصة التي يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة ، بدأ بها ، فقال تعالى : ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ وقدمها على سائر الخصال قال سيد قطب : « ولأهمية هذه الفريضة ختم الله بها هنا أيضا في ذكر آخر صفة من صفات المصلين ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ، ولهذا كان آخر ما أوصى به -عليه السلام-: «الصلاة وما ملكت ايمانكم »[1][2].

قال دروزة : «واختصاص المصلّين بالذكر في الاستثناء وتكرار التنويه بالدوام على الصلاة والمحافظة عليها في أول المجموعة وآخرها آت- كما هو المتبادر- من كون الصلاة مظهرا رئيسا من مظاهر الإيمان بالله أولا ، ووسيلة مستمرة للتذكير بالله وأوامره التي فيها كل خير ونواهيه التي تنهى عن كل شرّ ثانيا ، وهذا مما يجعل المصلّي يندفع في عمل الحق والعدل والخير ويمتنع عن الإثم والفواحش ، وعلى هذا فإذا صدر من مصلّ آثاما ومنكرات وتغلبت فيه الأنانية والجزع والبخل والمنع فلا يكون في الحقيقة مصليا صلاة صادرة عن إيمان تام فلا تفيد في تصفية روحه وتنقية قلبه ، ومع أن الآيات انطوت كما قلنا على تقرير أثر الصلاة في المصلي الصادق فإن من الممكن أن يكون فيها أيضا صورة لما كان عليه المؤمنون الأولون في

---

(١) رواه أبو داود ، في أبواب النوم ، باب حق المملوك ، برقم : (٥١٥٦) ، وابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب هل أوصى رسول الله -ﷺ-، برقم : (٢٦٩٨) ، والنسائي ، كتاب وفاة النبي -ﷺ-، ذكر ما كان يقوله النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه، برقم : (٧٠٦٠) ، وصححه الألباني .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٩/٦) .

العهد المكي من أخلاق وما كان للصلاة والإيمان فيهم من أثر عظيم »[١].

فقوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي : المحافظين على الصلاة ، العريقين في هذا الوصف ، ثم بين -ﷻ- عراقتهم فيه فقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ومجيء الصلة هنا جملة اسمية دون أن يقال: (الذين يداومون) ، لقصد إفادتها الثبات ، وتقديم ﴿هُمْ﴾ يفيد تقوية الحكم وتقريره فى ذهن السامع ، وتخصيص صفة الدوام بالذكر هنا تعطي صورة الاستقرار والاستطراد ، فهي صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل ، ولا يشغلهم عنها شاغل فيواظبون على أدائها ، فهي صلة باللّه مستمرة غير منقطعة ؛ ولذلك عبر بالاسم الدال على الثبات في قوله : ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي : لا فتور لهم عنها ولا انفكاك لهم منها ، بل يلازمونها ملازمة يحكم بسببها أنها في حال الفراغ منها نصب أعينهم ، بدوام الذكر لها والتهيؤ لأدائها لأنها صلتهم بمعبودهم الذي لا خير عندهم إلا منه [٢].

ولما ذكر -ﷻ- صلتهم به من خلال الصلاة ، أتبعه بذكر صلتهم بخلقه من الضعفاء والمساكين والمحرومين من خلال الإنفاق والزكاة ، قال البقاعي: « ولما ذكر زكاة الروح، أتبعه زكاة عديلها المال »[٣].

ولما ذكر الله -ﷻ- صفة الجمع والإيعاء للكافرين في قوله : ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ ، قابله بذكر صفة للمؤمنين فقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ وإعادة اسم الموصول هنا مع الصلات المعطوفة على قوله : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ لمزيد العناية بأصحاب تلك الصلات ، ومجيء الصلة جملة اسمية لإفادة ثبات هذه الخصلة فيهم وتمكنها منهم دفعا لتوهم الشح في بعض الأحيان لما هو معروف بين غالب الناس من معاودة الشح للنفوس[٤].

وقوله : ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ تسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات بالحق ؛ للإشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم من فرط رغبتهم في مواساة

---

(١) التفسير الحديث : (٣٩٩/٥) ، بتصرف .

(٢) انظر : نظم الدرر : (٤٠٢/٢٠-٤٠٣) ، روح البيان : (١٦٤/١٠) ، انظر : في ظلال القرآن : (٣٦٩٩/٦) .

(٣) نظم الدرر : (٤٠٣/٢٠) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٢/٢٩) .

إخوانهم ، وهذا على القول بأن الزكاة لم تكن قد فرضت ، ولم تكن معلومة حين نزول هذه الآية ، وقوله : ﴿مَّعْلُومٌ﴾ كون الحق معلوما أي : أنه يعلمه كل واحد منهم ويحسبونه ، ويعلمه السائل والمحروم بما اعتاد منهم(١).

ولما ذكر -ﷻ- الحق المعلوم أعقبه ببيان المستحقين له ، فقال تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾.

ولما كان في السؤال من بذل الوجه وكسر النفس ما يوجب الرقة مع وقاية النفس من المذمة، قدم قوله : ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ أي : المتكلف لسؤال الإنفاق المتكفف ، ولما كان في الناس من شرفت همته وعلت رتبته على مهاوي الابتذال مع الإقلال ، ندب المقبل على الله للتفطن والتوسم لأولئك فقال : ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي : الذي لا يسأل الناس تعففا مع احتياجه فلا يتفطن له كثير من الناس فيبقى كالمحروم(٢).

قال سيد قطب : « وهي الزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر ، وهي حق في أموال المؤمنين ، أو لعل المعنى أشمل من هذا وأكبر ، وهو أنهم يجعلون في أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم ، وفي هذا تخلص من الشح واستعلاء على الحرص! كما أن فيه شعورا بواجب الواجد تجاه المحروم ، في هذه الأمة المتضامنة المتكافلة .. والسائل الذي يسأل والمحروم الذي لا يسأل ولا يعبر عن حاجته فيحرم. أو لعله الذي نزلت به النوازل فحرم وعف عن السؤال. والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقا في الأموال هو شعور بفضل اللّه من جهة ، وبآصرة الإنسانية من جهة ، فوق ما فيه من تحرر شعوري من ربقة الحرص والشح. وهو في الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها. فهي فريضة ذات دلالات شتى ، في عالم الضمير وعالم الواقع سواء » (٣).

ولما كان صرف المال وإنفاقه قد يكون لإصلاح الدنيا، وقد يكون للسمعة والرياء،بين- ﷻ- أن النافع منه ما كان لإصلاح الآخرة، ولا يكون ذلك إلا لمن آمن بذلك اليوم، فقال

(١) انظر : نظم الدرر : (٤٠٣/٢٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٧٢/٢٩) .

(٢) نظم الدرر : (٤٠٣/٢٠) .

(٣) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٠/٦) .

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وهذا اليوم هو الذي كان الكفار يعدون وقوعه محالا ، كما قال تعالى في آيات الموضوع السابق : ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ .

وقوله : ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ أي : يوقعون التصديق لمن يخبرهم ويجددونه كل وقت ، وإنما أوثر ذكر الفعل المضارع في هذه الآية لدلالته على الاستمرار ، وأن قوله : ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هو يوم القيامة ، وأن التصديق به هو الإيمان بوقوع البعث والحشر والجزاء[1].

وسمّى يوم القيامة «يوم الدين» لأنه يوم الدينونة ، ويوم الحساب ، حيث يدان الإنسان، ويجازى بما عمل[2].

قال سيد قطب مبينا تناسق هذه الآية مع المحور الأساس للسورة : « وهذه الصفة ذات علاقة مباشرة بموضوع السورة الرئيس ، وهي في الوقت ذاته ترسم خطا أساسيا في ملامح النفس المؤمنة ، فالتصديق بيوم الدين شطر الإيمان، وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعورا وسلوكا ، والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المسترِيب فيه ، ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث .. المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض ، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقوّمها .. والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر. ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينحصر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة .. وهو بائس مسكين معذب قلق ؛ لأن ما يقع في هذا الشطر من الحياة الذي يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، قد لا يكون مطمئنا ولا مريحا ولا عادلا ولا معقولا ، ما لم يضف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول. ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقى غيرُه من حوله. ولا تستقيم له حياة رفيعة لا يجد جزاءها في هذه الأرض واضحا ، ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر

(١) انظر : نظم الدرر : (٤٠٥/٢٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٧٢/٢٩) .

(٢) التفسير القرآني للقرآن : (١١٧٩/١٥) .

الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام »[١].

ولما كان يوم الدين يوجد فيه الجزاء إما بالثواب أو بالعقاب ، وكان ربما صرفه بعض المؤمنين إلى الثواب فقط لعلمهم بعموم رحمة الله-ﷻ-، وأن رحمته غلبت غضبه ، أشار بأنه يجب عليهم أن يكونوا بين الخوف والرجاء ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي : خائفون في هذه الدار خوفاً عظيماً هو في غاية الثبات من أن يعذبهم في الآخرة أو الدنيا أو فيهما ، فهم لذلك لا يغفلون ولا يفعلون إلا ما يرضيه -ﷻ- ، والإشفاق يكون من أمرين ، إما الخوف من ترك الواجبات أو الخوف من الإقدام على المحظورات ، وهذا كقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ..﴾[المؤمنون: ٦٠] وكقوله -ﷻ- : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الحج: ٣٥] ، ومن يدوم به الخوف والإشفاق فيما كلف يكون حذرا من التقصير حريصا على القيام بما كلف به من علم وعمل[٢].

ففي هذه الآية إشارة إلى أن الخشية والخوف من عذاب الله ، هى القوة العاملة فى توجيه الإنسان إلى الخير ، وتجنبه للشر [٣] .

وإنما جاءت الجملة اسمية في قوله : ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ لتحقيق وثبات اتصافهم بهذا الإشفاق ؛ لأنه من المغيبات ، فمن شأن كثير من الناس التردد فيه[٤].

ثم إنه تعالى أكد ذلك الخوف بجملة اعتراضية مفادها أن المؤمن لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي ، واحترز عن المحظورات بالكلية ، بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك ، فلا جَرَمَ يكون خائفا أبدا ، قال تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أي : لا ينبغي لأحد أن يأمن عذاب الله ، بل يجوز أن يحل به وإن بالغ في الطاعة لأن الله -ﷻ- له أن يفعل ما يشاء في خلقه ، ومن جوز وقوع العذاب أبعد عن موجباته غاية

---

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٦/٣٧٠٠) .

(٢) انظر : مفاتيح الغيب : (٣٠/٦٤٥) ، نظم الدرر : (٢٠/٤٠٥) .

(٣) التفسير القرآني للقرآن : (١٥/١١٧٩) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : (٢٩/١٧٣) .

الإبعاد و لم يزل مترجحاً بين الخوف والرجاء[١].

وفي هذه الآية تعريض بزعم المشركين الأمن منه إذ قالوا:﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٢][الشعراء: ١٣٨].

قال سيد قطب في هاتين الآيتين : « وهذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين ، درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة ، والشعور بالتقصير في جناب اللّه على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة ، والتطلع إلى اللّه للحماية والوقاية . ولقد كان رسول اللّه-ﷺ-وهو من هو عند اللّه. وهو يعرف أن اللّه قد اصطفاه ورعاه .. كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب اللّه. وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من اللّه ورحمة. وقال لأصحابه : «لن يدخل الجنة أحدا عمله» قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه برحمة »[٣]، وفي قوله هنا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ إيحاء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة ، فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب ، واللّه لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته حاضرة ، وباب التوبة مفتوح ليس عليه مغاليق ! وهذا قوام الأمر في الإسلام بين الغفلة والقلق ، والإسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصول باللّه يحذر ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة اللّه على كل حال »[٤].

ولما ذكر الله-ﷻ- طهارة النفس والمال بالصلاة والصدقة والإيمان باليوم الآخر ، عقب على ذلك بذكر طهارة المجتمع ، وندب إلى التخلي عن أمر جامع بين تدنيس النفس والمال وهو الزنا الحامل عليه شهوة الفرج التي هي أعظم الشهوات حملاً للنفس على المهلكات،

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب : (٦٤٥/٣٠) ، نظم الدرر : (٤٠٦/٢٠) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٣/٢٩) .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، برقم : (٦٤٦٣) ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ، برقم : (٢٨١٨) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٠/٦) .

فقال بعد ذكر التخويف بالعذاب إعلاماً بأنه لا يفعل ذلك إلا من أمن العقوبة من عذاب ربه، فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾أي: أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال، حفظاً ثابتاً دائماً عن كل ما نهى الله عنه من الفواحش إلا في حال تزوّجهم أو تسريهم، فالحفظ يعني: الصيانة والإمساك(١).

ثم استثنى الله -ﷻ- من عموم متعلقات الحفظ المذكورة في الآية السابقة فقال تعالى : ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ والمراد من الآية حل هذين الصنفين من بين بقية أصناف النساء ، وهذا مجمل تبينه تفاصيل الأحكام في عدد الزوجات ، وما يحل منهن بمفرده أو الجمع بينه ، وتفاصيل الأحوال من حال حل الانتفاع أو حال عدة ، فذلك كله معلوم للمخاطبين، وكذلك في الإماء(٢).

وقوله : ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ وإنما قدم الأزواج الحرائر لشرفهن وشرف الولد بهن (٣)، وفي ذلك إشارة إلى أن الأفضل للمؤمن الحرص على الزواج من الحرائر .

وقوله : ﴿مَا مَلَكَتۡ﴾ التعبير عن الإماء باسم ﴿مَا﴾ الموصولة الغالب استعمالها لغير العاقل جرى على خلاف الغالب ، والظاهر أن الإماء لما كن يتصفن ببعض صفات غير العقلاء كبيعهن وشرائهن ، ونحو ذلك ، كان ذلك مسوغا لإطلاق لفظة ﴿مَا﴾ عليهن(٤).

ولما كان النكاح واللهو بالأزواج والإماء مشغلة عن الله تعالى ، والتجرد لعبادته ، وكان الأصل في العبادة الخروج عن العادة، وإن لم يتجرد للعبادة كان ملوماً ، اكتفى في مدحه بنفي اللوم عنه ، وأكده لأن الأصل كان استحقاقه للملام لإقباله على تحصيل ما له من المرام ، فقال تعالى : ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ ففي هذه الجملة تصريح بزائد على حكم مفهوم الاستثناء ، لأن الاستثناء لم يدل على أكثر من كون عدم الحفظ على الأزواج والمملوكات لا يجوز فأريد زيادة بيان أنه أيضا لا يوجب اللوم الشرعي ، فيدل هذا بالمفهوم على أن عدم الحفظ

---

(١) انظر : نظم الدرر : (٤٠٦/٢٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٣/١٨) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٤/١٨) .

(٣) نظم الدرر : (٤٠٧/٢٠) .

(٤) انظر : التحرير والتنوير : (١٤/١٨) ، أضواء البيان : (٣١٩/٥) .

على من سواهن يوجب اللوم الشرعي ليحذره المؤمنون ، واللوم : يعني الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق عند اللائم [١].

ثم بين -ﷻ- أن من أراد أن يتجاوز هذا الحد المذكور فإنه من ضمن المعتدين على حدود الله -ﷻ-، قال تعالى : ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ .

وقوله : ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ أي : طلب بفرجه شيئا غير الأزواج وما ملكت يمينه ، وإنما عبر بصيغة الافتعال لأن ذلك لا يقع إلا عن إقبال عظيم للنفس واجتهاد في الطلب [٢].

وقوله : ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي : شيئاً خارجاً عن هذا الأمر الذي أحله الله تعالى ، وإنما عبر بصيغة الإشارة الموضوعة للبعد لكونه أعلى المراتب في أمر النكاح وقضاء اللذة وأحسنها وأجملها . ولما كان الوصول إلى ذلك لا يكون إلا بتسبب من الفاعل ربط بالفاء ، فقال تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ وإنما أتي لهم باسم الإشارة لزيادة تمييزهم بهذه الخصلة الذميمة ليكون وصفهم بالعدوان مشهورا مقررا ، أي : الذين هم في غاية الحضيض من الدناءة ، وغاية البعد عن مواطن الرحمة ، وفي توسيط ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ تقوية للحكم، أي : هم البالغون غاية العدوان على الحدود الشرعية[٣] .

يقول سيد قطب في هذه الآيات السابقة : « فالإسلام يريد مجتمعا طاهرا نظيفا ، وفي الوقت ذاته ناصعا صريحا ، مجتمعا تؤدى فيه كل الوظائف الحيوية ، وتلبى فيه كل دوافع الفطرة. ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة. مجتمعا يقوم على أساس الأسرة الشرعية المتينة القوائم. وعلى البيت العلني الواضح المعالم. مجتمعا يعرف فيه كل طفل أباه ، ولا يخجل من مولده. لا لأن الحياء مترزع من الوجوه والنفوس ، ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد، واضح الأهداف، يرمي إلى النهوض بواجب إنساني واجتماعي ، لا لمجرد إرضاء النزوة الحيوانية والشهوة الجنسية! ومن ثم يذكر القرآن هنا من صفات المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ

(١) انظر : نظم الدرر : (٤٠٧/٢٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٤/١٨) .

(٢) نظم الدرر : (٤٠٧/٢٠) .

(٣) انظر : نظم الدرر : (٤٠٨/٢٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٥/١٨) .

﴿ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١ ﴾ فيقرر نظافة الاتصال بالأزواج وبما ملكت الأيمان – من الإماء حين يوجدن بسبب مشروع – والسبب المشروع الوحيد الذي يعترف به الإسلام هو السبي في قتال في سبيل اللّه ، وهي الحرب الوحيدة التي يقرها الإسلام – ويجوّز الإسلام وطء الإماء عندئذ من صاحبهن وحده ، ويجعل عتقهن موكولا إلى الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام لتجفيف هذا المورد. ويقف الإسلام بمبادئه صريحا نظيفا لا يدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسي القذر كما يقع لأسيرات الحروب قديما وحديثا ! ولا يتدسس ويلتوي فيسميهن حرات وهن إماء في الحقيقة ! ﴿ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ ، وبذلك يغلق الباب في وجه كل قذارة جنسية ، في أية صورة غير هاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين ، فلا يرى في الوظيفة الطبيعية قذارة في ذاتها ، ولكن القذارة في الالتواء بها ، والإسلام نظيف صريح قويم »[1] .

ولما ذكر الله –ﷻ– المتجاوزين لحدوده ، العادين على أوامره ، بين الواقفين عند حدوده المحافظين على أماناتهم وعهوده ، فقال تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ ، ففي هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى أن من صفات المؤمنين أنهم محافظون على الأمانات، والعهود ، والأمانة تشمل : كل ما استودعك الله ، وأمرك بحفظه ، فيدخل فيها حفظ جوارحك من كل ما لا يرضي الله ، وحفظ ما ائتمنت عليه من حقوق الناس ، والعهود أيضا تشمل : كل ما أخذ عليك العهد بحفظه ، من حقوق الله ، وحقوق الناس [2].

وإنما جمعت الأمانات باعتبار تعدد أنواعها وتعدد القائمين بالحفظ تنصيصا على العموم ، ورعي الأمانة : يعني : حفظها ، ولما كان الحفظ مقصودا لأجل صاحبها ، كان ردها إليه أولى من حفظها ، والجمع بين رعي الأمانات ورعي العهد ؛ لأن العهد كالأمانة ؛ لأن الذي عاهدك قد ائتمنك على الوفاء بما يقتضيه ذلك العهد ، وفي ذكرهما عقب أداء الزكاة

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠١/٦) .

(٢) أضواء البيان : (٣١٩/٥) .

لأن الزكاة أمانة الله عند الذين أنعم عليهم بالمال؛ ولذلك سميت: حق الله، وحق المال، وحق المسكين[١].

ولما كان الإخلال بالأمانات والعهود واردا ، ذكر الله -وَعَجَلَّ- أن من صفات المؤمنين أداء الشهادة على وجهها الذي يحق الحق ويبطل الباطل سواء كان مع أنفسهم أو مع غيرهم من الكفار ، فقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾.

قال البقاعي: «ولما كان أجل العهود والأمانات ما كان بإشهاد قال مبيناً لفضل الشهادة ، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾»[٢].

وقال ابن عاشور : « ذكر لمناسبة ذكر رعي الأمانات إذ الشهادة من جملة الأمانات ؛ لأن حق المشهود له وديعة في حفظ الشاهد فإذا أدى شهادته فكأنه أدى أمانة لصاحب الحق المشهود له كانت في حفظ الشاهد »[٣].

وقوله : ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾ في تقديم المعمول هنا على العامل إشارة إلى أنهم في فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها كأنهم لا شاغل لهم سواها [٤].

وقوله : ﴿قَآئِمُونَ﴾ فى التعبير عن أداء الشهادة وتحملها على وجهها ، بلفظ القيام بها ، إشارة إلى أن الذي يؤديها إنما يقيم بها ميزان العدل ، كما أنه يشير إلى أن أداءها أمر له شأنه وخطره، وأنه مطلوب من الإنسان أن يقوم لها بكيانه كلّه، وأن يظل هكذا قائما حتى يؤديها[٥].

ولما كانت أضداد هذه المذكورات نقائص مهلكات ، وكانت الأنفس - لما لها من النقص - نزاعة إلى النقائص ميالة إلى الدسائس، ذكر -سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ- بالدواء المبرىء من كل داء ، فقال تعالى مشيراً إلى حفظ أحوال الصلاة وأوصافها بعد ذكر الحفظ لذواتها وأعيانها تنبيهاً

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٧/١٨) .
(٢) نظم الدرر : (٤٠٨/٢٠) .
(٣) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٤/٢٩) .
(٤) نظم الدرر : (٤٠٩/٢٠-٤٠٨) .
(٥) التفسير القرآني للقرآن : (١١٨٤/١٥) .

على شدة الاهتمام بها [١] : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾.

قال أبو السعود : « وتكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولا وآخرا باعتبارين : للدلالة على فضلها ، وإنافتها على سائر الطاعات ، وتكرير الموصولات لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات ، إيذانا بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة نعت جليل على حياله له شأن خطير مستتبع لأحكام جمة حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل ، ولا يجعل شيء منها تتمة للآخر»[٢].

وقال ابن عاشور : «إن هذه الجملة ليست مجرد تأكيد لجملة ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين، وقد حصل بين أخرى هذه الصلات وبين أولاها محسن رد العجز على الصدر»[٣].

وزيادة المعنى التي أشار إليها ابن عاشور هي : أنه لما فصل بينهما بتلك الآيات التي تدعو إلى أداء الزكاة ، وإلى التصديق بيوم الدين، والخشية من عذاب الله، وإلى حفظ الفروج ، وأداء الأمانات، والقيام بالشهادات ، كان أداء الصلاة مطلوبا على أية حال، لا يقوم للمؤمن عذر يحلّه من أدائها فى أوقاتها ، أما أداؤها على تلك الصفة الخاصة من الخشوع، والخضوع، والرهبة، والجلال، فهو أداء للأمانة، وأنه لا تبرأ ذمة الإنسان منها إلا بأدائها على تلك الصفة، فإذا لم يؤدها على تلك الصفة، فهى لا تزال أمانة فى عنقه ، ومطلوب منه أن يؤديها على وجهها، أما إذا لم يؤدّ الصلاة أصلا، فهو تضييع لتلك الأمانة ، وهذا يعنى أن دوام الصلاة، والمواظبة عليها فى أوقاتها، من شأنه أن يبلغ بالإنسان يوما، القدرة على أدائها كاملة .

ومن جهة أخرى ، فإن التنويه بالصلاة بدءا وختاما، يجعل هذه الفضائل- التي بين أداء الصلاة، والصفة التي تؤدّى عليها- فى ضمان هذا الحارس القوي الأمين، وهو الصلاة، فإذا لم يكن بين يدي هذه الفضائل صلاة، وإذا لم يكن خلفها صلاة، جاءت هذه الفضائل فى

(١) نظم الدرر : (٤٠٩/٢٠) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٣٤/٩) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٥/٢٩) .

صورة باهتة هزيلة ، لا تلبث أن تجف وتموت، ولا يبقى لها فى كيان الإنسان داع يدعو إليها ، أو هاتف يهتف بها[١].

وقال سيد قطب : « وهي صفة غير صفة الدوام التي ذكرت في صدر هذه الصفات. تتحقق بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها ، وفي فرائضها ، وفي سننها ، وفي هيئتها ، وفي الروح التي تؤدى بها ، فلا يضيعونها إهمالا وكسلا ، ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها ، وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحي بالاحتفال والاهتمام. وبهذا تختم سمات المؤمنين » [٢].

وفي قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ فيه تقديم المسند إليه على المسند الفعلي وذلك لإفادة تقوية الخبر ، وقوله : ﴿يُحَافِظُونَ﴾ أي : يبالغون في حفظها ويجددونه حتى كأنهم يبادرونها الحفظ ويسابقونها فيه فيحفظونها لتحفظهم أو يسابقون غيرهم في حفظها لأوقاتها وشروطها وأركانها ومتمماتها في ظواهرها وبواطنها من الخضوع والمراقبة، وغير ذلك من خلال الإحسان التي إذا فعلوها كانت ولا بد ناهية لفاعلها، فتحمله على جميع هذه الأوامر وتبعد عن أضدادها[٣].

ولما ذكر الله تعالى للمؤمنين هذه الصفات والخصال الجليلة والعظيمة أخبر عن جزائهم عليها في اليوم الآخر ، فقال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

قال البقاعي : « ولما ذكر حِلاهم أتبعه ما أعطاهم فقال مستأنفاً ومستنتجاً من غير فاء ، إشارة إلى أن رحمته هي التي أوصلتهم إلى ذلك من غير سبب منهم في الحقيقة »[٤].

وقال ابن عاشور : « ولما أجريت عليهم هذه الصفات الجليلة أخبر عن جزائهم عليها بأنهم مكرمون في الجنة »[٥].

وإنما جيء باسم الإشارة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ للتنبيه على أنهم الذين استحقوا غاية العلو لما لهم من

---

(١) التفسير القرآني للقرآن : (١١٨٥/١٥) بتصرف .

(٢) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٢/٦) .

(٣) انظر : نظم الدرر : (٢٠/) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٧٥/٢٩) .

(٤) نظم الدرر : (٤١٠/٢٠) .

(٥) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٥/٢٩) .

هذه الأوصاف العالية[١].

قال أبو السعود : « إشارةٌ إلى الموصوفين بما ذُكر من الصِّفاتِ ، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشارِ إليهم للإيذانِ بعلوّ شأنهم وبُعد مترلتهم في الفضل »[٢].

وقوله : ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ الإكرام: التعظيم وحسن اللقاء ، والمعنى : أنهم مع جزائهم بنعيم الجنات يكرمون بحسن اللقاء والثناء[٣].

قال سيد قطب : «يجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسي ولون من النعيم الروحي ، فهم في جنات ، وهم يلقون الكرامة في هذه الجنات ، فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم ، جزاء على هذا الخلق الكريم ، الذي يتميز به المؤمنون »[٤].

(١) نظم الدرر : (٤١٠/٢٠) .

(٢) إرشاد العقل السليم : (٣٤/٩) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٥/٢٩) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٢/٦) .

المطلب الرابع
التفسير الإجمالي لآيات الموضوع

يقول الله تعالى مستثنيا مما تقدم من أحوال الإنسان المجرم المطبوع على الهلع والجزع والمنع ، ومما سيكون عليه يوم القيامة من الشقاء والبؤس والعذاب ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي : الموصوفين بالمداومة على الصلاة ، والمواظبة عليها ليل نهار ، وهؤلاء معترفون بما أوجب الله عليهم في أموالهم من زكاة وصدقة ، وإعطائه بطيب نفس لمن سأل ولمن لم يسأل ، ممن لا يتفطن له ، ممن هم من أهل الزكاة والصدقات ، وهؤلاء أيضا يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها ، وهم بعد كل ذلك خائفون وجلون مشفقون ، فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله ، فعذابه -ﷻ- هو العذاب الذي يخشى ويحذر .

وهؤلاء أيضا هم الذين يكفّون فروجهم عن الحرام ، فلا يطأون بها وطئا محرما ، ويتركون أيضا الوسائل المحرمة الداعية لفعل الفاحشة ، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن اللّه فيه، من الزوجات والإماء ، فإنه لا لوم عليهم في الاستمتاع المشروع بهما ، فمن قصد المتعة بغير هذين السبيلين : الزواج والتمتع بملك اليمين ، فهم المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله ، وهم المعتدون الضارّون لأنفسهم وأهليهم ومجتمعاتهم

وهؤلاء أيضا حافظون ومجتهدون على أداء الأمانات والوفاء بالعهود ، سواء تلك التي بينهم وبين ربهم ، أو التي بينهم وبين الخلق .

وهؤلاء هم الذين يؤدّون الشهادات بحق ، ولا يشهدون إلا بما يعلمونه ، ويحافظون عليها دون زيادة ولا نقصان ، ودون مجاملة لقريب أو بعيد ، أو رفيع أو ذي منصب وجاه، ولا يكتمونها ولا يغيرونها ويقصدون بذلك وجه الله تعالى.

وهؤلاء أيضا هم الذين يقومون بالمحافظة على الصلوات مستوفاة للشروط والأركان على أكمل وجوهها .

فالموصوفون بتلك الصفات هم في الدار الآخرة أهل للإكرام ودخول الجنان ، فهم في جوار ربهم مكرمون منعمون .

المطلب الخامس

مما ترشد إليه الآيات

أولا : أن الصفات العظيمة المذكورة في آيات هذا المقطع متى ما اتصف بها العبد المؤمن فإنه سيكون أهلا لرضوان الله تعالى وكرمه ، ودخول جناته ؛ ولذا فإن على المؤمن أن تكون هذه الصفات نصب عينيه ، لكي يستحق الإكرام من الكريم المنان .

ثانيا : أن للصلاة شأنا عظيما ، ومكانة عالية عند الله تعالى ، ويتضح ذلك من خلال مجيء الاستثناء من تلك الصفات المذكورة في الآيات السابقة بلفظ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ثم النهاية بتأكيد أمر الصلاة والمحافظة عليها ، ففي افتتاح هذه الصفات وختمها بها دلالة على مدى اهتمام الشرع بها، وعلى شرفها ، وعلو قدرها .

ثالثا : من صفات المؤمنين باليوم الآخر الإحسان إلى الخلق ، ودفع العوز والحاجة عن السائل والمحروم ، وبذلك تشيع المحبة والألفة في المجتمع المؤمن .

رابعا : ضرورة المحافظة على طهارة المجتمع المسلم ، وذلك بطهارة العلاقة بين الرجل والمرأة ، وأن هذه العلاقة لا تكون إلا عن طريق الزواج أو ملك اليمين .

خامسا : أهمية القيام على حفظ الأمانات والعهود ، وأداء الشهادات على وجهها الأكمل، وأن قيام المجتمع المؤمن سواء على مستوى الفرد والمجتمع هو الضامن لهم على البقاء والخلافة في الأرض ، سواء كان ذلك بينهم وبين ربهم ، أو بينهم وبين غيرهم من الشعوب ، أو مع بعضهم البعض .

المبحث الثالث

المنكرون لليوم الآخر وبعض أحوالهم

ويشمل الآيات (٣٦-٤٤) ، وفيه خمسة مطالب :

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة .

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق .

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع.

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع.

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات .

المنكرون لليوم الآخر وبعض أحوالهم

قال تعالى : ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

المطلب الأول
ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة

بعد التأمل والتدبر في آيات هذا الموضوع ، نلحظ ارتباطها بموضوع ومحور السورة الأساس ، وهو (اليوم الآخر ، وصفات المؤمنين به وحال المنكرين له) ، وأن هذا الموضوع ختام بديع لموضوعات السورة ومحورها الأساس ، فبعد أن افتتحت السورة بالرد على سؤال السائل عن العذاب ، ثم أتبعت ذلك بذكر أوصاف اليوم الآخر الذي سيقع فيه هذا العذاب ، وذكرت بعضا مما يقع فيه من الأهوال العظام ، والشدائد الجسام ، عقبت على ذلك بذكر حال المجرمين في ذلك اليوم ، وما يلاقونه من الحساب والنكال ، ثم استثنت الآيات من ذلك المؤمنين باليوم الآخر ، ففصلت في صفاتهم ، وذكرت أن مآلهم في هذا اليوم جنات مكرمون فيها ، ثم عادت الآيات هنا إلى بيان بعض أحوال المكذبين المنكرين لليوم الآخر لتختتم السورة ببيان مآلهم في ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون .

المطلب الثاني
التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق

بعد ذكر تناسق المحور الأساس والموضوع الكلي للسورة مع هذا الموضوع ، تبين لي أيضا أن هذا الموضوع متناسق موضوعيا مع الموضوع السابق وذلك أنه لما ذكرت في آيات الموضوع السابق الصفات التي يتحلى بها المؤمنون ، ونتج عنها بيان حالهم في اليوم الآخر وأنهم منعمون ومكرمون في جنات أعدها الله لهم ، ذكر في آيات هذا الموضوع جانبا من أحوال المنكرين لليوم الآخر في ذلك اليوم ، وبيان رغبتهم وطمعهم في دخول تلك الجنان ، بعد أن أيقنوا بوجودها ، وبعد أن تكشفت لهم الحقائق في ذلك اليوم .

فجاء النص القرآني لردع هؤلاء المنكرين وزجرهم عن الطمع فيما لا مطمع لهم فيه ، فقال تعالى : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا﴾ ، مشيرا إلى أن ذلك كله مقرون بالإيمان باليوم الآخر ، فليس لهم من أعمالهم تلك شيء سوى التعب ، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣].

ثم ختمت السورة ببيان مآل هؤلاء الطامعين في دخول الجنان ، فتصف حالهم في ذلك اليوم الذي كذبوه ، ويكفينا في ذلك أن نتأمل ونتدبر بتمعن بين النهايتين المذكورتين في هذا المقطع والمقطع الذي قبله ، حيث قال تعالى هناك مبينا جزاء المؤمنين باليوم الآخر : ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ وقال تعالى هنا مبينا جزاء المكذبين باليوم الآخر ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

ومما يجدر بالذكر في هذا الموضع أن أقوال علماء التفسير اختلفت في المراد من قوله تعالى : ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ ، بالرغم من اتفاق أكثرهم على حصول ذلك من المشركين في الدنيا ، وأن الله -ﷻ- يصف حالهم مع النبي -ﷺ- وما صدر منهم في ذلك .

ويكفي أن ننقل في ذلك من مصدرين من مصادر أمهات التفسير لنتعرف على هذا الاختلاف بين أقوالهم : قال القرطبي : « والمعنى: ما بالهم يسرعون إليك ويجلسون حواليك

ولا يعملون بما تأمرهم . وقيل: أي : ما بالهم مسرعين في التكذيب لك. وقيل : أي : ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع منك ليعيبوك ويستهزءوا بك . وقال عطية : مهطعين : معرضين . والكلبي : ناظرين إليك تعجبا. وقال قتادة: عامدين. والمعنى متقارب، أي : ما بالهم مسرعين عليك، مادِّين أعناقهم، مدمني النظر إليك. وذلك من نظر العدو. وهو منصوب على الحال ، نزلت في جمع من المنافقين المستهزئين ، كانوا يحضرونه -عليه السلام- ولا يؤمنون به » ، ثم قال -رحمه الله- في قوله تعالى : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ : « قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبي -ﷺ- ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم ، ولين أعطوا منها شيئا لنعطين أكثر منه، فنزلت: ﴿أَيَطْمَعُ﴾الآية »[1].

وقال ابن كثير : « يقول تعالى منكرا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي -ﷺ- وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه، شاردون يمينا وشمالا فرقا فرقا، وشيعا شيعا ، كما قال

تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾[المدثر:٤٩،٥١]، وهذه مثلها ؛ فإنه قال تعالى : ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي : مسرعين نافرين منك ، منطلقين ، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي : متفرقين » ، إلى أن قال : « وقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ أي : أيطمع هؤلاء -والحال هذه- من فرارهم عن الرسول -ﷺ- ونفارهم عن الحق - أن يدخلوا جنات النعيم ؟ كلا بل مأواهم الجحيم »[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن : (١٨/٢٩٣-٢٩٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم : (٨/٢٢٨-٢٢٩) .

المطلب الثالث

التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع

لما انتهت الآيات السابقة إلى منازل المؤمنين في الآخرة ، وأنهم في جنات مكرمون ومنعمون، التفتت هذه الآيات إلى هؤلاء المشركين المنكرين لذلك اليوم ، فذكرت حالهم أثناء البعث والنشور ، فقال تعالى : ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي : ما بال هؤلاء الذي كفروا وأنكروا اليوم الآخر يتحركون أمامك يمينا وشمالا .

وقوله : ﴿قِبَلَكَ﴾ أي : حواليك وأمامك ، وتقديمها على ﴿مُهْطِعِينَ﴾ للاهتمام به[1] ، لأن التعجب من حالهم في حضرة النبي-ﷺ- .

وقوله تعالى : ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي : متفرقين ينتشرون جماعات جماعات يمينا وشمالا، والمقصود من ذكر اليمين والشمال : الإحاطة بالجهات فاكتفي بذكر اليمين والشمال، لأنهما الجهتان اللتان يغلب حلولهما[2].

وقوله : ﴿عِزِينَ﴾ ، أي : جماعات متفرقة ، واحدتها عزة ، وأصله من : عزوته فاعتزى ، أي: نسبته فانتسب ، فكأنهم الجماعة المنتسب بعضهم إلى بعض[3].

وقوله : ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ التعبير بالطمع إشارة إلى أنهم بلغوا الغاية في السفه لكونهم طلبوا أعز الأشياء من غير سبب تعاطوه له[4].

وإسناد الطمع إلى ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾ دون أن يقال : (أيطمعون أن يدخلوا الجنة) ، يدل على أن كل واحد منهم يريد أن يدخل الجنة .

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٦/٢٩) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٧/٢٩) .

(٣) المفردات في غريب القرآن : (٥٦٥) .

(٤) نظم الدرر : (٤١٣/٢٠-٤١٤) .

وفى تنكير ﴿جَنَّةَ﴾ إشعار بأنهم مردودون من كل جنة ، وان كانت الجنان كثيرة ، وفى توصيفها بـــ﴿نَعِيمٍ﴾ إشعار بأن كل جنة مملوءة بالنعمة ، وأن من طرد من راحة النعيم وقع فى كدر الجحيم(١) .

ولما كان معنى الاستفهام الإنكاري المفيد للنفي : لا يدخل، أكد ذلك مع إفهام الضجر والاستصغار بالإتيان بأم الزواجر والروادع فقال: ﴿كَلَّآ﴾، أي: لا يكون ما طمعوا فيه أصلاً(٢)؛ لأن دخول الجنة لا بد أن يكون عن إيمان بالله واليوم الآخر ، وإذن الله للشافعين في الشفاعة.

ولما نفى الله تعالى عن الكفار دخول الجنة ، وقطع أطماعهم عنها ، أشار إلى أنهم كيف لهم أن يطمعوا في ذلك وهم لم يستفيدوا من الأدلة الكثيرة التي تقودهم إلى الإيمان بالله ، وتبين لهم قدرة الله تعالى على البعث ، من خلال التفكر والتأمل في الأنفس والآفاق ، فقال تعالى مستدلا عليهم في ذلك بالخلق الأول لأنفسهم الذي هم معترفون به ، في إشارة إلى أن الإعادة أهون منها : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ .

وقد ذكر العلماء في المقصود بهذه الآية ثلاثة أوجه :

أحدها : تحقير الإنسان والردّ على المتكبرين .

الثاني : الردّ على الكفار في طمعهم أن يدخلوا الجنة ، كأنه يقول: إنا خلقناكم مما خلقنا منه الناس لأنكم سواء في الخلقة .

الثالث : الاحتجاج على البعث بأن الله خلقهم من ماء مهين ، فهو قادر على أن يعيدهم(٣).

وقد رجح الزمخشري الأخير ، لكونه الوجه الموافق لسياق الآيات وتناسق الموضوعات ، حيث قال : « ثم علل ذلك بقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إلى آخر السورة ، وهو كلام دال على إنكارهم البعث ، فكأنه قال : كلا إنهم منكرون للبعث والجزاء ، فمن أين

(١) روح البيان : (١٠/١٦٩) .

(٢) نظم الدرر : (١٠/١٦٩) .

(٣) مفاتيح الغيب : (٣٠/٦٤٧) .

يطمعون في دخول الجنة ؟ فإن قلت : من أى وجه دل هذا الكلام على إنكار البعث ؟ قلت : من حيث أنه احتجاج عليهم بالنشأة الأولى ، كالاحتجاج بها عليهم في مواضع من التنزيل، وذلك قوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ ، أى : من النطف ، وبالقدرة على أن يهلكهم ، ويبدل أناسا خيرا منهم ، وأنه ليس بمسبوق على ما يريد تكوينه لا يعجزه شيء ، والغرض أن من قدر على ذلك لم تعجزه الإعادة »[1].

ويرى ابن عاشور أن هناك علاقة بعيدة بين هذه الجملة والآيات التي قبلها ، وأن هذه الجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا ، حيث يقول : «كلام مستأنف استئنافا ابتدائيا للانتقال من إثبات الجزاء إلى الاحتجاج على إمكان البعث إبطالا لشبهتهم الباعثة على إنكاره ، وهو الإنكار الذي ذكر إجمالا بقوله المتقدم آنفا ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ ، فاحتج عليهم بالنشأة الأولى، فالخبر بقوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ مستعمل في لازم معناه وهو إثبات إعادة خلقهم بعد فنائهم »[2].

وإنما أبهم هنا منشأ خلقهم ؛ للاشعار بأنه مما يستحى من ذكره ، وهو ما يعلمه كل أحد من أنه كان من ماء مهين ، ثم في بطن أمه كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ، وهم بالرغم من علمهم بهذه النشأة الأولى ألهاهم التعود بها عن التدبر في دلالتها على إمكان إعادة المكون منها بتكوين آخر[3].

قال سيد قطب : « والتعبير القرآني المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفية العميقة في الوقت ذاته فيمسح بها كبرياءهم مسحا ، وينكس بها خيلاءهم تنكيسا ، دون لفظة واحدة نابية ، أو تعبير واحد جارح ، بينما هذه الإشارة العابرة تصور الهوان والزهادة والرخص أكمل تصوير! فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع؟ وهم مخلوقون مما يعلمون! وهم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه، وخرق لسنته في الجزاء العادل باللظى وبالنعيم»[4].

---

(١) الكشاف : (٦١٤/٤) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٨/٢٩) .

(٣) انظر : نظم الدرر : (٤١٥/٢٠) ، انظر : التحرير والتنوير : (١٧٨/٢٩) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٣/٦) .

وقوله : ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ فيه إيماء إلى أنهم يخلقون الخلق الثاني مما لا يعلمون كما قال في الآية الأخرى : ﴿...وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١](١) .

ولما ذكر-سبحانه وتعالى- الدليل على قدرته على النشأة الأولى لهؤلاء الكفار ، حيث خلقهم من ماء مهين معلوم لديهم ، عقب على ذلك بالاستدلال على النشأة الثانية فقال تعالى : ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

فالفاء في قوله : ﴿فَلَآ﴾ هي فاء الفصيحة ، أي : إذا كان الأمر كما ذكرنا من أنّا خلقناهم مما يعلمون فأُقسم برب المشارق والمغارب(٢).

قال ابن كثير : « تقدير الكلام : ليس الأمر كما يزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة ، ولهذا أتى بـــ "لا" في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات »(٣).

فالمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه هنا : أنه -سبحانه وتعالى- لما كان رب المشارق التي هي مكان بدء ظهور الشمس والقمر وما يظهر منها من الكواكب ، ورب المغارب التي هي محل غروبها ، وكانت المشارق محل بدء ، والمغارب محل انتهاء ، أقسم الله تعالى بهما لكون ما بينهما هو محل بدء حياة الإنسان وانتهائها ، فكما أن الشمس تبدأ وتنتهي وتعود مرة أخرى ، فكذلك الإنسان يبدأ وينتهي ويبعث مرة أخرى ، وفي هذا أيضا بيان لسهولة ذلك ، وأن قدرة الله تعالى على البعث كقدرته على تسيير هذه الكواكب والنجوم والشمس والقمر من مشارقها إلى مغاربها وبدئها وإنهائها ، فالله تعالى بقسمه هذا يلفت انتباه هؤلاء المنكرين

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٩/٢٩) .

(٢) البحر المديد : (١٤١/٧) .

(٣) تفسير القرآن العظيم : (٢٢٩/٨) .

للبعث إلى أمر محسوس يدل على قدرة الله تعالى على البعث ، مؤكدا لهم ذلك بالقسم بربوبيته لما يرونه كل يوم ويشاهدونه بأعينهم ولا يشكون فيه ، وهو مكان شروق الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، ومكان غروبها .

قال ابن عطية : « أقسم الله تعالى في هذه الآية بمخلوقاته على إيجاب قدرته ، على أن يبدل خيرا من ذلك العالم ، وأنه لا يسبقه شيء إلى إرادته »(١).

وقال ابن القيم : « وأما سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ فإنه أقسم -ﷻ- على عموم قدرته وكمالها وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين ، وينشئهم فيما لا يعلمون فيأتي بهم في نشأة أخرى كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع ويذهب بها في مغرب ، وفي ربوبيته -ﷻ- للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السماوات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم وربوبيته ما بين الجهتين وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه »(٢).

وقال ابن عاشور : « والقسم بالله بعنوان ربوبيته المشارق والمغارب معناه : ربوبيته العالم كله لأن العالم منحصر في جهات شروق الشمس وغروبها ، وجمع المشارق والمغارب باعتبار تعدد مطالع الشمس ومغاربها في فصول السنة فإن ذلك مظهر عجيب من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية لدلالته على عظيم صنع الله من حيث إنه دال على الحركات الحافة بالشمس التي هي من عظيم المخلوقات ،ولذلك لم يذكر في القرآن قسم بجهة غير المشرق والمغرب دون الشمال والجنوب مع أن الشمال والجنوب جهتان مشهورتان عند العرب ، وفي إيثار المشارق والمغارب بالقسم بربها رعي لمناسبة طلوع الشمس بعد غروبها لتمثيل الإحياء بعد الموت »(٣).

---

(١) المحرر الوجيز : (٣٧١/٥) .

(٢) التبيان في أقسام القرآن : (١٩٥-١٩٦) .

(٣) انظر : التحرير والتنوير : (١٧٩/٢٩) .

وقال سيد قطب: « والأمر ليس في حاجة إلى قسم ، ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب، يوحي بعظمة الخالق ، والمشارق والمغارب قد تعني مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسيح ، كما أنها قد تعني المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض ، وهي تتوالى في كل لحظة ، ففي كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفي مغرب ، وأيا كان مدلول المشارق والمغارب ، فهو يوحي إلى القلب بضخامة هذا الوجود، وبعظمة الخالق لهذا الوجود ، فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب ، على أنه-ﷻ- قادر على أن يخلق خيرا منهم ، وأنهم لا يسبقونه ولا يفوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم؟!»[1].

وهذه الآية مع قصرها يوجد فيها عدد من أنواع الالتفات ففي قوله : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ التفات من التكلم مع الغير في قوله : ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ إلى التكلم وحده ، وفي ذلك تأكيد للقسم بإسناده إلى الله تعالى نفسه .

وفي قوله : ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ التفات من التكلم وحده إلى الغيبة ، وفي ذلك إشارة إلى صفة من صفاته تعالى ، وهي : ربوبيته للمشارق والمغارب .

وفي قوله : ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ، وفي ذلك إشارة إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة على البعث .

وقوله : ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾ ، أي : قادرون على أن نبعثهم ، ونجعلهم خيرا مما كانوا عليه في الدنيا في صورهم وهيئاتهم ، وفي هذه الجملة بيان لكمال قدرة الرب تعالى ومشيئته ، فلو تذكر هؤلاء الكفار أحوال النشأة الأولى لدلهم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبوا بها .

وقد اختار ابن جرير الطبري أن التبديل هنا المراد به هنا هو التبديل بأمة خير منهم ، وهذا اختيار الامام ، حيث قال -رحمه الله-: « إنا لقادرون على أن نهلكهم ، ونأتي بخير منهم من الخلق يطيعونني ولا يعصونني »[2] .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٣/٦) .

(٢) جامع البيان : (٦٢٢/٢٣) .

إلا أن الحافظ ابن كثير يرى أن هذا المعنى مرجوح ، وأن المعنى الأظهر في ذلك هو ما كان موافقا لسياق آيات السورة ، حيث قال -رحمه الله- : « قال هاهنا : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ، أي : يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك ، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين. كما قال-تعالى-: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة: ٣، ٤]. وقال-تعالى-: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، واختار ابن جرير﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ، أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها كقوله : ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[محمد : ٣٨]. والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه»[(١)].

وأيضا فقد يعترض على ما ذهب إليه الطبري وغيره من علماء التفسير بأنه : « لم يقع هذا التبديل ، فإنهم أو أكثرهم بقوا على جملة كفرهم إلى أن ماتوا ، وإنما كان يصح وقوع التبديل بهم لو أهلكوا ، لأن مراده -تعالى- بقوله : ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ بطريق الإهلاك، فإذا لم يحصل ذلك فكيف يحكم بأن ذلك قد وقع »[(٢)].

فالمعنى الذي رجحه ابن كثير في هذه الآية هو الذي يتجه إلى السياق ، وتؤيده الأدلة من الكتاب والسنة ، والله أعلم .

ولهذا ذكر ابن عاشور هذين الاحتمالين في تفسير الآية مرجحا ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير ، قائلا : « **أولهما** : وهو المناسب للسياق أن يكون المعنى على أن نبدلهم خيرا منهم ، أي : نبدل ذواتهم خلقا خيرا من خلقهم الذي هم عليه اليوم ، والخيرية في الإتقان والسرعة ونحوهما ، وإنما كان خلقا أتقن من النشأة الأولى ؛ لأنه خلق مناسب لعالم الخلود، وكان الخلق الأول مناسبا لعالم التغير والفناء ، وعلى هذا الوجه يكون نبدل مضمنا معنى : نعوض . **والمعنى الثاني** : أن نبدل هؤلاء بخير منهم ، أي : بأمة خير منهم ، والخيرية في الإيمان ،

(١) تفسير القرآن العظيم : (٢٢٩/٨) .

(٢) مفاتيح الغيب : (٦٤٨/٣٠) .

فيكون نبدل على أصل معناه ، ويكون هذا تهديدا لهم بأنه سيستأصلهم ويأتي بقوم آخرين »[١].

وختمت هذه الآية بقوله-تعالى-: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ والمسبوق من السبق ويستعار لإحراز الفضل والتبريز ، شبه بالمسبوق في الحلبة ، أو بالمسبوق في السير ، والمعنى : لا يفوتوننا[٢].

ولما ذكر-ﷻ-كمال قدرته على النشأة الأولى والثانية ، تهدد وتوعد الكفار بغاية التهديد والوعيد بعد هذا البيان الواضح والقسم العظيم ، فقال تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ، أي : دعهم يا محمد في تكذيبهم وعنادهم ، حتى يأتي ذلك اليوم الذي يوعدون فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله[٣] .

قال سيد قطب : « وفي هذا الخطاب من تهوين شأنهم ، ومن التهديد لهم ، ما يثير الخوف والترقب ، وفي مشهدهم وهيئتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف ، كما أن في التعبير من التهكم والسخرية ما يناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بمكانتهم »[٤].

فقوله : ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أي : اتركهم ، ومعنى الأمر بتركهم ، ترك ما أهم النبي -ﷺ- من عنادهم وإصرارهم على الكفر مع وضوح الحجج على إثبات البعث ، ولما كان أكبر أسباب إعراضهم وإصرارهم على كفرهم هو خوضهم ولعبهم كني به عن الإعراض بقوله : ﴿يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ والمعنى : فأعرض عنهم في حال خوضهم في الأحاديث ولعبهم في مواقع الجد حين يستهزئون بالإسلام . واللعب : المزح والهزل[٥].

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٨٠/٢٩) .

(٢) المفردات في غريب القرآن : (٣٩٥) .

(٣) تفسير القرآن العظيم : (٢٤٤/٨) .

(٤) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٣/٦) .

(٥) انظر : التحرير والتنوير : (٢٦٧/٢٥) .

وفي تسمية إعراضهم بالخوض واللعب فيه دلالة على أنهم لا ينتفعون به انتفاعا حقيقيا كاللعب الذي لا نفع فيه .

فالمراد من الأمر بالترك كناية عن التحقير وقلة الاكتراث ، أي : لا تكترث بهم ، فإنهم دون أن تصرف همتك في شأنهم ، وبهذا يعلم أن قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ﴾ لا علاقة له بحكم القتال، ولا هو من الموادعة ولا هو منسوخ بآيات السيف كما ذكره بعضهم[١].

وقوله : ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾ المراد بحتى الغائية هنا كناية عن دوام تركهم ، و﴿يُلَاقُوا﴾ من اللقاء ، وهو مجاز ؛ لأن اليوم لا يَلقَى ولا يُلقَى ، وفائدته : الإشارة إلى أنه لقاء متحقق ، و﴿يَوْمَهُمُ﴾ إضافة يوم إلى ضميرهم دلالة على اختصاصه بهم ، أي : هو معين لجزائهم[٢].

ثم ذكر-ﷻ-بيانا وتوجيها عن اليوم الذي تقدم في الآية السابقة[٣]، ووصفا لحال الكفار في ذلك اليوم ، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يوم يخرجون من قبورهم إذا دعاهم الداعي لموقف الحساب ، سراعا يسابق بعضهم بعضا، كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه ، ويبتدرون أيهم يستلمه أولا[٤] ، يمنّون فيه أنفسهم بالربح العظيم من عبادتها ، والطمع في شفاعتها .

فقوله : ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث ، وهو القبر ، والعرب تعقب بين الفاء والثاء ، وتقول أيضا : جدف[٥].

وقوله : ﴿نُصُبٍ﴾ جمع نصيب ، وهي الحجارة والأصنام التي كانت تعبدها العرب ، ووجه تسميته نصبا أنه ينصب ويوضع للعبادة[٦].

---

(١) انظر : التحرير والتنوير : (١٨٢/٢٩) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (٢٦٧/٢٥-٣٢/٢٧-١٨٣/٢٩) .

(٣) جامع البيان : (٦٢٣/٢٣) .

(٤) تفسير القرآن العظيم : (٢٤٤/٨) .

(٥) انظر : المفردات في غريب القرآن : (١٨٨-١٨٩٩) ، ولسان العرب : (٢٤/٩) .

(٦) المفردات في غريب القرآن : (١٨٣) .

وقوله : ﴿يُوفِضُونَ﴾ من الإيفاض ، وهو الإسراع في السير [١].

قال ابن عاشور : « شبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها ؛ لأن لهذا الإسراع اختصاصا بهم ، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام وإيماءٌ إلى أن إسراعهم يوم القيامة جزاءٌ على إسراعهم للأصنام في الدنيا »[٢].

وقال سيد قطب : « فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونها ، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا ، لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب في الأعياد ويتجمعون حولها ، فهاهم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !»[٣].

ولما ذكر-سبحانه وتعالى-فيما سبق من الآيات حال الكفار في الدنيا من الخوض واللعب، ذكر حالهم في الآخرة من الخشوع والخضوع والذلة ، جزاء وفاقا ، قال تعالى : ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾ .

قوله : ﴿خَٰشِعَةً﴾ أصل الخشوع : الضراعة ، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح ، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب[٤].

وقوله : ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ الرهق غشيان الشيء بقهر[٥]، وفي تنكير ﴿ذِلَّةٞ﴾ دلالة على شدتها وعظمتها ، أي : تغشاهم ذلة شديدة وحقارة عظيمة .

قال سيد قطب : « فنلمح من خلال الكلمات سيماهم كاملة، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة. صورة ذليلة عانية ، لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون »[٦].

---

(١) المفردات في غريب القرآن : (١٨٣) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير : (١٨٣/٢٩) .

(٣) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٣/٦) .

(٤) المفردات في غريب القرآن : (٢٨٣) .

(٥) المفردات في غريب القرآن : (٣٦٧) .

(٦) انظر : في ظلال القرآن : (٣٧٠٣/٦) .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ﴾ إشارة اليوم بـــ﴿ذلِكَ﴾ الموضوع للبعد إشارة إلى عظم ما سيقع فيه من الأهوال العظام والأحداث الجسام .

وقوله : ﴿كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي : يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل وهم كانوا يكذبون به .

وليس هاهنا تكرار بين هذا الوعد والوعد الذي في الآية السابقة لأن الوعد الأول محمول على الآني والاستمراري ، وهذا الوعد محمول على الماضي بدلالة لفظ كان ، وفي ذلك إشارة إلى أن ما وعد الله به يكون ولا محالة[1].

المطلب الرابع
التفسير الإجمالي لآيات الموضوع

يقول الله -تبارك وتعالى- لنبيه محمد -ﷺ- ما بال الكفرة المجرمين ، أمامك وتجاهك مادِّين أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، متفرقين جماعات يمينا وشمالا ، فهل يطمع كل واحد من هؤلاء الكفار المجرمين ، أن يدخله الله جنات النعيم ، كلا ليس الأمر كما يطمعون ، فإنهم لا يدخلونها أبداً ، لإنه ليس لهم فضل يستوجبون به دخول ا لجنة ؟ ، فهم لو اتعظوا وتأملوا في خلق الله لهم من ماء مهين يعلمونه جميعا ، لعلموا أن الله قادر على بعثهم من قبورهم ، بعد أن خلقهم من ذلك الماء المهين ، فالإعادة أهون من البداءة ، كما في نظرهم .

ثم أقسم-ﷻ-بمشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها ، وفي ذلك إشارة إلى بيان قدرته-ﷻ-وأن تلك الأجرام السماوية في أفولها وبعثها مرة أخرى أعظم دلالة على قدرته-ﷻ- على خلق الإنسان وإعادته خيرا مما كان عليه في الدنيا ، فليس بعاجز -ﷻ- عن

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن : (٢٩٧/١٨) ، روح البيان : (١٧١/١٠) .

ذلك .

ثم أمر -ﷻ- نبيه محمدا-ﷺ-بعد هذا البيان الواضح أن يترك هؤلاء الكفار يخوضون في باطلهم ويلعبون ويلهون في دنياهم، فإن في انتظارهم يوما عصيبا رهيبا كانوا يوعدون به في الدنيا، وذلك اليوم سيخرجون فيه من قبورهم إِلى أرض المحشر مسرعين ، كأنهم يسعون ويستبقون إِلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها .

ثم ذكر -ﷻ- حال الكفار في ذلك اليوم ، وقد بدت على أبصارهم آثار الخشوع والخضوع ، واستولت عليهم المذلة الشديدة ، وأنهكت نفوسهم بوطأتها القوية ، لهول العذاب الذي يواجهونه في ذلك اليوم الذي لم يعملوا له حسابا ، ولم يصدقوا به ، وها هو قد جاءهم بالعذاب الذي كانوا يسألونه ، ويتوعدون به في الدنيا .

المطلب الخامس

مما ترشد إليه الآيات

أولا : أن في قوله : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تنبيه إلى أن الناس كلهم من أصل واحد ، وإنما يتفاضلون بالايمان والطاعة ، وأن تفاضلهم في الجنة يكون بأعمالهم لا بنسبهم ومكانتهم عند الناس .

ثانيا : سعة علم الله وإحاطته ، وقدرته على إهلاك المعاندين ، فلا أحد يخرج عما بين المشارق والمغارب .

ثالثا : أن في قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ حثا للدعاة والمصلحين على الصبر وتحمل أذية المدعوين. والله أعلى وأعلم، وأعز وأحكم ، سبحانه وتعالى.

الـخـــاتـمـــة

وتشتمل على :-

أولا : أهم نتائج البحث .

ثانيا : توصيات الباحث .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من جاءنا بالهدى والبينات، وعلى آله وصحبه أولى المناقب والمكرمات ، وبعد :

فإنني إذ أضع رحالي في بحثي المتواضع الذي عشت فيه مع سورتي التحريم والمعارج ، أسأل الله -ﷻ- كما أعانني على تدبرهما وتأملهما والتفكر في مواضيعهما ومعانيهما وألفاظهما ، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يأجرني ويتجاوز عنى لفرط جهلي ، وعظيم تقصيري ، وأن ينفع به الأمة ، ويجعله مباركا ، وسأسوق فيما يلي أهم النتائج والتوصيات في هذا البحث .

❖ **أولا : أهم النتائج التي أظهرها هذا البحث :**

١- أظهر هذا البحث الفرق بين التناسب والتناسق الموضوعي في القرآن الكريم ، فالتناسب يكون في الألفاظ والجمل والآيات ، والتناسق يكون بين موضوعات السورة الواحدة .

٢- من خلال دراسة التناسق الموضوعي في سورتي التحريم والمعارج اتضح لي أن النظم القرآني يشمل أربعة مصطلحات بعضها أخص من بعض ، فنظام القرآن هو أعم تلك المصطلحات ثم يدخل تحته التناسب ، ثم يدخل تحت التناسب التناسق ، ثم يدخل تحت التناسق الوحدة الموضوعية ، فكل واحد من هذه المصطلحات مبني على الآخر .

٣- أن دارسة التناسق الموضوعي في السورة القرآنية هي الطريق لمعرفة الوحدة الموضوعية في السورة ، واستجلاء المحور الأساس والموضوع الكلي للسورة .

٤- أنه لم يثبت في تسمية سورتي التحريم والمعارج اسمان توقيفيان عن النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنهما اشتهرتا بهذه الإسمين في كتب الحديث والتفسير .

٥- لم يثب في فضل كل من سورتي التحريم والمعارج حديث صحيح خاص بهما عن النبي صلى الله عليه وسلم .

٦- أجمع العلماء أن سورة التحريم مدنية ، وأن سورة المعارج مكية .

٧- أن هناك ترابطا وثيقا ، وتناسقا بديعا بين سورة التحريم وما قبلها وما بعدها ، وسورة المعارج وما قبلها وما بعدها .

الخـــــــاتمـــــــــــــة

٨- لم يثبت في أسباب نزول سورة المعارج أحاديث صحيحة صريحة .

٩- أن الوحدة الموضوعية في سورة التحريم تتعلق ببيان التربية الزوجية ، وأن الوحدة الموضوعية في سورة المعارج تتعلق ببيان حقيقة اليوم الآخر وصفات ومآل المؤمنين به والمنكرين له .

١٠- ظهر للباحث المناسبة بين اسم سورة التحريم وموضوعاتها ، وبين فاتحتها وموضوعاتها ، وكذلك اسم سورة المعارج وموضوعاتها ، وبين فاتحتها وموضوعاتها .

١١- توصل الباحث بعد البحث والنظر والتأمل الطويل إلى أن المحور الأساس في سورة التحريم هو: التربية الزوجية ، وأن أبرز الموضوعات التي عالجتها السورة تمثلت في أربعة موضوعات وهي:

أ) تحريم وعتاب ومغفرة .

ب) التربية في حفظ الأسرار الزوجية .

ج) التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع .

د) التربية الزوجية في ضرب المثل بالنساء الغابرات .

١٢- كما أن الباحث توصل بعد البحث والنظر والتأمل الطويل إلى أن المحور الأساس في سورة المعارج هو : اليوم الآخر وصفات المؤمنين به والمنكرين له ، ومآلهم فيه ، وأن أبرز الموضوعات التي عالجتها السورة تمثلت في ثلاثة موضوعات وهي :

أ) اليوم الآخر وحال المجرم فيه .

ب) المؤمنون باليوم الآخر ، صفاتهم وحالهم فيه .

ج) المنكرون لليوم الآخر ، وبعض أحوالهم .

١٣- أن هناك تناسقا بديعا ، وتناسبا لطيفا ، بين موضوعات كلتا السورتين على حدة ، وبين معاني كل منها وألفاظها ، فهي كلها تمضي في سياق متآلف ، وبأسلوب متناسق ومترابط، تتناسب فواتحها مع موضوعاتها ، وفواتحها مع خواتمها ، وذيول آياتها مع مقدماتها ومواضيعها ، ومعانيها مع أحرفها وكلماتها ، وكل ذلك في سياقها العام ، تبرز فيها كل

الخـــــــاتمـــــــــــــة

سورة بجمالها التناسقي بأبهى صورة ، فكأنها بنيان متصل ومتآلف أشد اتصال وأقوى تآلف .

❖ **ثانيا : توصيات الباحث :**

بعد أن أينعت ثمار هذا البحث وحان قطافها أود أن أسجل أهم التوصيات والمقترحات الآتية :

- آمل من قسم الكتاب والسنة في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى أن يشكل لجنة للاهتمام بهذا المشروع القيم أعني مشروع " التناسق الموضوعي في سور القرآن الكريم" لإخراجه للناس للانتفاع به حتى لا يبقى حبيس الرفوف والأدراج .

- أن في سورة التحريم نبراس عظيم يضيء الطريق للحياة الزوجية ، أوصي بالإفادة منه، والتفقه فيه ، لما له من أثر بالغ في نجاح الحياة الزوجية ، وخاصة فيما يتعلق بحفظ الأسرار الزوجية ، ووقاية النفس والأهل والمجتمع .

- أوصي الباحثين في التفسير الموضوعي وخاصة في باب التناسق توسيع دائرة بحثهم لاستنباط أسرار القرآن الكريم التي لا تنتهي، ومحاولة الإجابة على الكثير من الأسئلة حول السر في اختيار القرآن لكلمات وجمل دون غيرها ، وفي علاقة خواتم الآيات بمقدماتها ومواضيعها .

٤- آمل من أهل اليسر والإحسان تأسيس ودعم الكراسي البحثية حول إظهار وجوه إعجاز النظم القرآني ، مما يساعد على حسن التدبر والتأمل في كتاب الله -ﷻ- .

٦- أوصي الباحثين وطلبة العلم ببث ونشر ثقافة حب التدبر والتأمل لكتاب الله -ﷻ- لدى جيل الشباب المسلم ، بأسلوب مبسط وسهل ، من خلال الدروس العلمية والمحاضرات ، ومن خلال القنوات الفضائية ، المرئية منها والمسموعة ، ومن خلال قنوات التواصل الاجتماعي، ومن خلال الشبكة العنكبوتية .

الخـــــــاتمـــــــــــــة

وختاما : أحمد الله -تعالى- على توفيقه وامتنانه ، وعلى فضله وإنعامه ، فما اجتهدت في هذا البحث ووفقت فيه للصواب فمن الله-تعالى-وحده، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان ، وأسأله سبحانه وتعالى كما أنعم وتفضل أن يسدد القصد ، ويحسن النية ، وأن ينفعني والمسلمين بالعلم النافع والعمل الصالح .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن اهتدى بهديهم ، واستن بسنتهم إلى يوم الدين .

الفهـــارس العامة

وتشتمل على :-

أولا : فهرس الآيات القرآنية .

ثانيا : فهرس الأحاديث والآثار .

ثالثا : فهرس الأعلام .

رابعا : فهرس المصادر والمراجع .

خامسا : فهرس الموضوعات .

الـــفـــهـــــارس

أولا : فهرس الآيات القرآنية

الآية أو طرفها	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ .....﴾	البقرة	١٠٦	٤١
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ .....﴾	آل عمران	١٠٢	٨
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ .....﴾	النساء	١	٨
﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ...﴾	النساء	٥٦	١٨٣
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ .....﴾	المائدة	٣	٨٣
﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ .....﴾	المائدة	٩٧	٨٣
﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن .....﴾	المائدة	١٢٤	٨٦
﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ..﴾	الأنعام	١٣٣	٢٤
﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا .....﴾	الأنفال	٣١	١٨٥
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾	الحجر	٩	٤٢
﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ .....﴾	النحل	٨٩	٤٠
﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ .....﴾	الإسراء	٩	٤٠
﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ .....﴾	الإسراء	٨٨	٢٤
﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ .....﴾	الأنبياء	٩٨	١٠٩
﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ .....﴾	الحج	٤٧	١٧٥
﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ .....﴾	المؤمنون	٦٠	٢٠٢
﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾	الفرقان	٢٣	٢١٥
﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾	الفرقان	٢٤	١٧٥

الفهارس

﴿ .....فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾	الفرقان	٥٩	١٧١
﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ..... ﴾	الفرقان	٧٠	١١٦
﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾	الشعراء	١٣٨	٢٠٢
﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ..... ﴾	القصص	١٢	٨٣
﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى ..... ﴾	القصص	٥٦	١٣٤
﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ..... ﴾	العنكبوت	٤٣	١٣٣
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ .. ﴾	الأحزاب	٧٠-٧٢	٨
﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا... ﴾	فاطر	٢٧	١٧٨
﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾	الصافات	١١٢	١٢٦
﴿ .....إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾	ص	٢١	٣٠
﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ..... ﴾	الزمر	٧٣	١١٧
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ..... ﴾	فصلت	٢٦	١٨٥
﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ .... ﴾	فصلت	٣٧	٢٥
﴿ .....لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ..... ﴾	الزخرف	٣٣	١٧٣
﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ..... ﴾	الأحقاف	٣٥	١٦١
﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾	محمد	٢١	٢٦
﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ..... ﴾	محمد	٣٨	٢٢٣
﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾	ق	٣	١٧٧
﴿ .....وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾	ق	٦	١٣٠
﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ .... ﴾	النجم	٣-٥	٢٦
﴿ ..... فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾	الرحمن	٣٧	١٧٨

الفهارس

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ .....﴾	الواقعة	٦٠-٦١	٢٢٣
﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ .....﴾	المجادلة	١١	١٧٣
﴿رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ....﴾	الطلاق	١١	٦١
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .....﴾	الطلاق	١٢	٥٩
﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ .....﴾	المدثر	٤٩-٥١	٢١٦
﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ .....﴾	القيامة	٣-٤	٢٢٣
﴿.....وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾	النبأ	٤٠	١٨١

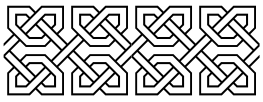

ثانيا : فهرس الأحاديث والآثار

م	طرف الحديث أو الأثر	رقم الصفحة
١	أعطيت مكان التوراة السبع ، وأعطيت مكان الزبور المئين	٤٠
٢	اقرءوا القرآن فإنه يأتي شفيعا لأصحابه	٤١
٣	أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش،	٧٧
٤	أن جماعة من اليهود جاؤوا للنبي ﷺ ، فقالوا : كيف نتّبعك	٢٣
٥	أن رسول اللّه ﷺ كانت له أَمةٌ يطؤها ، فلِم تزل به	٧٧
٦	أن نساء رسول الله ﷺ كُنَّ حزبين: فحزب فيه عائشة وحفصة...	٧٩
٧	حِجَج تترى و عُمَر نسقا يدفعن ميتة السوء و عيلة الفقر.....	٢٣
٨	خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى.....	٩٢
٩	خيركم من تعلم القرآن وعلمه.....	٤١

الـــــفـــــهـــــــــارس

١٠ الصلاة وما ملكت ايمانكم..... ١٩٨

١١ عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، ١٩١

.....

١٢ فاظفر بذات الدين تربت يداك ١٠٣

.....

١٣ قيل : يا رسول الله ما أطول يوما مقداره خمسون ألف ١٧٦
سنة.....

١٤ كانرسول اللّهﷺيحب العسل والحلواء ، ٧٨

.....

١٥ كمل من الرجال كثير ، و لم يكمل من النساء إلا ١٢٧

.....

١٦ لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن وقام به آناء ٤١
الليل....

١٧ لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ١١٦

١٨ لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي ﷺ فقال: ١٣٤

.....

١٩ لن يدخل الجنة أحدا عمله قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه؟ ٢٠٣

.....

٢٠ الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ٤١

.....

الـــفـــهـــــارس

٢١ من حلف على يمين، فرأى غيرها خيرا منها، فليأت ٨٨

٢٢ ناسقوا بين الحج والعمرة ٢٣

.....

٢٣ نزلت سورة التحريم بالمدينة ٣٦

.....

٢٤ ورأيت النار ، فلم أر كاليوم منظرا قط ٧٦

.....

٢٥ يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ٨٥

.....

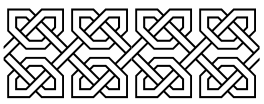

ثالثا : فهرس الأعلام

م	اسم العلم	رقم الصفحة
١	ابن أبي شيبة	٣٧
٢	ابن الجوزي	١٤٠
٣	ابن العربي	٨٠
٤	ابن القيم.....	١٢٣
٥	ابن جرير الطبري.....	٢٣
٦	ابن حجر.....	٧٩
٧	ابن عطية	٢٤
٨	ابن كثير	٨٠
٩	أبو السعود	١٧٩
١٠	أبو أمامة الباهلي.....	٤١
١١	أبو حيان	٢٥
١٢	أحمد بن الزبير الثقفي	١٢
١٣	الألوسي	٣٦
١٤	أم سلمة	٧٩
١٥	البغوي	٨٢
١٦	البقاعي.....	١٢
١٧	التهانوي.....	٣٨
١٨	الجعبري.....	٣١

الـــفـــهـــــارس

١٩ دروزة ٥٤

.....

٢٠ الرازي..... ١٠

.

٢١ زادة ٨٤

٢٢ الزرقاني ٣١

.....

٢٣ الزركشي ٦٤

.....

٢٤ الزمخشري..... ٩٤

.

٢٥ زينب بنت جحش..... ٤٣

٢٦ السخاوي..... ٣٧

٢٧ السعدي ٨٢

٢٨ سعيد حوى..... ١٠

٢٩ سودة بنت زمعة ٧٨

.....

٣٠ سيد قطب ١٣

٣١ السيوطي..... ١٢

٣٢ الشوكاني..... ٣٨

.

٣٣ صفية بنت حيي..... ٤٣

٣٤ الطاهر بن عاشور ١٣

٣٥ عبد الفتاح عبد الغني ٤٢

الفهارس

٣٦ عبد الله بن الزبير..... ٣٩

٣٧ عبيد بن عمير ٧٧

٣٨ عروة بن الزبير ٧٩

٣٩ عكرمة ١٧٥

٤٠ الفراء..... ٣٨

٤١ الفراهي..... ٦٥

٤٢ القاسمي ٨١

٤٣ القرطبي..... ٣٧

٤٤ مارية القبطية ٤٣

٤٥ مجاهد..... ٣٦

٤٦ محمد عبد الله دراز ١٣

٤٧ محمدخليل جيجك..... ٦٤

٤٨ مصطفى مسلم ١٤

٤٩ مقاتل بن سليمان ٣٦

٥٠ مناع القطان ٥٨

٥١ واثلة بن الأسقع..... ٤١

الـــفـــهـــــارس

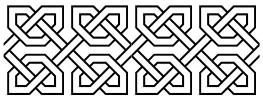

الـــفـــهـــــارس

رابعا : فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ، تحقيق وطبع : مركز الدراسات القرآنية ، التابع لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة ، ١٤٢٦هـ .

٣- أحكام القرآن ، لمحمد بن عبد الله ابن العربي ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٤ه/٢٠٠٣م .

٤- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لأبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني المصري، الطبعة السابعة ، مصر : المطبعة الكبرى الأميرية ، ١٣٢٣هـ .

٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي السعود ، محمد بن محمد العمادي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، الرياض : مكتبة الرياض الحديثة .

٦- أساس البلاغة لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري جار الله ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، الطبعة: الأولى، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

٧- الأساس في التفسير لسعيد حوى ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار السلام ، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م .

٨- أسماء سور القرآن وفضائلها، للدكتورة منيرة محمد الدوسري ، الدمام ، دار ابن الجوزي ، ١٤٢٦ه .

٩- الإصابة في تمييز الصحابة ، للحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق : علي محمد البجاوي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الجيل ، ١٤١٢هـ .

١٠-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، بيروت : دار الفكر ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

الـــفـــهـــــارس

١١-الأعلام لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي ، الطبعة: الخامسة عشر ، دار العلم للملايين ، ٢٠٠٢م .

١٢-البحر المحيط ، لأبي حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي ، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معرض ، الطبعة الأولى ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢ ه/٢٠٠١م .

١٣- البحر المديد ، أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني الإدريسي الفاسي أبو العباس ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

١٤-البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني ، بيروت : دار المعرفة .

١٥- البرهان في تناسب سور القرآن ، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي ، تقديم وتحقيق: د. سعيد بن جمعة الفلاح ، الطبعة الأولى ، الدمام : دار الجوزي ، ١٤٢٨هـ.

١٦- البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

١٧- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، تحقيق : محمد علي النجار ، بيروت: المكتبة العلمية ١٣٩٠ه/١٩٧٠م .

١٨- البيان في عد آي القرآن للإمام أبي عمرو الداني ، تحقيق : د.غانم قدوري الحمد ، ١٤٠٨ه/١٩٨٨م .

١٩- تاج العروس من جواهر القاموس ، لأبي الفيض محمد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ، تحقيق: مجموعة من المحققين ، بيروت : دار الهداية .

٢٠- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د.عمر عبد السلام تدمري ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٢١-تأويلات أهل السنة لمحمد بن محمد بن محمود، أبي منصور الماتريدي تحقيق : د. مجدي باسلوم، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

الـــفـــهـــــارس

٢٢-التبيان في أقسام القرآن لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق : محمد حامد الفقي ، بيروت : دار المعرفة .

٢٣-تتمة الأعلام للزكلي لمحمد خير رمضان ، الطبعة الثانية ، الدمام ، دار ابن حزم ، ١٤٢٢ه.

٢٤- التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر ابن عاشور ، تونس : دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

٢٥-تذكرة الحفاظ لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

٢٦- التفسير الحديث ، لمحمد عزت دروزة ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ،١٣٨٣هـ.

٢٧- تفسير القرآن العظيم ، لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية ، مكة المكرمة: دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٢٨-التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب ، القاهرة : دار الفكر العربي .

٢٩-التفسير القيم لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان ، الطبعة الأولى، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، ١٤١٠هـ .

٣٠- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي التميمي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٣١- تفسير المراغي ، لأحمد مصطفى المراغي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .

٣٢-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للدكتور/ وهبة الزحيلي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، دمشق : دار الفكر ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

الـــفـــهـــــارس

٣٣-التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق للدكتور صلاح الخالدي ، الأردن : دار النفائس، ١٤٢٨ه .

٣٤-التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ، للدكتور زياد الدغامين ، الأردن : دار عمار .

٣٥-التفسير الواضح ، للدكتور: محمد محمود حجازي ، الطبعة الرابعة ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، ١٣٨٨ه/١٩٦٨م .

٣٦-التفسير الوسيط ، محمد السيد الطنطاوي ، ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : مطبعة السعادة، ١٤٠٧ه/١٩٧٨م .

٣٧- تفسير عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ، تحقيق : أسعد محمد الطيب ، صيدا : المكتبة العصرية .

٣٨-تفسير مجاهد لأبي الحجاج مجاهد بن جبر المكي القرشي ، تحقيق : الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل ، الطبعة الأولى ، مصر : دار الفكر الإسلامي الحديثة ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

٣٩-تفسير مقاتل بن سليمان لأبي الحسن مقاتل بن سليمان البلخى ، تحقيق : عبد الله محمود شحاته ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار إحياء التراث ، ١٤٢٣هـ .

٤٠-تَكملَة مُعجم المُؤلفين ، لمحمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

٤١-تَكملَة مُعجم المُؤلفين لمحمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف ، الطبعة الأولى ، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

٤٢- تناسق الدرر في تناسب السور ، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٤٣- تهذيب التهذيب لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى، الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية ، ١٣٢٦هـ .

الـــفـــهـــــــارس

٤٤-تهذيب الكمال في أسماء الرجال لأبي الحجاج جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ، تحقيق : د. بشار عواد معروف ، الطبعة الأولى، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٠ه/١٩٨٠م .

٤٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

٤٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، بتحقيق: أحمد محمد شاكر ، الطبعة الأولى، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٤٧- الجامع الصحيح المختصر،لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي(ت٢٥٦هـ)، الطبعة الثالثة ، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ، بيروت : دار ابن كثير ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٤٨- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ) : تحقيق : هشام سمير البخاري ، الرياض : دار عالم الكتب ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .

٤٩-جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين علي بن محمد السخاوي المصري الشافعي، تحقيق: د. مروان العطيَّة - د. محسن خرابة ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار المأمون للتراث ، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م .

٥٠-جواهر البيان في تناسب سور القرآن ، لأبي الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري الحسني، القاهرة : مكتبة القاهرة .

٥١- حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي ، لمحي الدين محمد مصلح الدين زاده القوجوي ، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩ه/١٩٩٩م .

الـــفـــهـــــارس

٥٢- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، لجلال الدين السيوطي ، تحقيق: د.عبد الله عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٥٣-دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري لمحمد خليل جيجك ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢١هـ .

٥٤-الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، لإبراهيم بن علي بن محمد ، ابن فرحون ، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمدي أبو النور ، بيروت : دار التراث للطبع والنشر.

٥٥-روح البيان ، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

٥٦- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ) ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

٥٧-زاد المسير في علم التفسير،لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤ هـ ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٥٨- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لشمس الدين محمد الخطيب الشربيني ، بيروت : دار الكتب العلمية .

٥٩- سعادة الدارين في بيان وعد آي معجز الثقلين ، لمحمد بن علي بن خلف الحسيني ، الشهير بالحداد ، الطبعة الأولى، القاهرة : مطبعة المعاهد بجواز قسم الجمالية ، ١٣٤٣هـ.

٦٠- السنن ، لأبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت : دار الفكر .

٦١- السنن ، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت : دار الفكر .

٦٢- السنن ، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

الـــفـــهـــــارس

٦٣-السنن الصغرى لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي ، تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة ، الطبعة الثانية ، حلب : مكتب المطبوعات الإسلامية ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٦٤-السنن الكبرى لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي ، تحقيق : حسن عبد المنعم شلبي ، أشرف عليه : شعيب الأرناؤوط ، قدم له : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١م .

٦٥-سير أعلام النبلاء لشمس الدين أبي عبد الله الذهبي ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثالثة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٦٦- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، الطبعة الرابعة ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٦٧-صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني ، أشرف على طبعه: زهير الشاويش ، بيروت : المكتب الإسلامي .

٦٨-صحيح مسلم ، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

٦٩-صفحات من حياة علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله - للدكتور: عبد الله بن محمد بن أحمد الطيار، الطبعة الاولى، الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٣هـ.

٧٠-طبقات الحفاظ لعبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ه .

٧١-طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع .

الـــفـــهـــــارس

٧٢-طبقات الشافعية لتقي الدين ابن قاضي شهبة ، تحقيق : د. الحافظ عبد العليم خان ، الطبعة الأولى ، بيروت : عالم الكتب ، ١٤٠٧هـ .

٧٣-طبقات الفقهاء لأبي اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي ، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور ، تحقيق : إحسان عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الرائد العربي ، ١٩٧٠م .

٧٤-طبقات المفسرين العشرين لجلال الدين السيوطي ، تحقيق : علي محمد عمر ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٣٩٦ه .

٧٥-طبقات المفسرين لمحمد بن علي بن أحمد الداوودي المالكي ، تحقيق: لجنة من العلماء، بيروت : دار الكتب العلمية .

٧٦-عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، لأبي محمد محمود بن أحمد الحنفى بدر الدين العينى ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

٧٧-غريب الحديث لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، تحقيق : الدكتور عبد المعطي أمين القلعجي ، الطبعة الأولى، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥ه/١٩٨٥م .

٧٨-فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، للحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ، بيروت: دار المعرفة ، ١٣٧٩ه .

٧٩- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنى به: يوسف الغوش، الطبعة الرابعة، بيروت: دار المعرفة ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .

٨٠- الفرائد الحسان في عد آي القرآن ، ومعه شرح نفائس البيان ، تأليف : عبد الفتاح عبد الغني القاضي ، الطبعة الأولى ، المدينة المنورة : مكتبة الدار ، ١٤٠٤ه.

٨١- فقه السيرة النبوية ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، الطبعة العاشرة ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٤١١هـ/١٩١١م .

الـــفـــهـــــارس

٨٢-فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات لمحمد عَبْد الحَيّ الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني ، تحقيق : إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٢م .

٨٣-في ظلال القرآن ، لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ، الطبعة السابعة عشر ، بيروت : دار الشروق ، ١٤١٢هـ .

٨٤-القاموس المحيط لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي ، الطبعة الثامنة ، بيروت : مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

٨٥- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

٨٦-كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حسام الدين الهندي الشهير بالمتقي الهندي ، تحقيق : بكري حياني - صفوة السقا ، الطبعة الخامسة ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٨٧-اللباب في علوم الكتاب ، لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

٨٨-لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، تحقيق : نخبة من الأساتذة العاملين بدار المعارف ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار المعارف .

٨٩-مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور/مصطفى مسلم ، الطبعة الثالثة ، دمشق : دار القلم، ١٤٢١ه/٢٠٠م .

٩٠-مباحث في علوم القرآن ، للدكتور/ مناع خليل القطان ، الطبعة الثالثة ، الرياض : مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

الـــفـــهـــــارس

٩١-مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، نور الدين أبو الحسين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) ، بيروت : دار الفكر ، ١٤١٢هـ .

٩٢-محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي ، الطبعة الأولى ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

٩٣-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

٩٤-المحرر الوجيز في عد آي الكتاب العزيز شرح أرجوزة العلامة الشيخ محمد متولي ، لعبد الرزاق علي إبراهيم موسى، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة المعارف ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٩٥- المحرر في أسباب النزول من خلال الكتب السبعة ، للدكتور : خالد المزني ، الدمام ، دار ابن الجوزي ، ١٤٢٦ه .

٩٦- مختار الصحاح ، لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي ، تحقيق : محمود خاطر ، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

٩٧-المدخل إلى التفسير الموضوعي ، للدكتور عبد الستار فتح الله سعيد ، الطبعة الثانية ، مصر ، دار التوزيع والنشر الإسلامي ، ١٩٩١م .

٩٨-مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، للحافظ جلال الدين أبي السيوطي ، تحقيق: محمد عمر بازمول ، الطبعة الأولى، مكة المكرمة: المكتبة المكية، ١٤٢٣ه/٢٠٠٢م.

٩٩- المستدرك على الصحيحين ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، وبذيله : التلخيص ، للحافظ الذهبي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

١٠٠- المسند ، لأبي عبد الله أحمد ابن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، الطبعة الثانية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

الـــفـــهـــــارس

١٠١- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم عمر البقاعي، حققه وعلق عليه: د.عبد السميع محمد أحمد حسنين ، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

١٠٢- المصنف ، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥ هـ) ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، مكتبة الراشد ـ الرياض، تحقيق كمال يوسف الحوت .

١٠٣- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، الطبعة الثانية ، الهند : المجلس العلمي ، ١٤٠٣ه .

١٠٤- معالم التنزيل ، لمحيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق : محمد عبد الله النمر ، عثمان جمعة ضميرية ، سليمان الحرش ، الطبعة الرابعة ، مكة المكرمة : دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

١٠٥- معاني القرآن ، لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء ، الطبعة الثالثة ، بيروت : عالم الكتب،١٤٠٣ه/١٩٨٣م .

١٠٦- المعجم الوسيط ، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) ، دار الدعوة .

١٠٧- معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

١٠٨- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي أبو عبدالله ، الطبعة الأولى ، تحقيق : بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤ه .

١٠٩- مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، لعبد الحميد الفراهي ، تحقيق: د.محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٢م.

١١٠- المفردات في غريب القرآن ، للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، بيروت : دار المعرفة .

الـــفـــهـــــارس

١١١- مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

١١٢- الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي ، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، الطبعة الأولى ، دار ابن عفان ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١١٣- موسوعة التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف أ.د.مصطفى مسلم ، الطبعة الأولى ، من إصدارات كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة ، ١٤٣١هـ-/٢٠١٠م .

١١٤- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد بن علي التهانوي ، تحقيق : د. علي دحروج ، تقديم وإشراف ومراجعة : د. رفيق العجم ، نقل النص الفارسي إلى العربية : د. عبد الله الخالدي ، الترجمة الأجنبية : د. جورج زيناني ، الطبعة الأولى ، بيروت : مكتبة لبنان ناشرون ، ١٩٩٦م .

١١٥- ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣م .

١١٦- نحو تفسير موضوعي لسور لقرآن الكريم ، لمحمد الغزالي ، الطبعة الرابعة ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١١٧- نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان لعبد الحميد الفراهي ، الطبعة الأولى ، الهند : الدائرة الحميدية ، ٢٠٠٨م .

١١٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق : مجموعة من العلماء بدائرة المعارف العثمانية ، القاهرة : ١٤٠٤هـ/١٩٨٣.

١١٩- النكت في القرآن الكريم ، لأبي الحسن علي بن فضال المجاشعي ، تحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٧م .

الـــــفـــــهـــــــــارس

١٢٠- النكت والعيون ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، بيروت : دار الكتب العلمية .

١٢١- النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير تحقيق:طاهر الزاوى-محمود الطناحي ، بيروت : المكتبة العلمية ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

١٢٢- نيل الأوطار لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ، تحقيق : عصام الدين الصبابطي ، الطبعة الأولى ، مصر : دار الحديث ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .

١٢٣- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل بن محمد أمين الباباني البغدادي، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١م ، أعادت طبعه بالأوفست ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

١٢٤- الوافي بالوفيات لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، بيروت : دار إحياء التراث ، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .

١٢٥- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني ، تقديم وتحقيق : عربي عبد الحميد علي ، بيروت : دار الكتب العلمية .

١٢٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد البرمكي ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت : دار صادر .

١٢٧- موقع المؤتمر الدولي للدراسات القرآنية: http://www.quranicconferences.com

١٢٨- موقع المكتبة الشاملة http://shamela.ws/index.php/author/١٤٩١.

١٢٩- موقع الشبكة الدعوية http://www.daawa-info.net/bio.php?id=٩٢ .

١٣٠- موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة www.qurancomplex.org/tbooks/default.asp?

١٣١- موقع ملتقى أهل التفسير www.tafsir.net

الـــــفـــــهـــــــــارس

خامسا : فهرس الموضوعات

ملخص الرسالة بالعربي ٣

ملخص الرسالة بالانجليزي ٤

إهداء ٥

كلمة شكر وتقدير..... ٦

المقدمة ، وتشتمل على : ٧

أهمية الموضوع ٩

أسباب اختيار الموضوع ٩

أهداف الموضوع..... ١١

الجهود والدراسات السابقة في الموضوع..... ١١

منهجي في البحث ١٥

هيكل البحث ومحتواه..... ١٦

.....

التمهيد: التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة..... ٢١

المطلب الأول : معنى التناسق لغة واصطلاحا..... ٢٢

المطلب الثاني : تعريف الموضوع لغة واصطلاحا..... ٢٨

المطلب الثالث: تعريف السورة لغة واصطلاحا..... ٣٠

المطلب الرابع: تعريف التناسق الموضوعي في السورة ٣٢

الباب الأول : التناسق الموضوعي في سورة التحريم..... ٣٣

الـــفـــهـــــارس

الفصل الأول : **بين يدي سورة التحريم**..... ٣٤

المبحث الأول : اسم سورة التحريم ، وفضلها وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها ، ومكيها ومدنيها ٣٥

المطلب الأول : اسم سورة التحريم ، وما ذكر لها من أسماء..... ٣٦

المطلب الثاني : فضل سورة التحريم ٤٠

المطلب الثالث : عدد آيات سورة التحريم ٤٢

المطلب الرابع : تاريخ نزول سورة التحريم ٤٣

المطلب الخامس : مكي سورة التحريم ومدنيها ٤٤

المبحث الثاني : اختصاص سورة التحريم بما اختصت به..... ٤٥

المبحث الثالث : مقاصد سورة التحريم..... ٤٨

المبحث الرابع : الوحدة الموضوعية لسورة التحريم ٥٣

المبحث الخامس : مناسبات سورة التحريم ٥٧

تمهيد : تعريف المناسبة لغة واصطلاحا ٥٨

الـــفـــهـــــارس

المطلب الأول : مناسبة سورة التحريم لما قبلها وما بعدها ٥٩

المطلب الثاني : مناسبة اسم سورة التحريم لموضوعاتها..... ٦٤

المطلب الثالث : مناسبة فاتحة سورة التحريم لموضوعاتها..... ٦٨

المطلب الرابع : مناسبة فاتحة سورة التحريم لخاتمتها ٦٩

الفصل الثاني : **موضوعات سورة التحريم وتناسقها**..... ٧١

تمهيد : بين يدي موضوعات سورة التحريم..... ٧٢

المبحث الأول: تحريم وعتاب ومغفرة ٧٤

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة ٧٦

المطلب الثاني : سبب نزول السورة ٧٧

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع ٨٣

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع..... ٨٧

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات..... ٨٨

المبحث الثاني : التربية في حفظ الأسرار الزوجية..... ٨٩

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة ٩١

الـــــفـــــهـــــــــارس

.....

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق ٩٢

.....

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع ٩٤

.....

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع..... ١٠٢

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات..... ١٠٣

المبحث الثالث : التربية الوقائية للنفس والأهل والمجتمع ١٠٤

.....

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة ١٠٦

.....

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق ١٠٧

.....

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع ١٠٩

.....

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع..... ١١٥

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات..... ١١٦

المبحث الرابع : التربية الزوجية في ضرب المثل بالنساء ١١٨

الغابرات....

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة ١٢٠

.....

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق ١٢٢

.....

الـــفـــهـــــارس

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع ١٢٥
المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات الموضوع..... ١٣٢
المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات..... ١٣٣
الباب الثاني : التناسق الموضوعي في سورة المعارج..... ١٣٦
الفصل الأول : بين يدي سورة المعارج ١٣٧
المبحث الأول : اسم سورة المعارج ، وفضلها وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها ، ومكيها ومدنيها ١٣٨
.....
المطلب الأول : اسم سورة المعارج ، وما ذكر لها من أسماء..... ١٣٩
المطلب الثاني : فضل سورة المعارج ١٤١
المطلب الثالث : عدد آيات سورة المعارج ١٤٢
المطلب الرابع : تاريخ نزول سورة المعارج ١٤٣
المطلب الخامس : مكي سورة المعارج ومدنيها ١٤٤
المبحث الثاني : اختصاص سورة المعارج بما اختصت به..... ١٤٥
المبحث الثالث : مقاصد سورة المعارج ١٤٨
.....

الـــفـــهـــــارس

المبحث الرابع : الوحدة الموضوعية لسورة المعارج ١٥٢
.....
المبحث الخامس : مناسبات سورة المعارج ١٥٦
.....
المطلب الأول : مناسبة سورة المعارج لما قبلها وما بعدها ١٥٧
.....
المطلب الثاني : مناسبة اسم سورة المعارج لموضوعاتها..... ١٦٢
المطلب الثالث : مناسبة فاتحة سورة المعارج ١٦٣
لموضوعاتها.....
المطلب الرابع : مناسبة فاتحة سورة المعارج لخاتمتها ١٦٤
الفصل الثاني : **موضوعات سورة المعارج وتناسقها**..... ١٦٥
تمهيد : بين يدي موضوعات سورة ١٦٦
المعارج.....
المبحث الأول: اليوم الآخر ، وحال المجرم فيه ١٦٨
.....
المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة ١٧٠
.....
المطلب الثاني: التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع ١٧١
.....
المطلب الثالث : التفسير الإجمالي لآيات ١٨٩
الموضوع.....
المطلب الرابع : مما ترشد إليه الآيات..... ١٩١
المبحث الثاني : المؤمنون باليوم الآخر ، صفاتهم ، وحالهم فيه ١٩٣

الـــفـــهـــــارس

.....

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة ١٩٥

.....

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق ١٩٦

.....

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع ١٩٨

.....

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات ٢١٠

الموضوع.....

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات..... ٢١١

المبحث الثالث : المنكرون لليوم الآخر ، وبعض أحوالهم..... ٢١٢

المطلب الأول : ربط الموضوع بالمحور الأساس للسورة ٢١٤

.....

المطلب الثاني : التناسق بين هذا الموضوع والموضوع السابق ٢١٥

.....

المطلب الثالث : التناسب بين الآيات والجمل في الموضوع ٢١٧

.....

المطلب الرابع : التفسير الإجمالي لآيات ٢٢٧

الموضوع.....

المطلب الخامس : مما ترشد إليه الآيات..... ٢٢٨

الخاتمة ، وتشتمل على ٢٢٩

:.....

أهم النتائج ٢٣٠

الـــفـــهـــــارس

أهم التوصيات ٢٣٢

الفهارس العامة ، وتشتمل على:..... ٢٣٣

أولا : فهرس الآيات القرآنية ٢٣٤

ثانيا : فهرس الأحاديث والآثار..... ٢٣٧

ثالثا : فهرس الأعلام..... ٢٣٩

رابعا : فهرس المصادر والمراجع..... ٢٤٢

خامسا : فهرس الموضوعات..... ٢٥٤

والحمد لله رب العالمين